

سلسلة م / علوم إنسانية

محمد طاهر

الشاذلي بورونية

قرطاج البونية

تاريخ حضارة



مركز النشر الجامعي



اهداءات ٢٠٠١
الحكومة التونسية
تونس

محمد الطاهر

الشاذلي بورونبة

قرطاج البونية

تاريخ حضارة



مركز النشر الجامعي

1999

مقدمة

دفعنا لتأليف هذا الكتاب إيمان راسخ بأهمية تأثير حضارة قرطاج لا فقط في تاريخ البلاد التونسية بل وفي تاريخ البحر الأبيض المتوسط. ولقد أنسنا عند المهتمين بهذه الفترة رغبة في أن يوضع على ذمتهم مؤلف يسد فراغا في المكتبة العربية بحكم افتقارها حتى اليوم إلى مرجع باللسان العربي، إذا ما استثنينا بعض المحاولات القليلة الجادة.

ولمّا كان الاتجاه اليوم ينحو إلى تدريس تاريخ هذه الحضارة باللغة العربية فقد سعينا إلى أن تكون عبارة الكتاب على سهولتها تجربة لتطويع لغتنا للتعبير التاريخي الدقيق. ويعي القارئ أن ذلك لم يكن بالأمر السهين لذلك لا بد لنا أن نعترف أننا لقينا صعابا كثيرة في اختيار المصطلحات عند وضع هذا التأليف. واضطررنا في مناسبات عديدة لتبني المصطلح كما ورد في لغته الأصلية ولكننا شفّعناه عند الاقتضاء بتعريف عنا أن يجمع بين الدقة والإيجاز. ونرجو أن يكون في هذا المجهود الذي بذل ما يشجع المختصين على الإيمان بقدرة اللغة العربية على التكيف للتدليل على المعاني العلمية غير أن سعينا هذا لا يغني بأي شكل من الأشكال عن النظر في ما كتب باللغات الأخرى.

بعد مقارنة أولى لتاريخ هذه الحضارة وما كتب حولها منذ القرن الماضي لن يجد القارئ صعوبة كبيرة في التفطن إلى وجود تأليف عامة سلّطت الأضواء على حضارة قرطاج من كلّ الجوانب وقد نحت الدراسات لتحقيق ذلك منحيين اثنين:

- منحى أول دأب أصحابه على داسة تاريخ الحضارة البونية ضمن إطار دراستهم لحضارة الفينيقيين عامة ويتم نتيجة لذلك التمييز بين

فينيقي الشرق وفينيقي الغرب وتغطي دراسة الحضارة القرطاجية عندها مجموعة من الفصول تبوّب عادة في آخر المؤلف.

- منحى ثان ركّز أصحابه على دراسة الحضارة البونية في إطار حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي مع التشديد عند الاقتضاء على الجذور الشرقية لهذه الحضارة وهو تمشي لا غنى عنه لفهم خصوصيات تاريخ قرطاج خاصة بالنسبة لبعض الجوانب كالمؤسسات والحياة الدينية وغيرها. من هنا نتيبن أن محاولتنا المتواضعة إنما تنزل في الواقع ضمن محاولات عديدة سبقت، ألقت في لغات عديدة وستلونها دون شك كتابات أخرى على ضوء ما ستحققه المعرفة التاريخية من تقدم لكن وبالرغم من هذا المعطى الأخير يجب القول أن بعض الدراسات شكلت محطات مضيئة في تاريخ هذا الاختصاص بقطع النظر عن قدم تواريخ صدور البعض منها على الأقل وذلك بحكم إسهاماتها الواضحة في إلقاء أسس تقليد علمي سليم في التعامل مع تاريخ القرطاجيين. كما لا نفوتنا في هذا السياق أن ننوّه بجهود التدريس والبحث المنجزة باللغة العربية والتي قام بها الأساتذة محمد حسين فنطر ونبيل قلّالة وأحمد الفرجاوي بالنسبة للتاريخ البوني والأساتذ عمار المحجوبي بالنسبة للتاريخ الروماني.

وفي الواقع لم يكن غياب تأليف باللغة العربية في هذا الاختصاص الو اعز الوحيد الذي حثنا على صياغة هذا الكتاب، بل أن يقينا عميقا بأهمية ما حققه البحث التاريخي على امتداد الفترة الأخيرة من تقدم قد رستخ في أذهاننا مشروعية العمل الذي نعرض ثماره على قراءنا، فقد شملت جهود البحث كامل أرجاء الإمبراطورية القرطاجية تقريبا ونذكر منها بالخصوص الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج والتنقيبات الأثرية التي عرفتها مواقع عديدة من البلاد التونسية ككركوان وقلبيبة ومنطقتي الساحل والشمال الغربي (دقة، بلاريجيا، شمتو...).

أما خارج بلادنا فقد أثمرت الحفريات التي أنجزتها مختلف البعثات الإيطالية في كل من مالطة وصقلية (موتيني بالخصوص) وسردينيا (مواقع تاروس، موتني سيراى، سلكيس...) نتائج ممتازة تذكر بالأخرى التي طالت المواقع الفينيقية - البونية جنوب شبه الجزيرة الايبيرية (توسكانوس، المنكب ...) بفضل الجهود المشتركة الألمانية - الإسبانية دون أن ننسى بطبيعة الحال ما قدمه البحث الأثري من إضافات بفضل الحفريات المنجزة في مواقع لم تكن خاضعة للسيطرة البونية ولكن ربطتها بقرطاج علاقات اقتصادية وطيدة كمساليا وشبه الجزيرة الإيطالية وبلاد الإغريق الشرقية (أثينا - كورنثة) وهو ما سمح لنا اليوم بتقديم رؤية أكثر دقة عن هذه الحضارة وذلك ببعديها:

- الداخلي: إذ يمكن لنا اليوم أن نجزم أن معرفتنا لجوانب عديدة من حضارة قرطاج كانت حتى تواريخ قريبة أما مبهمة تماما أو محل جدل كبير بين المختصين توضحت نسبيا. ولا يمكن لنا في هذه المقدمة أن نعدّد كلّ الأمثلة المجسدة لهذا الحكم ولكن يكفي التذكير بما حملته الحفريات الأخيرة من نتائج تخص التمدين بمختلف مكوناته في كلّ من قرطاج وكركوان وموتيني (الأحياء السكنية، الأنهج، الأسوار، الورشات الحرفية، المقابر...) وهو ما سمح بإجراء المقارنات والمقاربات بهدف تقديم رؤية أوضح لهذا الجانب من هذه الحضارة كما يمكن أن نذكر أيضا بالاحتشافات الهامة التي تمس عالم الموتى وخاصة الأثاث الجنائزي، يضاف إلى ذلك قضية تأسيس قرطاج التي شغلت المختصين طويلا...

- الخارجي: اقتصرت معرفتنا بتاريخ هذه الحضارة ولفترة طويلة على الصراعات العسكرية التي وضعتها وجها لوجه ضد الإغريق في مرحلة أولى وضد الرومان في مرحلة لاحقة وذلك بحكم الإضاءات المشوهة التي تقدمها مصادرها الأدبية والتي لم تهتم بقرطاج إلا من هذه الزاوية العسكرية تقريبا غير أن هذه النظرية الأحادية أمكن لنا اليوم

تعديلها بفضل اللقي الأثرية التي تسمح اليوم بتلمس أوجه أخرى لا تقل أهمية عن الجانب العسكري ونعني بها المبادلات الاقتصادية وهو ما وُقر للمختصين فرصة لتنزيل تاريخ هذه القوة في إطاره المتوسطي ولكن بكل أبعاده العسكرية والاقتصادية والثقافية. وطبيعي أن تتراءى لنا اليوم صورة قرطاج بمظهر يختلف عما تعودت تقديمه الأبحاث الأولى. وأمكن لنا استجلاء أوجه التأثير الذي مارسته على الحضارات المجاورة ومدى تأثير هذه الحضارات بدورها على الحضارة القرطاجية. وهو ما أكسب قرطاج هوية متفردة ذلك أنها جمعت بين التأثيرات الموروثة عن البلاد الفينيقية بحكم شرقية المهد الذي انحدرت منه، والتأثيرات التي اكتسبتها من الثقافات المجاورة لينصهر كل ذلك في ثقافة أثّرت في تاريخ المتوسط وأثّرت، فابتعدنا بذلك عن صورة قرطاج المتسلطة والتي لم يكن يربطها بوسطها الإفريقي سوى الضريبة التي كانت تستخلصها عنوة من السكان الأصليين لتحدث عن تلاقح وتأثيرات متبادلة ساعدت الحفريات المنجزة في الشمال الغربي من البلاد التونسية في الكشف عن بعض مظاهرها.

لكل هذه الأسباب أردنا لمؤلفنا هذا أن يكون مؤلفا وأفيا قدر الإمكان قريب التناول يسهل استيعابه يجمع بين الاعتماد على أحدث المراجع الأجنبية ودقة المادة محاولين تتبع آخر ما انتهى إليه البحث العلمي في تاريخ هذه الحضارة ولتيسير استغلال هذا المرجع بدا من الصائب تقسيم هذا المجهود على جزئين.

- جزء أول : يجمع بين فصوله هاجس محاولة كتابة تاريخ قرطاج الداخلي، لكننا ارتأينا ان لا سبيل لذلك دون التمهيد بجانبين اثنين، يسعى الأول لتبصير القارئ بطبيعة المصادر المعتمدة في كتابة تاريخ قرطاج عامة حتى يفهم أنه بالرغم من التقدم الحاصل في هذا الاختصاص تظل بعض الجوانب مجهولة تماما أو تكاد بحكم فقر المادة المصدريّة التي بحوزتنا. ولذلك تتضارب الآراء وتتعدد الفرضيات في شأن نفس النقطة.

آمنا أيضا وأسوة بالعديد ممن تقدمونا، بأن لا مجال لفهم حضارة قرطاج ما لم نعرض في فصل مستقل للتوسعات الفينيقية في غرب المتوسط لما سيكون لذلك من انعكاسات على تتبع تطور الأحداث في مرحلة لاحقة (بروز قرطاج في الفضاء المتوسطي وتزعمها للمستعمرات الفينيقية في الجزء الغربي من المتوسط والصراع مع الإغريق...) ثم أفردنا بعد ذلك ثلاثة فصول لتناول:

- تأسيس قرطاج وفيه سعينا إلى الإلمام بمختلف جوانب هذا الموضوع ونعني بذلك المصادر الأدبية وقد وقع الاهتمام بها من زاويتين اثنتين: زاوية أولى تسعى لقراءة الأسطورة الواردة لدى البعض من مصادرها قراءة نقدية في علاقة مع الذهنية التي ابتدعتها معتمدين في ذلك أحدث ما كتب في هذا الشأن، وزاوية ثانية وترتبط بشكل وثيق بالجانب الثاني والمتعلق بأقدم ما عثر عليه التنقيب الأثري وقد قصدنا طبعاً قضية تأريخ عملية التأسيس نفسها.

- الإطار الحضري هو الباب الرابع من هذا الجزء. وقد سعينا فيه للاستفادة بالدرجة الأولى من النتائج التي توصلت إليها مختلف البعثات المشاركة في الحملة العالمية لانقاذ موقع قرطاج، وهي إضافة تشكل بإجماع كل الدراسات منعرجاً حاسماً في تأريخ الدراسات البونية، ذلك أنه أمكن اليوم رصد تطور التمدين على أرض العاصمة القرطاجية على امتداد الفترة الممتدة من أواسط القرن الثامن وربما قبل ذلك بقليل حتى تأريخ تحطيم المدينة. وتوضّحت بالتالي الرؤية بالنسبة لاستفهامات كنا لا نملك إجابات جازمة في شأنها، كمسألة تحديد موضع المدينة العتيقة والموانئ وغيرها. وبسبب غزارة ما نشر حول هذا الجانب على امتداد العشرين سنة الأخيرة، لم يمكن من همنا سرد الحقائق العلمية في صورة نتائج مجردة مبتورة، ولكننا حاولنا دعم المعلومات بمجموعة من التصميمات

استقيناها خاصة من أعمال من تولوا القيام بهذه الحفريات وذلك بهدف تقديم رؤية تزوج بين التبسيط والدقة.

- كما سعينا من خلال الباب المخصص لدراسة تاريخ المؤسسات القرطاجية لتقديم عمل يلقي مزيدا من الأضواء على هذا الجانب من حضارة البونيين، وهو جانب حظي للتذكير بإعجاب عديد الكُتّاب القدامى واعتبر بالتالي من أبرز الدعائم المؤسسة لقوة قرطاج محاولين استثمار مختلف الإشارات الواردة في المصادر الأدبية والإضافات التي تحققت بفضل النصوص النقائشية، ذلك أنه تسنى لنا الوقوف بحكم تجربتنا المتواضعة على ما يعترض الدارس عامة والطالب خاصة من عقبات في الفهم عملنا قدر جهدنا على إزالتها وهي عقبات ترجع إلى افتقار المادة المصدرية للدقة. وهو ما أثر سلبا على الدراسات المحدثّة فتضاربت الرؤى وتعددت الفرضيات وعسر نتيجة كلّ ذلك الإلمام الصحيح بهذا الجانب من الحضارة القرطاجية.

- لم تشكل ندرة المصادر الصعوبة الوحيدة التي واجهناها عند مقاربتنا للباب المخصص لدراسة إشكالية علاقة قرطاج بمجالها الإفريقي، إذ اصطدنا بالإضافة إلى ذلك بسلسلة من الأحكام المسبقة ذاعت طويلا عند التعرض لطبيعة الصلات بين قرطاج والسكان الأصليين، إذ تعودت جلّ الدراسات المعاصرة أن تقدّم لنا البونيين بصورة "المستغلّين العاملين على استنزاف العنصر المحلي" ولكن قراءة متمنّة في تقارير الحفريات الأخيرة دفعتنا لمراجعة هذه الأحكام وحثتنا بالتالي على تناول هذه المسألة من منظور مغاير يسعى إلى أن يأخذ بعين الاعتبار التأثيرات الحضارية دون أن يعني ذلك بالضرورة إنكارا لبقية الجوانب الأخرى من هذه العلاقة.

- بالنسبة للفصل السابع والمخصص لدراسة المجتمع والاقتصاد القرطاجيين، وجب التأكيد على أن إلمانا بأبرز سمات هذا الجانب ظلّ محدودا وذلك على امتداد فترة طويلة بحكم فقر المادة المصدرية الأدبية

من جهة والإنعكاسات السلبية للحفريات الأولى المنجزة على أرض العاصمة البونية من جهة ثانية. غير أنّ الفترة الأخيرة طبعت بتزايد عدد اللقى وخاصة الفخارية منها في مواقع عديدة من الإمبراطورية القرطاجية وخارجها، وهو ما سمح للدارسين بتبيين وجود خطوط مبادلات هامة تربط قرطاج بمختلف هذه المناطق وتوضّحت رؤيتنا نسبيا لجوانب من التاريخ الإقتصادي لهذه الحضارة خاصة وأنّ مصادرنا تجمع على القول بأنّ التجارة مثّلت عمدة الإقتصاد البوني.

أمّا بالنسبة للنشاط الفلاحي فقد مثّلت المعلومات الواردة لدى كلّ من ديودوروس الصقلّي وبوليبيوس عند تعرّضهما لحملتي طاغية سرقوسة آغاتوكلاس والقنصل الروماني ريجولوس على إفريقيا أبرز ما إعتدناه في صياغة هذا الفصل. وبديهيّ أن نفرد حتّزا خاصاً بماجون الذي لقّب "بأب علم الزراعة" فقد كانت موسوعته الفلاحية من أبرز غنالم الحرب التي انتقاما الرومان وقاموا بترجمتها إلى اللاتينية سنة سقوط قرطاج.

يصطدم المهتم بتاريخ المجتمع القرطاجي مرّة أخرى بفقر مصادرنا، وذلك على نقب بعض الحضارات الأخرى، كالحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية. غير أنّ الجهود التي بذلها الباحثون المعاصرون مؤخرا لاستنطاق مختلف أنواع المصادر، وخاصة النقائشية منها، سمحت بتوسيع دائرة معارفنا حول بعض الفئات الإجتماعية التي لم تستقطب اهتمام الكتاب الكلاسيكيين كالعبيد والأجانب القاطنين بقرطاج وغيرهم وهو ما عملنا قدر جهلنا على إفادة القارئ به.

– أخيرا وعلى امتداد الفصل الثامن من هذا الجزء، سعينا إلى تسليط بعض الأضواء على الحياة الدينية في قرطاج متبعين دوما نفس التمشي، إذ عملنا في البداية على إبراز الصعوبات التي تواجه المهتم بهذا الميدان والمتأتية أساسا من افتقارنا لمصادر أدبية بونية مباشرة من شأنها إضاءة هذا الجانب من تاريخ هذه الحضارة.

من هذا المنطلق وبحكم لجوء المختصين إلى المصادر الإغريقية والرومانية، طُبعت عدد الدراسات المعاصرة بنوع من النزوع نحو إسقاط واقع حضارات غربية على واقع الحضارة البونية متناسية أن "النزعة المحافظة" لدى القرطاجيين إنما تتجلى بالدرجة الأولى من خلال تمسكهم على، ما نرجّح، بمعتقداتهم ذات الجذور الشرقية.

بعد هذه التوطئة المنهجية عملنا على مدّ القارئ بآخر ما توصّل إليه المؤرخون الموضوعيون بشأن أشهر آلهة قرطاج محجّمين قدر الإمكان على تقديم تأويلات مجازفة مثيرين في الآن نفسه قضية تحلّ اليوم حيّزا بارزا في الدراسات البونية ولقد عنيّا بالتأكيد مسألة "القرابين البشرية"، فيما خصّصنا الصفحات الأخيرة من هذا الفصل لدراسة القرار المتعلق بإدماج الإلهتين ديميتار وكوري داخل مجمع الآلهة القرطاجية لما لهذا الإجراء المتفرد من أهمية يستمدّها بالأساس من طابعه الاستثنائي.

- جزء ثان: سنسعى من خلاله لدراسة علاقات قرطاج ببقية القوى المتوسطية. فبحكم غزارة المادّة الأدبية والاضافات التي تقدّمها المصادر الأثرية، أيقنا أن المطروح على مؤلفنا هذا هو تقديم قراءة نقدية لهذه المصادر عامة ومصادر التاريخ العسكري بالدرجة الأولى لأنّها كُتبت بشكل لافت للانتباه الكثير من القراءات المعاصرة بشكل يخلّط للعلاقات بين قرطاج من جهة والاعريق والرومان من جهة أخرى على شاكلّة سرد لتاريخ المواجهات العسكرية لذلك تغطى على مؤلفات الكتاب القدامى، وكذلك الشأن بالنسبة لبعض الدراسات الحديثة الأحكام القيميّة على غرار ما يتضح من محاولة تحميل قرطاج دائما المسؤولية في اندلاع الصراعات فتبدو بالضرورة بمظهر القوة المعادية الناكثة للمعاهدات.

من هذا المنطلق يتعين من وجهة نظرنا تناول المسألة من زاوية تأخذ بعين الاعتبار التطور التاريخي لمختلف الأطراف الفاعلة في تاريخ المتوسط الغربي وهو ما سمح بتبيين أوجه أخرى للعلاقات بين هذه القوى

وهو ما سنسعى لإبرازه من خلال إفرادنا الفصل الأول من الجزء الثاني لدراسة أوجه التعايش والصراع بين القرطاجيين والإغريق والتي تزامنت مع حصول تقارب واضح بين قرطاج وروما امتد من أواخر القرن السادس حتى بداية القرن الثالث كما تعكس ذلك بجلاء المعاهدات المبرمة بين الجانبين والموجهة في كثير من الأحيان ضد الإغريق.

غير أن تراجع هؤلاء سيعطي منعرجا جديدا للروابط بين الطرفين وهي روابط تطورت تدريجيا نحو ما تطلق عليه مصادرها تسمية "الحروب البونية" وهي مواجهات طبعت تاريخ المتوسط وسمت في الآن نفسه بإلقاء مزيد من الأضواء على أطراف أخرى كانت حتى هذا التاريخ إلى حد ما خارج دائرة الضوء نذكر من بينها الإيبيريين والغالبين والنوميديين الذين أسسوا لكيان جديد ورث جزءا من مجال كان يقع تحت التأثير القرطاجي، فأصبحت نوميديا بذلك طرفا فاعلا في تاريخ المتوسط وهو ما وقر لروما مبررا استراتيجيا للتدخل مجددا في شمال إفريقيا في إطار مسا بصطاح على تسميته بالحرب البونية الثالثة. وبالرغم من سقوطها ظل تأثير قرطاج قائما بل انه امتد إلى عمق العهد الإمبراطوري الروماني المتقدم.

لكل هذه الاعتبارات ارتأينا للجزء الثاني من هذا المؤلف تخطيطا يعتمد المحاور الكبرى التالية:

I - قرطاج والإغريق بين الصراع والتعايش

II - العلاقات القرطاجية - الرومانية قبل اندلاع الحرب البونية

الأولى.

III - المواجهة الأولى بين روما وقرطاج: الأطوار والنتائج.

IV - مرحلة ما بين الحربين وأسباب "حرب حنبعل".

V - الحرب البونية الثانية أو "حرب حنبعل".

VI - روما. قرطاج. نوميديا 201 - 146 ق.م.

VII - الحضارة البونية الجديدة وامتداد التأثيرات القرطاجية بعد

146 ق.م.

هي ذي الهواجس التي قادتنا لوضع هذا الكتاب والأهداف التي
سعيها لبلوغها، لكن لا بد أن نشير بوضوح أننا لا نزعم أننا أسسنا لتصوّر
جديد مغاير جذريا لما نشر حتى الآن ولكننا نحسب أننا رسمنا من خلال
هذه الصفحات خطة غايتها الأساسية التزاوج بين العلم والدقة من جهة
والتبسيط من جهة ثانية. وتوخينا لتحقيق ذلك قدر جهدنا الموضوعية
والأمانة العلمية ولا يتسنى لعمل مهما كانت طبيعته أن يبلغ الكمال لذلك
نعتقد أنّ في عملنا ما يتطلب الاستدراك والتنقيح ونحن ننتظر أن نتلقى من
ملاحظات النقاد ما ننتفع به في تقويم خطتنا ومزيد الإلمام بتاريخ هذه
الحضارة.

الفصل الأول

مصادر تاريخ قرطاج*

تتفق مقدمات الدراسات المعاصرة لتاريخ قرطاج حول إشكالية المصادر المباشرة لدراسة مختلف أوجه الحضارة البونية. فلتن أقحم الفينيقيون غرب المتوسط في دائرة الحضارات التاريخية بإدخالهم الكتابة إلى هذه المنطقة فإن دراسة تاريخ قرطاج من خلال المصادر الأدبية تقتصر أو تكاد على المصادر غير المباشرة وتحديدًا الإغريقية واللاتينية. وهو ما يمثل في حد ذاته مفارقة يمكن أن تقضي إلى التساؤل حول "إمكانية كتابة تاريخ قرطاج" أو أن تنكسر التصورات الروائية والأدبية بشأن حضارة طبعت تاريخ المتوسط القديم وبقيت معالم ذاكرتها حاضرة رغم احتراق مكتبات عاصمتها وإتلاف مدوناتها خصوصًا إذا أخذنا بعين الاعتبار الامتدادات اللغوية والثقافية البونية في أواخر الفترة الرومانية وإقرار القديس أوغسطينوس بأن "المؤلفات البونية كانت تنطوي على أمور جيدة ومفعمة بالحكمة".

إنّ التأكيد على طبيعة المصادر المعتمدة وتوزعها الكمي والنوعي والمحددات الظرفية لتناولها لتاريخ قرطاج يساعد على تبين حدود التأويل والاستنتاج في الاعتماد عليها لا سيما إذا تعلّق الأمر بمصادر غير مباشرة. لكن قبل البحث في خصائصها يجدر بنا التساؤل عمّا بقي من الكتابات القرطاجية المباشرة.

* نودّ لفت انتباه القارئ إلى أننا سعينا إلى الالتزام بنقل المقابل العربي لأسماء الأعلام والمواقع طبقا لنطقها في لغتها الأصلية مع مراعاة ما شاع منها في المصادر العربية (أرسطو، هيرودوت، قرطاج، الملكة Almunecar...). والحرص على تجنّب ثقل بعضها على اللسان العربي عند الاقتضاء (كرنليوس نيبوس عوضا عن قرنليوس نيبوس وسيرتا عوضا عن قيرطا...).

بقيت بعض النصوص القرطاجية - البونية في صيغة ترجمات إغريقية ولاتينية إلى أي مدى احتفظت هذه الترجمات بمحتوى النص الأصلي وما هو هامش تأويله باعتباره نصاً "مباشراً"؟ وتمثل النقائش البونية مقابل ذلك مصادر مباشرة ويتحدد مدى الاعتماد عليها حسب المحاور التي تتناولها كما أن النقائش البونية الحديثة والنقائش اللوبية - البونية - أي المزوجة النص - يمكن أن تدرج في إطار مقارنة مدى امتداد تأثير الحضارة البونية إثر سقوط قرطاج.

أما المعطيات الأثرية، سواء منها المعالم الحضريّة أو المقابر ومحتوياتها أو الخزف والمنتجات الفنيّة ذات الأغراض المختلفة، فهي تمثّل مصدراً رئيسياً لصياغة تصوّر متكامل عن تاريخ قرطاج، فهي أساسيّة لملء الفراغ الناتج عن نقص في المصادر المكتوبة المباشرة أو محدوديّتها أو غيابها كليّاً، وهو الحال إلى حدّ ما بالنسبة إلى الحضارة البونية، لذا فإنّ الحفريات الأثرية في المجالات الحضريّة والمسح الأثري للمجال الريفي، يمثلان السبيل الأمثل لتعميق المعرفة بخصائص هذه الحضارة وتاريخها. وعموماً فإنّ الاستنتاجات المتكاملة هي تلك التي تعتمد في الآن نفسه على المادّة الأدبيّة - التاريخيّة والنقائش و خلاصة البحث الأثري.

I - المصادر الأدبيّة

ينطبق اصطلاح المصادر الأدبيّة - التاريخيّة على الوثائق المكتوبة أي المدونة باختلاف محاورها وصيغها، ولعلّ محتوى المصادر الأدبيّة يعكس نوعاً من التعميم الذي يفسّرُ بسياق الكتابة ذات التوجّه الشموليّ أو الموسوعيّ للمؤلّفات القديمة التي تختلف عن التخصّص في التاريخ الاقتصادي أو السّياسي والاجتماعي بمفهومه المعاصر علاوة على إمكانيات الجمع بين المعلومات الجغرافيّة والانتوغرافيا والتاريخ في نفس الأثر. لذا فإنّنا نجد المعطيات التاريخيّة التي تعني الحضارة القرطاجيّة والبنوبة موزعة على مصادر إغريقية

ولاتينية ذات أغراض متنوعة تشمل التاريخ السياسي والعسكري والتراجيح والجغرافيا والدراسة المقارنة للمؤسسات والنظم السياسية، علاوة على ما تبقى من المقتطفات المأخوذة عن مصادر فقدت أهم أجزائها.

لكن قبل استعراض هذه المصادر يجدر بنا التساؤل عن سبب افتقارنا للمصادر القرطاجية الأدبية والتاريخية المباشرة وعمّا تبقى منها.

1 - ماذا بقي من مكتبات قرطاج ومن الأدب البوني؟

يطغى على هذه المسألة الافتراض، لكن تتوفر لدينا مبررات البحث فيها اعتباراً لما نعرفه عن حضارة قرطاج وإشعاعها في شمال إفريقيا وإسبانيا وصقلية وسرديليا وغرب المتوسط عموماً. فلا يمكن أن نشكّ في وجود أدب بوني ثريٍّ ومما يدعم هذا الافتراض الإحالات المختلفة في المصادر اللاتينية على كتب التاريخ أو الكتب البونية وقد ذُكرت بصيغ: *punica historia, historia poenorum, punici libri*. وتدلّنا رواية بليليوس الأكبر في مؤلفه "التاريخ الطبيعي" عن مآل مكتبات قرطاج حيث يذكر أن "مجلس شيوخ [روما] أهدى بعد السيطرة على قرطاج مكتباتها للملوك الأفارقة [النوميديين] لكنه قرّر بصفة استثنائية [الاحتفاظ] بكتب ماجون الثمانية والعشرين وترجمتها إلى اللاتينية".

ولئن فقد نصّ الترجمة اللاتينية للموسوعة الفلاحية لعالم الزراعة القرطاجي ماجون، وقد أنجزت سنة 146 ق.م. تماماً مثل الترجمة الإغريقية التي تمّت سنة 88 ق.م، فإننا نجد إحالات صريحة على هذا الأثر لدى بلينيوس الأكبر وعلماء الزراعة اللاتينيين خاصة تارنتيوس وارو (116-27 ق.م) (Terentius Varro) ومودراتوس كولوملاً (القرن I م) (L.J.Moderatus Columella) والملاحظ أن كولوملاً يذكر ماجون ويعتمده ويشير أيضاً إلى كتب الفلاحة المدونة باللغة البونية لمؤلفين أفارقة من ضمنهم عبد ملقرت، لكننا لا نملك تنصيصاً على هذه الكتابات ومدى اعتمادها من قبل اللاحقين. وهذا هو

الحال أيضا بالنسبة إلى المؤلفات البونوية التي احتفظ بها الملوك النوميديون. فقد وظفت في كتابات هيம்பسال (Hiempsal) وهو اسم لملكين نوميديين هيம்பسال ابن مكيبسا (116-118 ق.م.) وهيம்பسال ابن قأودا (80-60 ق.م) واختلفت الدراسات المعاصرة في تحديد من ذكر المؤرخ اللاتيني سلوستيوس منهما. وقد تولى سلوستيوس إدارة مقاطعة إفريقيا الجديدة (Africa Nova) التي امتدت على الجزء الشرقي من نوميديا، خلال السنة الأولى من إحداثها على يد يوليوس قيصر أي سنة (46-45 ق.م) وألف تاريخ "حرب يوغرطة" ويقول ذاكرا مصادره: "سألخص ما ترجم من كتب بونوية منسوبة للملك هيம்பسال"، ونظرا إلى أهمية اللغة البونوية في الأوساط النوميديّة فيجب ألا نستبعد توخي هيம்பسال التكوين باللغة البونوية علاوة على فرضية امتلاكه لكتابات قرطاجيين.

أمّا يوبا الثاني (Juba II) الذي نصبه أغسطس حاكما لموريطانيا (25ق.م - 23م) - وهو ابن يوبا الأول حاكم نوميديا الذي كان ضمن خصوم يوليوس قيصر سنة 46 ق.م - فيعتبره بلوتارخوس (Plutarque) "أفضل مؤرخ من بين الملوك" ويرى بلينيوس الأكبر أنه "عرف بعلمه أكثر مما عرف بملكه" وقد كتب بالإغريقية ولئن فقدت آثاره العديدة، فقد ذكرها بعض المؤرخين القدامى ومن بين هؤلاء أميانوس مركليوس (Ammien Marcellin) (حوالي 330-400م) وهو أصيل القسم الشرقي من الإمبراطورية ولد بأنطاكية (Antioche) وكتب تاريخا باللاتينية وقد أبرز أن الملك يوبا الثاني "استعمل كتباً بونوية عند دراسته لمنابع نهر النيل".

وهكذا فإنّ الشّهادات تدعّم وجود أدب بوني متنوّع الاهتمامات ولكنها لا تسمح للمؤرخ بتجاوز حدود هذا الاستنتاج إلّا عند توفّر إحالات صريحة لمؤلفين قرطاجيين كما هو الحال بالنسبة إلى موسوعة ماجون الفلاحية.

ونمتلك إضافة إلى المصادر المشار إليها، نصّين بونيين بقيا في صيغة ترجمة إغريقية وهما نص رحلة حنون الماجوني ومعاهدة حنبعل البرقي وفليبوس الخامس المقدوني المبرمة سنة 215 ق.م في غضون الحرب الثانية بين

روما وقرطاج. ومن المرجح أن تكون هذه المعاهدة قد صيغت في نصّ بوني قبل أن تترجم إلى الإغريقية، وقد وصلتنا من خلال رواية بوليبيوس (VII, 9, 1-9).

أمّا رحلة حنون البحرية فهي مطابقة في أغلب أجزائها لأدب الرحلة ممّا أثار جدلا حول هامش الاقتباس أو الترجمة في النصّ الإغريقي ومدى مطابقته للأصل البوني ومن المرجح أن تكون العناصر الرئيسية للترجمة وخاصة الجزء الأول من نصّ الرحلة مطابقة للنقشة البونية التي خلّتها ووضعت في معبد بعل حمّون (كرونوس Cronos). وحفظ نصّ الرحلة في مخطوط من القرن التاسع م. يعرف بمخطوط هلدلبرغ (Manuscript de Hildelberg, Palatinus: 398, Fol.55r-56r) وذلك تحت عنوان "رحلة حنون، ملك القرطاجيين على سواحل لوبيا في ما وراء أعمدة هرقل". ونشر نصّ الرحلة في طبعة معاصرة لأول مرة سنة 1533. وكان موضوع بحث أنجزه الرحالة الفرنسي ل.أدي بوقفيل (Louis Antoine DE BOUGAINVILLE) سنة 1759 بعنوان "حول اكتشافات ومستوطنات حنون أميرال قرطاج على سواحل إفريقيا".

وتسمح لنا بعض المعطيات المصدرية بمقاربة الأوضاع المعرفية والفكرية في قرطاج والتساؤل عن مدى أهميّة التأثيرات الإغريقية - الهلنستية وعن إمكانية وجود مؤلفات فلسفية قرطاجية؟.

يذكر إمبيليخوس (Jamblique) (285-330م) وهو من فلاسفة الأفلاطونية المحدثة، المدرسة الفيثاغورية بقرطاج والفلاسفة الأربعة الذين تداولوا على إدارتها وهم ملتيداس (Miltiade) وأنثان (Anthen) وهوديوس (Hodios) وليكرتوس (Léocrite) وبناء على ما يقترحه ج.ش.بيكار (G.Ch. Picard) ففي صورة ما إذا كان آخرهم معاصرا لسقوط المدينة، فإنّ وجود هذه المدرسة بقرطاج يمكن أن يؤرّخ بأواخر القرن الثالث ق.م، أي بمرحلة تأكّد التأثيرات الهلنستية في قرطاج، علما بأن مدارس الفلسفة

العبثاغورية كانت مؤثرة في اليونان الكبرى سواء بجنوب إيطاليا أو بصقلية.

ويستند البحث في هذه المسألة إلى الإلمام باللغة الإغريقية في الأوساط القرطاجية وإلى وجود فلاسفة ومعلمين إغريق بالعاصمة البوننية. وقد أبرزت تراجم حنبعل البرقي دور سوسبلوس الإسبرطي (Sosylos) وسيلنوس الصقلي (Silénos) في تربيته وتلقيه الأدب الإغريقي، وهما من بين الإغريق الذين لازموا القائد القرطاجي أثناء الحرب الثانية ضد روما وأرخوا لحملاته.

وتمثل سيرة عزربعل أبرر أبعاد الحركة الفكرية والتعليمية بقرطاج فقد ذكره ديوجان اللايرسي (Diogène Laerce) في حباة الفلاسفة مبرزاً أنه انتقل إلى أثينا سنة 163 ق.م. حيث دخل بعد ثلاث سنوات الأكاديمية الجديدة وتابع دروس قرنبداس (213-129 ق.م) (Carnéade) الذي تولى تكوينه وقام عزربعل بالتعليق على أفكار معلمه ودروسه في أربعين كتاباً وأصبح سنة 127 ق.م. خليفته على رأس الأكاديمية الجديدة وعرف باسم اغريفي، كليتوماكوس (Clitomachos). ووجه الفيلسوف القرطاجي خطاباً موساساً لمواطنيه سنة 146 ق.م. لكنه توجه أيضاً للرومان حيث أهدى كتباً لقنصل سنة 149 ق.م. سنسورنوس (L.Censorinus) وللشاعر اللاتيني قايوس لوكليوس (C.Lucilius) كما امتدح وحامل سيفيبو الإيميلي سنة 140 ق.م. وما يهمننا هو تعداد كتابات عزربعل - كليتوماكوس بالدرجة الأولى. أمّا عن موقفه من الرومان فإنه يؤكد توجهها بدأ يسود في الأوساط الإغريقية، وقد عبّر عنه معاصره بوليبيوس الذي أصبح منظراً ومدافعاً عن القانون والنظام الرومانيين.

وتواصل الاهتمام بكتابات عزربعل - كليتوماكوس فقد ذكره ماركوس توليوس قيرو (M.T.Cicero) في الكتالين الثالث والخامس من المؤلف الذي أنهاه سنة 44 ق.م. محاورات في توسكولوم (Tusculanes). وبفرد له مكاناً

صمن الفلاسفة الذين عاشوا في المنفى وأبرز هؤلاء في القائمة التي قتمها هم أرسطو، نبوفراست، رينون، كرنيداس، كليتوماكوس، فيلون وبناتيس.

وهكذا فإن تنوع المصادر والكتابات القرطاجية الذي نستنتجه من إحالات أو محرد إشارات غير مباشرة تؤكد الانطباع السائد حول فقدان رصيد هام من المصادر البونية المتنوعة المحاور.

وقد وفرت الحفريات المنجزة بمنطقة قرطاج-درمش الأثرية 3247 قطعة فخارية صغيرة الحجم ودائرية الشكل يحمل كل منها ختماً يُجسّم عناصر زينة أو آلهة مصرية وفينيقية وبونية وتعتمد هذه الأختام الفخارية في عملية تفسير وثائق الأرشيف والكتابات المدونة على ورق البردي وتوجد مجموعة أخرى من هذه الأختام الفخارية وهي محفوظة في منحف قرطاج مما يجعل عددها الجملي يتجاوز 3600 قطعة.

وإحتمالاً فإن كربليوس نبوس ينتهنا مجدداً إلى أهمية الكتابات البونية المففودة ففي خاتمة ترجمة حنبل (XXII, 13,2) يذكر ما يلي: "إن هذا الرجل الذي تجاذبت نشاطه حروب هامة، وجد متسعاً من الوقت للاهتمام بالأدب، وترك لنا كتباً [رسائل؟] مؤلفة باللغة الإغريقية...".

"Atque hic tantus vir tantisque bellis districtus nonnihl temporis tribuit litteris. Namque aliquot eius libri sunt. Graeco sermone confecti. ."

لكن مهما كانت أهمية هذه القرائن فإن محدودية المصادر المباشرة في كتابة تاريخ قرطاج تبقى قائمة الذات وتحتّم اعتماد النصوص الإغريقية اللاتينية.

1 - المصادر الإغريقية - اللاتينية

يتمثل القاسم المشترك بين هذه المصادر في الاهتمام بتاريخ قرطاج من حيث علاقته بروما أو بالأطراف الإغريقية خاصة في اليونان الكبرى،

وكذلك من منطلق المقارنة، فالتعرّض إلى الأوضاع الداخليّة في قرطاج يتمّ لمجرّد إبراز وتفسير علاقاتها مع الأطراف المشار إليها.

وعموما فإنّه من الصعب إصدار تقييم عام للمصادر الأدبيّة التي تظل متفاوتة في محتواها المعرفي في ما يتعلّق بالتاريخ العسكري والسياسي وبعض مظاهر الحضارة البونيّة. وتتباين هذه المصادر أيضا باعتبار موقعها زمنيا من الأحداث المدروسة وبناء على هذه العناصر التقييميّة يمكن إبداء جملة من الملاحظات تنطبق على مجمل المؤلّفات الإغريقيّة واللاتينيّة المعتمدة في كتابة تاريخ قرطاج.

تمّ التعرّض لقرطاج باعتبارها طرفا عسكريا في مجابهة الإغريق في مرحلة أولى ثمّ الرومان في مرحلة ثانية. وانحصر اهتمام المؤرّخين في إبراز أسباب الحروب وملابسائها ونتائجها فوقّروا بشأنها معلومات شديدة التنوّع والثراء والتناسق وأبرز من أهتمّ بهذا الجانب بوليبيوس (Polybe) وديودوروس الصقلّي (Diodore de Sicile) وثيتيوس ليويس (Tite Live). وتتخلّل روايات هؤلاء لمراحل الصراع العسكريّ معلومات هامّة تعني الجانبين السياسي والاقتصاديّ كتلك التي أوردها بوليبيوس والمتعلّقة بالمؤسسات والنظام السياسي القرطاجي ووصف المشهد الزراعي للوطن القبلي على هامش استعراضه لحملة القائد الرّوماني ريجلوس على المجال القرطاجي أثناء الحرب الأولى. ونحن مدينون أيضا للمؤلفين الثلاثة المذكورين بمعرفة المعاهدات بين قرطاج وروما أو الوصف المماثل الذي قدمه ديودوروس الصقلّي عند تدويله لحملة حاكم سرقوسة - أغاتوكلاس على نفس المنطقة - أي الوطن القبلي - في أواخر القرن الرابع ق.م. إضافة إلى وصف الظهير الزراعي لقرطاج الذي قدّمه آبيانوس الاسكندري (Appien d'Alexandrie) عندما تناول حصار قرطاج أثناء الحرب الثالثة ضدّ روما. فمعلومات هذه المصادر لا تخلو إذن من الأهمية لكنّ هذه الملاحظة لا تغنيّا عن بعض المآخذ المتعلّقة بالمنهجية مثل التقديرات

العديدية المبالغ فيها أو طبيعة الأحكام التي تصدرها في تحديد أسباب الحروب.

ويعبّر مؤلفو هذه المصادر عن وجهة النظر الإغريقية والرومانية التي تتعامل مع قرطاج كخصم سياسي وعسكري يتحمل مسؤولية خرق المعاهدات المبرمة ويوفر مبررات النزاعات العسكرية. وقد تشبعت هذه المصادر بالأحكام القيمية الأخلاقية التي تدخل في باب الدعاية المناوئة لقرطاج. ومن ذلك استعمال نعت "البولي" في بعض التراكيب مثل (*fides punica*) للتعبير عن انعدام الثقة وقد تمّ ترويح هذا التعبير من قبل كل من الشاعر اللاتيني إنيوس كوانتوس (Ennius Quintus) (239 – 169 ق.م) وفابيوس بيكتور (Quintus Fabius Pictor) الذي شارك في الحرب الثانية ضدّ قرطاج وهو أول مؤلف حوليات رومانية بالإغريقية ولئن لم يبق أثره فقد اعتمده المؤرخون اللاحقون الرومان تماما مثل الإغريق الذين كتبوا خلال المرحلة الإمبراطورية من وجهة نظر رومانية.

وهيأت هذه النزعة أيضا المجال لعدد الإسقاطات نتيجة المعرفة المحدودة بخصائص حضارة قرطاج. تقتصر هذه المصادر للبحث في خصوصيات واقع قرطاج ومدى اختلافه عن كل من روما والمدن - الدول الإغريقية، فتسحب الاصطلاحات السياسية والعسكرية اللاتينية والإغريقية الدالة على الوظائف والمؤسسات على نظيراتها في قرطاج رغم انعدام التّطابق بينهما أو وجود تشابه لا غير في أحيان أخرى.

ونجد في تقييم الديانة أو الحضارة البونية محدّدات المركزيّة الحضارية وسحب أحكام أخلاقية سلبية لا تأخذ بالاختلاف، إذ بقيت قرطاج على هذا المستوى أقرب إلى أصولها الشرقية الفينيقية.

تمثل المصادر المعاصرة للأحداث التي تناولتها بالدرس استثناء، فأغلب المؤلفات التي تعيننا دونت إثر سقوط قرطاج واعتمد أصحابها على

سابقهم. وأقدم المؤلفين الذين أشاروا إلى قرطاج أثناء القرنين الخامس والرابع ق.م. مثل هيرودوت ثم أرسطو اهتموا بجوانب محدّدة عسكريّة وسياسيّة وأولى الحوليات اللاتينيّة التي تذكر قرطاج تعود إلى القرنين الثالث والثاني ق.م. ولم يمنع ذلك المؤرّخين اللّاحقين من تدوين حوليات ومؤلفات جامعة تطرّقت إلى تأسيس قرطاج وإلى تاريخها منذ أواسط القرون السادس ق.م. حتّى سقوطها، فالنّقل والانتحال والاهتمام بمراحل سابقة كلّما توفرت إمكانيّة دراستها هو أحد أهمّ مميّزات الكتابة التاريخيّة إلى حدود العصر الحديث. وكثيرا ما يقترن ذلك بإدماج عناصر أسطورية وتاريخيّة بالنسبة إلى الفترات الغامضة وينطبق ذلك على تاريخ روما خلال المرحلة الملكية وأهمّ مراحل الجمهوريّة، لكنّا نلاحظ تأثر مصادر المرحلة المتأخّرة التي دوّنت في ظروف الحروب بين قرطاج وروما. وخاصة إثر سقوط قرطاج وتأكّد مركزيّة روما في البحر المتوسّط - بمقتضيات الظرفيّة الجديدة وانسجام المؤرّخين الرّوماني والأغريق معها فضلا عن منطلقات كتابة التاريخ "الوطني" الرّوماني خلال العهد الامبراطوري التي عمقت صعوبة النّقل عن المؤرّخين السّابقين دون مبالغة وتضخيم ومواقف مسبقة.

وتقتضي مجمل هذه الاعتبارات التوسّل بمنهج نقدي في التعامل مع مختلف المصادر المذكورة، وهي مصادر لا غنى عنها في كتابة تاريخ قرطاج أو ما يمكن كتابته حتّى يكون أقرب للموضوعيّة. ولعلّ مراعاة بعض المصادر لضوابط منهجيّة ييسّر مهمّة الباحث في مقارنة منطلقات المؤرّخين القدامى ومدى تأثرهم بعلاقات الصراع بين قرطاج وروما. فتاريخ بوليبيوس مثلا وهو أهمّ مصادرها أقرب إلى المدرسة التاريخيّة الإغريقيّة الكلاسيكيّة ولمنهج توقيديدياس (Thucydide) منه للحوليات والتاريخ الملحمي الرّوماني. كما نفقّم قرطاج في العديد من المصادر الإغريقيّة كطرف قائم الذات في تاريخ المتوسّط القديم فلها المقوّمات السّياسية لأكثر النّماذج تقنّما. ونجد لدى مؤرّخين لاتينيين وأبرزهم كرنليوس نيبوس (Cornelius Nepos) تناولوا

إيجابيا لتاريخ قرطاج وأعلامها السياسيين لا أثر فيه للدعاية الرومانية المناهضة لقرطاج. لذلك فإنّ المواقف التعميمية من المصادر الأجنبية يمكن أن تنقلب إلى خطأ لابدّ من نقاديه للاستفادة والتقييم المنهجي لمجمل المصادر.

تتوزع الفصول والمقاطع والفقرات والإشارات الوجيزة التي تذكر قرطاج البونية على حوالي أربعين مصدرا وتمثّل دراسات المترجمين والمحقّقين لكلّ منها أهم منطلق لتقييمها، إضافة إلى الدراسات التقييمية المنهجية أبرز المؤرّخين وتبقى مراجعة ستيفان قزال (St.Gsell) للمصادر المذكورة على هامش دراسته "التاريخ القديم لشمال إفريقيا" أساسية سواء في استقراء المصادر وتحليلها أو في تبين المحاور التي تناولتها من تاريخ قرطاج والمجال البوني ونوميديا.

واعتبارا لاعتمادنا على مختلف المصادر التي تعني كلّ فصل من الفصول المدروسة وتقديمنا لها فإننا نقتصر هنا على ذكر أهمّ المؤلفين وكتاباتهم بناء على تنوّع مادّتها وعمق تناولها لجوانب من تاريخ قرطاج.

- هيرودوت: (حوالي 484 - 420 ق.م) التاريخ

هو أصيل هلكرنسوس (Halicarnasse) في السّاحل الجنوبي الغربي لآسيا الصّغرى ورد كتابه "التاريخ" في تسعة أجزاء، خصص الأربعة الأولى منها للشعوب غير الإغريقيّة وتحديدًا الفرس والشعوب التي ارتبطت في مرحلة ما بالإمبراطورية الفارسيّة التي نشأت مع قورش الأكبر (530 - 558) ق.م (Cyrus le Grand) وتطورت مع داريوس (Darius) وكسرى (Xerxes). وإذا استثنينا إشارات وجيزة إلى المجابهات الأولى بين القرطاجيين وإغريق صقلية، فإنّ أهمّ ما يعنينا لدى هيرودوت هو "النصوص المتعلّقة بشمال إفريقيا" الواردة في الكتاب الرابع والتي قام س.قزال بدراستها ونشرها. ففي الكتاب المذكور تطرّق هيرودوت للحملات الفارسيّة على شرق ليبيا (Libye) في فترة داريوس، فقدم معلومات تهم

منطقة قورينية والاستيطان الإغريقي بها، ثم استعرض عن طريق الرواية خصائص المنطقة الواقعة غرباً أي سرت الكبرى والصغرى وظهرها وذكر عدداً من القبائل مبرزاً نمط عيشها وتقاليدها كما تطرق إلى اللوبيين بالقسم الساحلي من البيزاكيوم (Byzacium) - أي منطقة الساحل - وجزيرتي جربة و قرقة. وعموماً فإنّ مصدرنا يسمح بمراجعة روايات أساسية لإحدى مناطق تأثير قرطاج خلال القرن الخامس ق.م. كما اهتم في الكتاب السابع من تاريخه بأولى المجابهات بين القرطاجيين وإغريق صقلية سنة 480 ق.م.

أمّا عن تقييم "تاريخ" هيرودوت فإنّه يمرّ حتماً بتفسير الدوافع التي جعلت قيقر (Cicero) ومعاصريه يصفون عليه لقب "أب التاريخ"؟ ويعود ذلك أساساً لانفراده في كتابة تاريخ الحروب الميديّة بمنهجية جديدة إلى حدّ ما في التحقيق والفهم ورصد أسباب الحدث وأبعاده والملاحظ أنّ المرادف الإغريقي لمؤلف "التاريخ" (Historia) يعني "التحقيقات" المدوّنة.

ويقرّ الدارسون والمحققون لهيرودوت وأثره أنّه بقي قريباً من شعراء الملاحم والمؤلفين الإيونيين السابقين - ونعرف منهم هيكاتيوس الميلي (Hécatée de Milet) - في إبراز التاريخ البطولي أو رصد المعارف الجغرافية لكنهم يتفقون في تثمين منهج هيرودوت في إبراز مصادر معلوماته، سواء تلك التي استقاها عن طريق المعاينة أو الرواية كما يؤكّد ذلك في الكتاب الثاني المخصّص لوصف مصر: "استعرضت إلى هذا الحدّ ما علمته بالمعاينة وآنقل الآن ما استمعت إليه من روايات الكهنة المصريين". وإذا اعتبرنا أهمية المادة المعرفية التي تولّى المؤلف تجميعها فإنّنا نقدر بذلك حجم إضافات هيرودوت للكتابة التاريخية.

- أرسطو - (384 - 322 ق.م) - كتاب السياسة

إنّ ما يعنينا في ترجمة أرسطو ينحصر في مؤلفاته السياسيّة وأهميّة معاشته لمختلف أنظمة الحكم، أي المدينة - الدولة الديمقراطيّة في آخر مراحلها وأنظمة حكم الطّغاة (*La tyrannie*) ثم المركزيّة المقدونية الناشئة وعلاقته الوطيّة بها ورسائله أو محتوى تعليمه للإسكندر المقدوني.

لكن علاوة على المعاشة والارتباط العملي بهذه الأنظمة فإنّ فلسفة أرسطو السياسيّة ودراسته للدساتير وأنظمة الحكم اقترنت بدراسة شاملة "للأنظمة الدّستوريّة" التي تحتوي كما يذكر المؤرخون والمحقّقون على 158 دستوراً للمدن - الدول الإغريقيّة لم يبق لنا منها سوى "دستور أثينا" الذي اكتشف مخطوطه في نسخة ضمن برديات بالفيوم سنة 1890، ممّا أكّد الحيز الذي خصّصه أرسطو لدراسة أنظمة الحكم والمعروف عبر مؤلّف "السياسة" وهو دراسة مقارنة للنظم السياسيّة في ثمانية كتب تهمّ المدن - الدول الإغريقيّة، لكنه أقحم في مقارنته قرطاج وأبرز خصائص مؤسساتها ونظام الحكم بها في سياق المقارنة بين إسبرطة وكريت من جهة والعاصمة البونيّة من جهة ثانية فقد اعتبرها تأخذ بنظام المدينة - الدولة ومهما كانت أبعاد المفاضلة وتقييم أرسطو لمؤسسات قرطاج ودستورها فإنّ هذه المقارنة تعدّ استثناء في المرجعية القيمة الإغريقيّة التي تفصل بين الهليني وغير الهليني أو "البربري" بمعنى الخارج عن الحيز الثقافي واللّغوي لبلاد اليونان.

- بوليبيوس (Polybe) (حوالي 200-120 ق.م) التاريخ

ينتمي إلى وسط أرسقراطي من أركاديا (Arcadie) بالبلبنيّوس التي انضمت للكنفدراليّة الآخائية (Confédération achéenne) وهي آخر أشكال التحالف الإغريقي التي جابهت التوسع الروماني. وكان لعائلته مهام سياسيّة وعسكريّة في الكنفدراليّة وتولى بوليبيوس نفسه منصب قائد الخيالة

لكن هزيمة بيدنا (Pydna) سنة 168 ق.م.، التي تمثل نهاية ما يعرف بالحرب المقدونية الثالثة، أدت إلى سقوط مقدونيا فنقل ألف أسير إغريقي إلى روما حسب ما تذكر المصادر، وكان بوليبيوس من ضمنهم. وقد أسعفه الارتباط بعائلة سقيبو (Les Scipions) ذات النفوذ السياسي والعسكري حيث تولّى تكوين سقيبو الإميلي (Scipion Emilien) الذي أصبح بمثابة حاميه واتخذته مستشاراً. إلا أن اهتمامه أنصبّ على كتابة تاريخ روما واختار لذلك مرحلة ما بين 220 و168 ق.م.، أي المرحلة الممتدة من الحرب الثانية بين روما وقرطاج وحرب مقدونيا الثالثة، التي تمكنت إثرها روما من تأكيد هيمنتها على أهم قوى البحر المتوسط. ويعلن المؤلف غرض بحثه وهو دراسة الطريقة والنظام السياسي للذين مكّنوا روما من إحراز هذا التفوق.

وقد تجاوز بوليبيوس المرحلة الزمنية التي ضبطها في المقدمة، فتطرق إلى المراحل الأولى من تاريخ الجمهورية الرومانية، ممّا يفسّر استعراضه لعلاقتها بقرطاج والمعاهدات ثم للحرب الأولى بينهما. كما اهتمّ بالحرب الثالثة وسقوط قرطاج خاصة وأنه عاين حصارها في سنته الأخيرة حيث كان برفقة القنصل سقيبو الإميلي قائد القوات الرومانية. وإلى جانب المعاناة ونقل الشهادات التفويّة، يعلن المؤلف اطلاعه على الوثائق مثل نصوص المعاهدات أو نقيشة معبد هيرا بروتونا (Crotone) جنوب إيطاليا والتي أمر حنبعل بصباغتها لتكوين حملات المرحلة الإيطالية من حربه ضدّ روما. كما اعتمد على مؤلفات سابقة مثل فابيوس بيكتور (Fabius Pictor)، وهو روماني ألف حوليات في التاريخ الروماني بالإغريقية واللاتينية خلال النصف الثاني من القرن الثالث ق.م وهو بذلك من أهمّ مؤلفي المصادر القريبة من أحداث الحرب الأولى بين قرطاج وروما، تماماً مثل فيلينيوس الأقرجنتي (Philinos d'Aggrigente) وهو مؤرّخ إغريقي من صقلية. وخلافاً لسابقه فإنّ هذا الأخير أقرب إلى وجهة النظر القرطاجية ويرفض بوليبيوس لنفس السبب المشار إليه

كتابات سوسيلوس الإسبرطي وسيلنوس الصقلي. لكننا لا نجزم بعدم اعتماده على هذين المؤلفين لمجرد تباينه مع قراءتهما لأحداث حرب حنبعل لا سيما أننا نلاحظ صدق سيلنوس لدى مؤلفي حوليات لاحقين.

ويمكن أن نفهم هذا التعامل الانتقائي مع المصادر فبوليبوس، أسير روما، اهتمّ بالبحث في أسباب نجاحها المطلق ولا يخفي انبهاره بنظام حكمها ومؤسّساتها، وهي في نظره أساس تبيين أوضاع الدول. على أن عمل بوليبوس موجه إلى الإغريق والنخبة الرومانية التي تتقن الإغريقية فهو أبعد من أن يكون تاريخاً ملحمياً رومانيا بل يعتبر المؤلف تاريخه "عملية" يستند إلى البحث في أسباب الأحداث إذ "لا يطرأ شيء ممكن أو غير ممكن دون سبب". ويميّز بين الأسباب الحقيقية أو العميقة (*aitia*) والمبررات أو الأسباب المباشرة (*prophaseis*) ثم بدايات الأحداث (*archai*). ولعلنا نجد في الجزء الأول من تاريخ بوليبوس تفسيراً لتوسيع المرحلة التي اعتزم دراستها حيث يستبعد "إمكانية الوصول لتصوّر شامل ودقيق عبر تواريخ جزئية... فالتاريخ مفيد وبناء بقدر ما يمكننا من الإلمام بالأحداث في ترابطها وتشابها واختلافها". وهكذا يبدو بوليبوس الوريث الحقيقي لتوقيديداس (حوالي 460 - 400 ق.م) مؤلف تاريخ "حرب البلبنيزوس" بين أثينا وإسبرطة التي امتدت من 431 إلى 404 ق.م. وعاش المؤلف الحدث وكانت له مشاركة محدودة فيه. ويعلن في مستهل كتابه تباينه مع كتابات سابقه وأبرزهم هيرودوت: "لن نولى اهتماماً بالشعراء الذين ضخموا أحداث الأزمنة البعيدة لأغراض فنية أو الخطباء الذين يَنشدون إمتاع سامعيهم أكثر من البحث عن الحقيقة في كتابتهم للتاريخ فالأحداث التي يتكلمون عنها غير قابلة للتثبت". وانسجاماً مع هذا التصور اختار مرحلة عايش أحداثها ونَبّه إلى صعوبة البحث في الأزمنة العتيقة والمراحل الملحمية. وهو ما أشرنا إليه لدى بوليبوس الذي سعي إلى ضبط حدود زمنية لبحثه مع التركيز على مرحلة تفوق روما على بقية قوى المتوسط

واستقصاء أسباب ذلك، معلنا أهمها أي دستور روما ونظامها السياسي. وهو لا يتباين في ذلك مع سلفه الذي احتل العامل السياسي العسكري في قراءته للأحداث طابعا محدداً فهيمنة أثينا بعد الحروب الميديّة هي مصدر قوتها وسبب ضعفها في نفس الوقت، فموارد إمبراطوريتها جعلت الديمقراطية ممكنة داخل المدينة - الدولة من جهة لكن خلقت لها أعداء داخل الإمبراطورية وخارجها من جهة ثانية.

وتناول بوليبيوس مرحلة تاريخية اقتضت اعتماد مصادر متنوعة منها كتابات سابقه التي اهتمت بصقلية وغرب المتوسط. ويتضح تعامله الانتقائي مع هذه الكتابات بأن انفرد بموقف نقدي تجاه تاريخ تيمايوس الطاورميني (Timée de Taormine) الذي كتب في أواخر القرن الرابع والنصف الأول من القرن الثالث ق.م. "تاريخ صقلية وغرب المتوسط منذ البدايات حتى الحرب الأولى بين قرطاج وروما"، وأولى اهتماما بعلاقات الإغريق مع مختلف شعوب المنطقة. وكان تيمايوس أول الإغريق الذين درسوا أصول روما وتطورها واعتمد مادة وثائقية متنوعة في حجم المرحلة التي أهتم بها. وتسمح المفتطفات المتبقية من تاريخه بتقدير مدى اعتماد اللّاحقين عليه. ولهذا السبب فإنّ أهم مأخذ المحققين التي توجه لبوليبيوس هو اعتماده لتاريخ تيمايوس لكنه يذكره في مواضع نقدية مثل سوء تقديره لبعض الأحداث أو محدودية معارفه الجغرافية.

وهكذا، نظرا إلى الأهمية الكميّة للمعطيات المتعلقة بقرطاج والاعتبارات المنهجية المذكورة فإنّ بوليبيوس يمثل مصدرا رئيسيّا في دراسة الحرب الأولى وانعكاساتها ويبقى المصدر الرئيسي لدراسة حرب المرتزقة كما نعتمده في دراسة الحرب الثانية ومؤسسات قرطاج ونظامها السياسي فهو مكمل لأرسطو من هذه الوجهة. وقد برز صدى دراسته للحرب الثالثة في مؤلفات لاحقيه وخاصة آبيانوس حيث لم يبق من الأربعين كتابا من تاريخ بوليبيوس سوى الكتب الخمسة الأولى (V-I) وبقيت مقاطع هامة من الكتاب السادس إلى الثامن

عشر (VI-XVIII) لكن ابتداء من الكتاب التاسع عشر (XIX) لا نحفظ إلا بمقاطع محدودة.

- كرنيليوس نيبوس (Cornelius Nepos) (حوالي 100 - 24 ق.م)
"سير مشاهير الرجال"

يعتبر من أوائل المهتمين بأدب التراجم من بين المؤرخين اللاتينيين، ألف تاريخا جامعاً في ثلاثة كتب وتراجم للمؤرخين الإغريق الفدائي إلا أنها مفقودة تماماً مثل أغلب الكتب الستة عشر من المصدر الذي يعنيها وهو "سير مشاهير الرجال" (De viris illustribus) وبقي منها الكتاب الثالث مكتملاً وقد خصّصه المؤلف لسير "القادة المتميزين في الأمم الأجنبية" وتحديدًا أشهر قادة الإغريق وملوك الفرس ومقدونيا وخلفاء الإسكندر إضافة إلى ترجمة لعبد ملقرت البرقي وابنه حنبعل وقد أفرد له حيزاً هاماً وقدمه في صورة إيجابية، تختلف عن تلك التي نجدها لدى غيره من المؤرخين.

- ديودوروس الصقلّي (Diodore de Sicile) (90 - 20 ق.م)
"المكتبة التاريخية"

ألف هذا المؤرخ الإغريقي تاريخاً جامعاً عنوانه "المكتبة التاريخية" في أربعين كتاباً، يبدأ بالحضارات الأولى وينتهي بحملة يوليوس قيصر على جاليا (Gallia) سنة 59 ق. وبقي من تاريخ ديودوروس خمسة عشر كتاباً ومقتطفات من بعض الكتب التي اندثرت لدى مؤلفين لاحقين.

ويمتدنا هذا المصدر بمعلومات عن حضور قرطاج بصقلية وعلاقتها بالإغريق وخاصة سرقوسة في فترة حكم الطاغية آغاتوكلاس وحملته على المجال الإفريقي لقرطاج سنة 310 ق.م.

واعتمد ديودوروس النقل عن مؤرخين سابقين وتوخّى المفاضلة بينهم دون تبرير منطقاتها. كما يعكس منهجه أوجه تراجع في الكتابة التاريخية،

حيث يدمج ما يسمّيه الأزمنة الأسطورية والمراحل التاريخية في الكتب الثلاثة الأولى من مؤلفه.

- تيتيوس ليويس (Titius Livius) (59 ق.م - 17م) "التاريخ الروماني"

اهتمّ في البداية بالأدب والخطابة والفلسفة وتحديدًا المدرسة الرواقية (L'école stoïcienne) وكتب محاورات في الأخلاق قبل أن يتفرّغ ابتداءً من سنة 25 ق.م. لكتابة تاريخ جامع لروما منذ نشأتها حتى السنة التاسعة ق.م. (*Ab Urbe condita libri*) في مائة واثنين وأربعين كتابًا بقي منها خمسة وثلاثون ومقتطفات من بقية الكتب. واحتفظ بالبعض منها في صيغة مختصّرات (*Periochae*).

وقد كتب تيتيوس ليويس في بداية العهد الإمبراطوري، لكنه عرف باستقلاليته وميوله للنظام الجمهوري، ويشترك مع المفكرين الإغريق في الرّبط بين العقل والفضيلة. ويرى في القيم التقليديّة الرومانية سبب نجاح روما وتفوّقها. ويعبّر المؤلّف بوضوح عن اعتزازه "بتدوين منجزات شعب هو سيّد العالم". لكن خيار كتابة تاريخ وطني اتسم بالانتقائية والحبك الخطابي والدرامي وهي المآخذ التي وجهت لتاريخ تيتيوس ليويس كلّما تعلّق الأمر بمواطن مُبالغة أو تحيّز مُعلن. كما يلاحظ غياب الفضول الجغرافي والاثغرافي لديه خلافا لما نلمسه لدى سابقه من المؤرّخين الإغريق مثل بوليبيوس خصوصًا أنّه اعتمد عليه كثيرًا، إضافة إلى مؤلفي الحوليات الرومان مثل فابيوس بيكتور (Fabius Pictor)، أو كلاوديوس كودريغريوس (Claudius Quadrigarius) وفليريوس أنتياس (Valerius Antias) اللّذين دوّنّا حوليات خلال النّصف الأوّل من القرن الأوّل ق.م. واعتمادًا الأسلوب الخطابي في كتابة التاريخ وهو اختيار مُنسجم مع ثقافة الرّومان وتحديدًا الفئات التي تعتمد المعرفة الشفوية، فهم يولون أهميّة قصوى للشكل الأدبي، كما يرجّح أن يكون تيتيوس ليويس قد اطلّع على

الصياغة الخطابية لتاريخ الحرب الثانية في سبعة أجزاء. لكايوليوس أنتيباتار Caelius Antipater والتي دونها في نهاية القرن الثاني ق.م. واعتمد فيها على سيلنوس السرقوسي. وتجدر الإشارة أيضا إلى ناويوس قايوس (Neavius Gnaeus) (270 - 190 ق.م.) كمصدر محتمل لمؤلفنا وهو شاعر من كمبانيا (Campanie) شارك في الحرب الأولى ضد قرطاج ودون لها في صيغة شعر ملحمي. أما بوليبيوس فهو من أبرز مصادر ماثلة يتضح من تقارب المعلومات التي تهم نفس الحدث في تاريخ كل منهما. ويمثل تاريخ تيتيوس ليوبيوس أهم مصادر المعاهدات القرطاجية - الرمانية، وبصفة خاصة الحرب الثانية التي أرخ لها في تسعة كتب (من الكتاب XXI إلى XXX). واستعرض أحداث الحرب الأولى والتوسع القرطاجي في إيبيريا في ثانيا الكتب الممتدة من XVI إلى XX.

أما المعلومات التي تخص الحرب الثالثة والتي اهتم بها ابتداء من الجزء التاسع والأربعين فقد بقيت ملخصاتها (Periochae). ويرجح أن يكون المؤرخ الإغريقي آبيانوس قد اعتمد النص الأصلي خلال القرن II م.

- آبيانوس (Appien d'Alexandrie) (أواخر القرن الأول م -

القرن الثاني م) التاريخ الروماني

تولى آبيانوس وظائف قضائية في روما وهو من إغريق الإسكندرية. كتب بالإغريقية تاريخ التوسعات الرومانية في أربعة وعشرين كتابا منذ بدايتها إلى بداية حكم الإمبراطور فسبازيانوس (Vespasien) (69م) ونشر حوالي 160م.

وقد ورد تاريخ آبيانوس في شكل كتب مصنفة حسب المناطق الجغرافية والشعوب التي شملها التوسع الروماني. بقيت من هذا المصدر تسعة كتب كاملة. وفي الكتابين المخصصين لإيبيريا ولوبيا استعرض المؤلف حيثيات الحرب الثانية في إيبيريا ومعطيات تهم نوميديا وقرطاج خلال القرن

الثاني ق.م. لذلك نجد في كتاب آبيانوس ما فقد من تاريخ بوليبيوس وثيتيوس ليوبيوس.

- يوستينوس (Marcus Junius Justinus) (القرن الثاني م)
"ملخص التاريخ العالمي"

هو مؤرخ لاتيني يرجح أنه عاش خلال القرن الثاني م. وكتب في فترة الأباطرة الأنطونيين قام بتلخيص التاريخ العالمي، المعروف بالتاريخ الفيلبي (*Historiae Philippicae*) لتروفس بومبيوس (Troge Pompée) وهو أصيل فازيو (*Vasio*) بمقاطعة جاليا الناربونية (*Gallia Narbonensis*) ومعاصر للإمبراطور أغسطس (27 ق.م - 14م).

ويفسر عنوان التلخيص بأهمية الأجزاء المخصصة لفلبوس II المقدوني وخلفائه أو أن يكون مسنوح من خطب ديموستاتس (*Démosthène*) الموجهة ضد فلبوس الثاني والتي تحمل نفس العنوان. ولا ينال التلخيص والإيجاز من أهمية هذا المصدر الذي يمتدنا بالرواية الأكثر اكتمالا لتأسيس قرطاج وبداية التوسع القرطاجي في فترة القادة الماجونيين. وتجدر الإشارة إلى سياق الاسطراد الذي أورد فيه المؤلف تأسيس قرطاج وهو تحديدا تتاوله حملات الاسكندر المقدوني على فينيقيا وعلى مدينة صور. وينطبق الأمر على بنية العناصر التي تهتم قرطاج وهي التي تتضمن مقابلة بين تاريخ الإغريق والقرطاجيين في غرب المتوسط. ولم يخصص حيزا للحروب البونية، لذلك يعتبر المحققون أن أهم مصادره في تناول تاريخ قرطاج هو تاريخ صقلية وغرب المتوسط. لتيمايوس الطاورميني المشار إليه آنفا.

لقد اقتصرنا في هذا العنصر على تقديم أبرز المصادر بناء على مدى أهمية اعتمادها معرفيا ومنهجيا في كتابة تاريخ قرطاج، لكن وجب التنبيه إلى قيمة بعض الإشارات الوجيزة في مصادر فضلنا تقديمها في ثنايا عملنا هذا، من ذلك مثلا الشاعر اللاتيني أفينوس (*Rufus Festus Avienus*)

(النصف الثاني من القرن الرابع م) الذي مدنا بصياغة لرحلة خميلك البحرية أو ديون كسيوس (Dion Cassius) وهو مؤرخ إغريقي كتب تاريخ روما أثناء حكم الأباطرة السوريين عارضا فيه ترجمة لحنبعل.

ومن المصادر التي اهتمت بنفس الموضوع النص الشعري لسيليوس إيتاليكوس (26-101م) (Silius Italicus) الذي انتخب قنصلا سنة 68م. قَدِم صياغة شعرية للحروب البونية (Punica) اعتمادا على تاريخ نيتيوس ليويوس، فاحتفظ بمقدماته وترتيبه الزمني، لكن توظيف الخيال الشعري للنص التاريخي دفعه إلى الجمع بين قادة الحرب والآلهة ونظرا إلى تأثره بالشاعر ورجليوس فقد عمد إلى محاكاة أسلوبه.

ونجد الإشارة أيضا إلى النص المسرحي المعروف "بالقرطاجي" أو "البوني الصغير" (*Le Poenulus*) للمؤلف المسرحي بلاوتوس (254-184 ق.م) (Titus Maccius Plautus). وقد اعتمد بصفة خاصة اقتباس مؤلفات الكوميديا الجديدة الإغريقية التي سادت خلال القرنين الرابع والثالث ق.م مع توخي تصرف براعي عادات الرومان وخصائص واقعهم. وعرف هذا التعبير المسرحي في روما "بالمسرح ذي الديكور الإغريقي" *"fabulae palliatae"*. ويعلن بلاوتوس في مقدمة نصه أن الأصل الإغريقي يحمل عنوان القرطاجي *"Carchedonius"* ويختلف اللقاة في نسبته إلى ميناندروس (342-292 ق.م) (Menandros) أو ألكسيس (375-275 ق.م) (Alexis) وهما من أبرز كتّاب الكوميديا الجديدة الإغريق، ومن جهة ثانية يرجّح أن يكون الاقتباس اللاتيني قد دُوّن وعرض في حدود 189 ق.م. وتتضمن المسرحية سبعة فصول ويتلخص موضوعها في تعرّض قرطاجيين ينتميان إلى عائلة ثرية إلى اختطاف الابن الوحيد لأحدهما الذي توفي بسبب ذلك، ثم فقد الآخر، وهو ابن عمّه، ابنتيه ومربيتهما. وقد بيع الطفل إلى شيخ في روما، تبناه وجعل منه وريثه الوحيد، وكان لهذا الشيخ سفرات إلى قرطاج وعلاقة صداقة بحنون الذي قدم بحثا عن ابنتيه

ومربيتهما علما بأن مشتريهنّ انتقل إلى كاليدون (*Calydon*) موطن الشيخ الذي اشترى ابن أخيه ممّا جعل حنّون يلتقي المففودين جميعا. ومن البديهي أن غرضنا يتجاوز تقييم الحبكة المسرحي، فقد أثار هذا المصدر اهتمام المؤرخين بحضور قرطاج والقرطاجيين في نصوص مسرحيّة إغريقية ولائيلية وفضلا عن ضرورة تقييم صورة القرطاجي التي تقدمها فإن المصدر الذي يعطينا تضمّن مقاطع مثيرة باللّغة البونيّة ورَدّت على لسان حنّون "الذي يفهم كلّ اللّغات لكنّه يُبدي عكس ذلك".

إضافة إلى مجمل المصادر المذكورة تقتصر بعض الكتابات القديمة ذات الأغراض المختلفة على تلميحات عرضيّة أو مقاطع استطرادية ومقارنة لا يمكن التّغاضي عن توظيفها والاستفادة منها.

نودّ في خاتمة هذا العنصر التأكيد على جدوى الإشارة إلى المصادر المفقودة وهو ما يفيدنا على الأقلّ في رصد مدى الإهتمام بتاريخ وحضارة قرطاج ونذكر في هذا السّياق كتاب "تاريخ القرطاجيين" للأمبراطور كلاوديوس ولا تتجاوز معرفتنا به ما ورد في رواية سويتونيوس (*Gaius Suetonius*) في كتابه حياة القيصرية (*De vita Caesarum*) المعروف أيضا بحياة القياصرة الإثني عشر. فقد ذكر في الكتاب الخامس بالفصل الناني والأربعين من ترجمة الأمبراطور كلاوديوس الذي حكم بين 41 و45م أن هذا الأخير دوّن كتابين باللّغة الإغريقيّة: "تاريخ التّرينيين" (والمقصود الأترسكيين) و"تاريخ القرطاجيين" في ثمانية كتب. وتقديرا لهذين العملين أنشئ بالأسكندريّة متحف جديد يحمل إسم الأمبراطور وبرمجت به خلال أيّام محددة من السنة حصص قراءة "لتاريخ القرطاجيين" من طرف قراء يتواترون الإلقاء أمّا "تاريخ الأترسكيين" فكان يقدّم في المتحف القديم.

II - المصادر الأثرية

تكتسي المصادر الأثرية أهمية خاصة في دراسة تاريخ الحضارات القديمة باعتبارها معين معلومات لا غنى للدارس عنه. وتزداد أهميتها في ما يتعلّق بحضارة قرطاج بالذات بسبب فقداننا للمصادر الأدبية البونية المباشرة. وبالرغم من إجماع كلّ الدراسات المعاصرة على هذا الحكم فإننا نظل على يقين أن من واجبنا في بداية هذا العرض التذكير ولو بإيجاز بسلسلة ملاحظات منهجية يتحتمّ في رأينا اعتمادها عند التعامل مع هذا الصنف من الوثائق.

بديهي أن يتفطن كلّ مهتمّ بالمسألة إلى أنّ الأمر يتعلّق بمصادر صامتة يستوجب استنطاقها حذراً شديداً وموضوعية فائقة وهو ما يقودنا للقول بضرورة تجنب "التجني" على اللقى الأثرية وذلك بإطلاق الاستنتاجات الاعتبارية التي لا تجد سنداً تاريخياً قوياً يدعمها وللتدليل على ذلك تكفي الإشارة إلى هذا الكمّ الهائل من الخزف المعدّ لنقل أنواع مختلفة من البضائع والمكتشف في أنحاء شتّى من الإمبراطورية القرطاجية والذي يدلّ على وجود مبادلات تجارية نشيطة ولكن نظلّ جوانب كثيرة من تاريخ هذه المبادلات محاطة بهالة كثيفة من الغموض دون أن تكون للباحث الموضوعي القدرة على تقديم إجابات جازمة إذ يعسر عليه الإلمام دائماً بنوعية البضائع المتبادلة (خاصة إذا ما تعلق الأمر بمواد قابلة للتلف) وبتنظيم عملية التبادل (بيد من كانت هذه التجارة؟ كيف كان يتمّ تمويلها؟...). ويمكن أن نسحب نفس هذه الملاحظات على جوانب أخرى عديدة من حضارة قرطاج كالحياة الدينية والمجتمع وغيرها...

من جهة أخرى نلفت انتباه القارئ إلى أننا لن نمده بكلّ الإحالات المتعلقة بما وقع إنجازاه من دراسات اعتمدت كلياً أو جزئياً على ما قدّمه التقيب الأثري من نتائج بسبب ضخامة عدد المنشورات وتنوعها وفضلنا

إعطائه نبذة عن أهم الحفريات مع الإحالة إلى أمّهات الكتب والمراجع حيث يتسنى له أن يتوسّع أكثر.

لا يمكن الخوض في قضية الحفريات الأثرية التي أقيمت على أرض العاصمة البونية دون العودة ولو بإيجاز إلى تاريخ بداية إقامتها نظرا للانعكاسات الجسيمة التي ستكون لها لاحقا على طبيعة الدراسات الأثرية في هذا الاختصاص.

استهوى موقع قرطاج منذ القرن الماضي المولعين بتاريخ الحضارات القديمة على اختلاف مشاربهم ويجب الاعتراف منذ البداية أن "الرواد الأوائل" كانوا يفكرون في معظمهم إلى التكوين الضروري للتعامل مع هذه النوعية من الوثائق بالرغم من وجود بعض الاستثناءات. وقد طغت النزعة التجارية على الأهداف العلمية الصرفة لذلك تنعدم تقارير الحفريات إلا في ما ندر. ويمكن القول أن أعمال فنصل الدانمارك فالب (Falbe) شكلت أحد أبرز الإستثناءات ذلك أنه توصل طيلة السنين الممتدة بين 1822 و 1833 إلى ضبط أول خارطة أثرية لموقع قرطاج وشكل إنجازها لما يسمى اليوم اصطلاحا مخطط فالب (Plan de Falbe) عمدة الدراسات اللاحقة حتى نهاية القرن الماضي وهو إنجاز لازال يحتوي إلى يومنا هذا على عدد الملاحظات المفيدة.

تسببت معظم الحفريات المقامة على امتداد هذه الفترة في إلحاق أضرار مادية فادحة بآثار قرطاج وبحكم افتقار "هؤلاء الرواد" إلى التكوين الصحيح تسربت إلى كتاباتهم بالضرورة أخطاء كثيرة تتجلى بالأساس من خلال الخلط الواضح الذي وقعوا فيه بنسبتهم لكثير من اللقى إلى الفترة البونية بينما هي ترقى في الواقع إلى الفترة الرومانية وللتذكير نشير إلى أن أول من عثر فعلا على شواهد عن حضارة قرطاج هو سانت ماري (E.P. de Sainte-Marie) وذلك عندما نجح في الكشف عما يقارب 2000 نصب بوني تم العثور عليها في غير موقعها الأصلي.

شكلت سنة 1880 منعرجا هاما على حدّ تعبير ج.ش.بيكار (G.C.Picard) إذ نجح محمد بن مصطفى خزندار في أن يحصل من الباي على "امتياز" احتكار اللقى الأثرية وبذلك نحى في أن يجمع داخل قصره الكائن بضاحية منوبة عددا كبيرا منها ونذكر منها على سبيل المثال أنصاب "الغرفة" والموزعة اليوم بين متاحف باردو والمتحف البريطاني ومتحف فيانا.

في سنة 1875 كلف الكاردينال لافيغري (Lavignerie) الأب دولاتر (Delattre) بمهمة التنقيب الأثري في قرطاج ويتعرض الموقع على يده إلى "مجزرة" حديدة على الرغم من أهمية ما قام به إذ يعود إليه الفضل في اكتشاف المقابر البونية التي ظلت لفترة طويلة مصدرنا الأثري الوحيد تقريبا لكتابة تاريخ قرطاج.

بعد مضي خمس سنوات فقط أي سنة 1880 أصبح متحف قرطاج (لافيغري سابقا) يعدّ 6347 قطعة أثرية.

يمكن القول أن تعيين ب. فوكلار (P.Gauckler) كمدير لمصلحة الآثار المحدثّة سنة 1882 قد شكل المحطة البارزة الموالية في تاريخ التنقيب الأثري ويعتبر جل المهتمين أن هذا الباحث يعتبر أحد أبرز وجوه هذا الاختصاص في تلك الفترة إذ اختلفت الأساليب التي اعتمدها جذريا عن أساليب أسلافه (وخاصة الأب دولاتر) ويمكن تبين هذا الاختلاف خاصة من خلال العناية التي كان يوليها لكل اللقى الأثرية دون تمييز والتي كان يخصّها بوصف دقيق هذا فضلا عن أنه درج على نشر تقرير سنوي عن الحفريات التي كان ينجزها تحت عنوان *Marche du service des Antiquités* ويعتبر مؤلفه "*Les nécropoles puniques de Carthage*" أحد أبرز المؤلفات المعتمدة حتى اليوم بالرغم من بعض الهنات والغموض بحكم وفاة ب. فوكلار قبل إنهاء هذا المؤلف.

تواصل إشراف ب. فوكلار على مصلحة الآثار حتى سنة 1906 تاريخ رحيله عن البلاد التونسية وخلفه في هذا المنصب أ.مرلان A. Merlin الذي أنجز بمعية ل. داربيي L. Drappier حفريات المقبرة البونية "أرض الخرايب" ونشرا تقرير هذه الحفريات ضمن سلسلة تحمل اسم "Notes et documents".

وحملت سنة 1921 أحد أبرز الاكتشافات الأثرية في تاريخ موقع قرطاج وقد علينا معبد التوفات "Tophet" الكائن بضاحية صلابو اليوم وتولى الإشراف على الحفريات كل من ل. بوانسو (L. Poinssot) والذي كان قد خلف أ.مرلان على رأس إدارة الآثار و. ر. لنتي (R. Lantier) ونشر تقرير هذه الحفريات الأولى في Revue de l'Histoire des Religions لسنة 1923 ثم عهد بمهمة التلقيب إلى بعثة مشتركة فرنسية - أمريكية بإدارة كل من كلساي (Kelsey) والأب شابو (Chabot).

تواصلت الحفريات بعد ذلك على أرض قرطاج وكتفي في هذا الموضوع من الدراسة بتعداد أشهر من أشرف عليها كيبان سنناس (P. Cintas) و. د. هاردن (D. Harden) و. ك. بيكار (C. Picard) وم. بينار (M. Pinard) وج. فيرون (J. Ferron) وم. ح. فنطروف. شلبي وغيرهم وصولا إلى الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج والتي سننعرض لها بالتفصيل في فصل لاحق.

وكان من الطبيعي أن تؤتي هذه الحفريات أكلها فتعددت الدراسات وغطت مختلف أوجه الحضارة المادية القرطاجية فتطور بفضلها إلمامنا بتاريخ قرطاج ونخص من بينها:

الخزف:

يصطدم الدارس لهذا الجانب من الحضارة المادية القرطاجية بإشكالية كبيرة تتمثل في صعوبة إسناد تواريخ دقيقة للقى الفخارية البونية ويعود ذلك

بالدرجة الأولى إلى تواصل استعمال أنماط خزفية على امتداد فترات طويلة.

من هنا تولدت صعوبة إنشاء ما يمكن أن نطلق عليه تسمية سلاسل يتنزل استعمالها في إطار زمني محدّد ودقيق لذلك يلاحظ القارئ اعتماد الباحثين المختصين في الحضارة البونية على اللقى الإغريقية المستوردة لتأريخ ما يتم العثور عليه من آثار (قبور، سكن، أسوار...)، لكن من المفيد الإشارة إلى ميلاد اتجاه جديد في الدراسات الحديثة يسعى ولو بصورة بطيئة ومحتشمة إلى اعتماد اللقى الفخارية البولية كمقياس للتأريخ وذلك على إثر الجهود المبذولة على امتداد السنوات الأخيرة لتصنيف الخزف البوني تصنيفاً يقارب الدقة وقد ساعدت على الدفع في هذا الاتجاه الحفريات المقامة حديثاً في مواقع مختلفة من الإمبراطورية القرطاجية نذكر منها على سبيل المثال الحفريات المشتركة الألمانية - الإسبانية بجنوب شبه الجزيرة الأيبيرية والحفريات الإيطالية في كلّ من مالطة وصقلية وسردينيا والوطن القبلي وشمال غرب البلاد التونسية... بالإضافة طبعا لما قدمته إسهامات مختلف البعثات الدولية المشاركة في الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج من نتائج.

أنمّرت هذه الجهود رؤية تنحو أكثر فأكثر نحو الوضوح وبدأ المختصون في مراجعة التواريخ التي قدمها ب. سنتاس في مؤلفه القيم *"La céramique punique"* وترتبت عن كلّ ذلك معرفة أدق بهذا الجانب من حضارة قرطاج وانعكس ذلك إيجاباً على إلمامنا بتاريخ المبادلات البولية عبر المتوسط وتحتل أعمال ج.ب. مورال J.P. Morel و.خ. رامون J. Ramon وأم. بيزي A.M. Bisi وف. شلبي وم. غراس M. Gras وب. بارتولوني P. Bartoloni وأ. شياسكا A. Ciasca مكانة متميزة في هذا المجال.

الأنصاب

هي إحدى أكثر نوعيات اللقى انتشاراً ويستأثر موقع قرطاج بأوفر عدد منها تم الكشف عنها خاصة في معبد التوفات Tophet بالإضافة إلى ما عثر عليه في معابد أخرى تقع في صقلية وسردينيا ومالطة وشمال غرب البلاد التونسية وسيرتا Cirta (قسنطينة) وتعتبر الأنصاب مصدر معلومات على قدر كبير من الأهمية ذلك أنه بالإضافة للنصوص المرافقة لعدد كبير منها نجد مجموعة من الرسوم تتير للدارس جوانب مبهمة من تاريخ قرطاج لم تعرض لها المصادر الأدبية ويمكن أن نستدل في هذا السياق بهذه الرسوم المجسمة لأدوات استخدمها القرطاجيون في أغراض عديدة كالفلحة والحرف وغيرها لكن يظل تأويل بعض الرسوم المجردة محل جدل كبير بين المختصين مثال ذلك الرسوم المنسوبة اصطلاحاً إلى الإلهة القرطاجية تانيت والهلال والأقراص وغيرها من الأشكال الهندسية.

الجلي القرطاجية

أثارت هذه النوعية من المعثورات انتباه علماء الآثار منذ انطلاق عمليات التنقيب بحكم درجة الإتقان والجودة التي بلغها الحرفيون القرطاجيون فخصوها في تقاريرهم بوصف دقيق تدعمه في معظم الحالات وثائق إضافية مجسدة كالرسوم والصور وتظل أعمال ب. كيلار B.Quillard أبرز الدراسات الأثرية في هذا المجال.

البلور

برع القرطاجيون في هذه الصناعة وقد قدمت الحفريات الأثرية أدلة قاطعة على ذلك ويمكن للمهتم أن يجد دراسة مستفيضة عن هذه النوعية من الإنتاج البوني في أعمال م. سيفريد (Seefried). بالإضافة إلى ما يمكن العثور عليه من ملاحظات قيمة في بعض المنشورات الخاصة نذكر من

بينها على سبيل المثال المؤلف الضخم الصادر بمناسبة المعرض الذي نظم في مدينة البندقية الإيطالية عن حضارة الفينيقيين.

البرنز

أحكم القرطاجيون صناعة البرنز كما تدل على ذلك اللقى المكتشفة ونذكر من بينها المرايا المحفوظة في المتاحف وكذلك شفرات البرنز التي حظيت بعناية فائقة من الدارسين فخصّوها بدراسات كثيرة ركّزت بالدرجة الأولى على الرسوم التي تحملها وهي رسوم ذات قيمة رمزية ساعدت المحاولات المبذولة لفكها على فهم جوانب خفية من الحياة الدينية والمعتقدات.

العاج

كشف التنقيب الأثري عن لقى كثيرة صنعت من مادة العاج وقد أولت الدراسات أهمية خاصة للأمشاط العاجية التي استخرجت من القبور القرطاجية ويمكن أن نوجه عناية الفارئ إلى العمل القيم الذي أفرده لها الباحثة الإيطالية أ.م. بيزي في مجلة أفريقيا. (Africa, II, 1967-1968 pp.11-73)

التمائم والجعلان

تعتبر التمام المجلوبة من مصر أو المتأثرة بالفن المصري من أهم ما يرافق الميت في قبره وقد كشفت الحفريات عن أعداد هائلة منها في مناطق عديدة من الإمبراطورية القرطاجية سواء داخل القبور أو المعابد.

ونتيجة لذلك خصّها المهتمّون بالأهمية التي تستحق وهي أهمية نستمدّها من اعتبارين اثنين يرتبط الأول بالجانب الديني وقد قصدنا بذلك مساهمة هذه النوعية من الوثائق في إلقاء مريد من الأضواء على الروابط التي حافظت عليها قرطاج مع شرق المتوسط على مستوى المعتقدات فيما يرتبط الثاني بالحياة الاقتصادية إذ أن الكشف عن هذا العدد الهام من هذه اللقى يطرح بالضرورة إشكالية وجود مبادلات تجارية بين القطبين: قرطاج

من جهة والبلاد المصرية من جهة ثانية. فبرزت نتيجة لذلك تساؤلات عديدة تعرض لها في الفصل المخصص لدراسة الاقتصاد القرطاجي وتختزل عادة في محاولة الإجابة عن مجموع الأسئلة التالية: من كان يتحكم في هذه المبادلات؟ من أين كان يمرّ الخط التجاري الرابط بين المنطقتين؟ ويعتبر عمل ج. فركوتار J. Vercoutter الصادر منذ أواسط الأربعينات علامة مضيئة في دراسة تاريخ هذه النوعية من الوثائق دعمته على امتداد الفترة الأخيرة أبحاث كل من أ. أكوارو A. Acquaro و د. د. برنات (RD. Barnett) وما. ندلسون (C. Mendelson) وج. بوردمان (J/Boardman) وو. كوليكان (W. Culican) وت. الربيسي.

التمدين

تنامت معرفتنا لهذا الجانب بصورة ملحوظة على امتداد السنوات الأخيرة بفضل الحفريات المقامة في ثلاث مواقع على الأقل ولقد قصدنا موقع قرطاج الذي سنخصه بدراسة مستفيضة في فصل لاحق وموقع كركوان بالوطن القبلي وموقع موني في أقصى غرب جزيرة صقلية.

تحتل مدينة كركوان في هذا الإطار مكانة متميزة باعتبار أن الحفريات كشفت عن مدينة بونية مكتملة المعالم (الأبج، الأسوار، المعابد، الدور...) نجت من المخاطر التي عانت وتعاني منها بقية المواقع البونية وكل المواقع الأثرية بصورة عامة يضاف إلى ذلك ما يمكن استقراؤه بالنسبة لبعض المكونات العمرانية بفضل الحفريات المنجزة في مواقع أخرى عديدة مثل:

- الأسوار (رأس الدرك، ايريكس Eryx، شمال غرب البلاد التونسية، منطقة بنزرت...)

- المواني (قرطاج، موني، المهدية...)

- المعابد: وخاصة معابد التوفات وهي فضاءات مقدسة ذات طابع خاص إذ يتعلق الأمر بمعابد غير مسقوفة حيث كان القرطاجيون، إذا ما

وثقنا بشهادة الكتاب القدامى، يقدّمون القرابين البشرية ويجدر التذكير أن الحفريات لم تكشف عن فضاءات مماثلة في الشرق الفينيقي فيما تمّ العثور عليها في كلّ من قرطاج وهدرمتوم (سوسة) ومونتي ونورا (Nora) وسلكيس (Sulcis) وتاروس Tharros ومونتي سيراي (Monte Sirai)...

وقد شكلت هذه النوعية من الفضاءات المقدّسة بالخصوص موضع اهتمام عديد الدارسين (انظر الببليوغرافيا).

"مدن الأموات"

ظلت المقابر كما أشرنا إلى ذلك مصدر معلوماتنا الوحيد تقريباً عن حضارة قرطاج لذلك حظيت بعناية فائقة فتعدّدت الكتابات وتنوعت الاهتمامات مشدّدة بالدرجة الأولى على ما تحويه القبور من أثاث جنازي غير أن بعض الدراسات الأخرى سعت إلى تصنيف القبور نفسها معتمدة في ذلك مقياس الشكل الهندسي وطريقة البناء... ومن أبرز مراجعنا يمكن أن نشير إلى الصفحات وضعها س. قزال في مؤلفه الشهير *HAAN* وبالتحديد في الجزء الرابع ص. 426 حتى 469 ومؤلف ب. سـنـتـاس *Manuel d'Archéologie Punique* الجزء الأوّل ص. 429 حتى 443 والجزء الثلثي ص. 239 حتى 387 غير أن المرجع الأساسي المعتمد اليوم يظل عمل هـ. بليشو - صفر (*Les tombes puniques de H. Benichou-Safar*) الصادر بباريس سنة 1982.

III - المصادر النقائشية

على امتداد السنوات الأخيرة اكتسبت النقائش البونية أهمية لا يمكن للمهتم بتاريخ قرطاج تجاهلها بحكم مساهمتها في إثراء معرفتنا التاريخية بهذه الحضارة لكن وكما هو الشأن بالنسبة للمصادر الأثرية لازالت الأبحاث

في هذا الميدان تصطدم بسلسلة من العراقيل وتشكو بالتالي من هزات يستحسن أن نشير إليها ولو بإيجاز.

- من الضروري أن يعي القارئ وكما أبرز ذلك الباحث م.سنيسر (M.Sznycer) أن "المتطفلين" على هذا الميدان من غير المختصين كثيرون وهم لا يحذقون في معظم الأحيان إلا اللغة العبرية القديمة ونتيجة لذلك نلاحظ أن اهتمامهم بالحضارة الفينيقية - البونية يتنزل في إطار محاولتهم تقديم إجابات عن مسائل غامضة ترتبط أصلاً بالكتاب المقدس لليهود أي التوراة ومن هذا المنطلق لا يترددون في تقديم فرضيات بعيدة جداً عن المنطق ويعزى ذلك لافتقارهم إلى أبسط القواعد المنهجية وأدنى قدر من التكوين التاريخي.

- تعتبر هذه الأعمال الرديئة أحد الأسباب الرئيسية التي أدت ببعض المختصين من علماء الآثار خاصة إلى امتحان هذه النوعية من المصادر وغض النظر عما يمكن التوصل إليه من نتائج باعتمادها يضاف إلى ذلك - وهو السبب الثاني - رثابة النصوص النقائشية القرطاجية وخاصة النذرية منها والتي تكاد تقتصر في أغلب الأحيان على ذكر أسماء الآلهة التي قُدمَ لها اللذر متبوعة باسم صاحبه وسلاسته ثم عبارة الاختتام والتي يمكن تعريبها كالتالي لأنه (الإله) سمع صوته: (قوله) وباركه وهي عبارة لا نجدها في كل النصوص.

- زيادة على هذه الصعوبات يمكن التوقف عند نوعية أخرى من العراقيل تتعلق بطبيعة اللغة الفينيقية - البونية نفسها ذلك أنها لغة سامية تكتب بدون رسم الحركات وهو ما يعطي هامشاً كبيراً للتأويل يضاف إلى ذلك أنها لغة تم فك رموزها وفهم ما تيسر من معانيها باعتماد المقارنات والمقاربات مع لغات سامية أخرى معروفة كاللغة العبرية القديمة من هنا يصطدم الباحثون الموضوعيون بصعوبة فهم الكثير من الألفاظ والعبارات وينصح م.سنيسر بالإمساك تماماً عن تقديم أجوبة مجازفة ويعتبر ذلك أفضل من تقديم فرضيات لا يدعمها المنطق ولا تستند إلى حجج تاريخية يمكن الوثوق بصحتها.

بالرغم من كلّ هذه النقائص والعراقيل يبقى الحكم الذي أطلقناه عند بداية حديثنا عن المصادر النقائشية حكماً مشروعاً خاصة إذا ما تأملنا في ما تقدمه النصوص النقائشية من إسهامات تهمّ جوانب كثيرة من حضارة قرطاج كالتمدن والمؤسسات السياسية والقضائية والدينية ويمكن أن نستدل على ذلك بذكر أسماء الخطط والمهن الرائجة في قرطاج (الأشفاط، رب الكهنة، الكهنة، المكلفون بالجباية، المحاسبون، البناؤون...) وهي إشارات تزداد أهميتها إذا ما علمنا أن هذه النصوص وبقطع النظر عن محتواها هي النصوص المباشرة الوحيدة التي بلغتنا بعد تلف مكتبات قرطاج.

في ما يتعلّق بأبرز الدراسات في هذا الميدان وكما هو الشأن بالنسبة للمصادر الأثرية لا يتّسع المجال لمدّ القارئ مجرد مفصل للأعمال المنجزة لذلك فضلنا اتباع نفس التمشي السابق مركزين على الدراسات الأساسية وللأمانة العلمية نشير إلى أننا اتبعنا نفس التصور الذي اعتمدته م. سنيسر في تقارير المؤتمرات الدولية الثلاث الأولى للدراسات الفينيقية والبونية الصادرة في روما سنتي 1983 و 1991 وفي تونس سنة 1995.

* المعاجم والفهارس

في البداية لم يكن بحوزة المهتمين بتاريخ الفينيقيين والبوليين سوى فهرس صادرة منذ القرن التاسع عشر ولكلّ من م. ليفي (*Phönizisches Wortbuch* 1894 وأبلوك (*Phönizisches Glossar* 1891 (Bloch) وخاصة عمل المختص المعروف م. ليدبارسكي (*M. Lidzbarski*) الصادر سنة 1894 — *Handbuch Epigraphik graphitischen* صفحات 204 — 288.

في سنة 1936 صدر عمل جيّد في نفس التوجه لهاريس (Z.S. Harris) يحمل عنوان *A grammar of the Phoenician language* وهو عمل يمكن إكماله بالعودة إلى معجم س. ف. جان (C.F. Jean) وج. هوفتليزر (J. Hoftijzer) والذي يحمل العنوان الآتي *Dictionnaire des inscriptions sémitiques de*

(1960-1965) *l'Ouest*. ويختزل في معظم الأحيان كالتالي *DISO* وهو عبارة عن فهرس يحوي جردا مفصلا لكل الكلمات التي تحويها اللغة الفينيقية البونية والبنوية الحديثة (*Le Néopunique*).

مع أواخر السبعينات صدر معجم ر.س.تومباك (R.S.Tomback) ويحمل عنوان:

A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician and Punic Language.

* الدراسات اللغوية

يمكن التركيز حسب م.سليسر على ثلاثة أعمال هي:

- عمل ز. هاريس وكنا أشرنا إليه آنفا

- عمل ج. فريدرش (*J.Friedrich*) *Phönizisch - Punische Grammatik*

وقد صدرت طبعته الأولى سنة 1951 فيما صدرت الثانية بمشاركة و.روليك (*W.Röllig*) سنة 1970.

- عمل س.سيقارت (*S.Segert*) صادر سنة 1976 *A Grammar of Phoenician and Punic*

* الباليوغرافيا (*La paléographie*)

يتم الاعتماد اليوم بالأساس وبالرغم من بعض النقائص التي يشكو منها على مؤلف ج.ب.بيكام

. *The development of the late phoenician scripts.* (J.B. Peckham) Cambridge, Massachusetts 1968.

* الإسماء

تحسن العودة إلى العناوين التالية حيث يجد الدارس تناولا مستفيضا للأسماء الفينيقية والبنوية.

- HALFF (G), L'onomastique punique de Carthage Répertoire et commentaire, in, *Karthago*, XII, 1965 pp. 63-146
- BENZ (F.L), *Personnal Names in the Phoenician and Punic Inscriptions* 1972 .
- JONGELING (K), *Names in New punic inscriptions* 1984 .

المدونات العامة وكتب المختارات

تبقى مدونة النقائش السامية أحد أبرز المصادر الأساسية

Corpus Inscriptionum Semiticarum Pars Prima

ويختزل دائما كالتالي CIS,I وهو مؤلف ضخيم تبنته الأكاديمية الفرنسية (L'Académie des Inscriptions et Belles - Lettres) وبمبادرة من أ.رينان (E.Renan) سنة 1867 وقام بالمشاركة في وضعه في البداية كل ف.بارجي (Ph.Berger) وم.دي فوقي (M.De Vogüe) وش.ك.فانو (Ch.C.Ganneau) وج.ب.شابو (J.B.Chabot) ور.ديسو (R.Dussaud) لكن الجزء الأول من هذه المدونة لم يصدر إلا سنة 1881 فيما صدر الجزء الثاني سنة 1883 والثالث سنة 1885 والرابع سنة 1887 وتواصل صدورها بعد ذلك بشيء من الانتظام قبل تضاعف المصاعب التقنية والمالية.

توجد مدونات أخرى مكتملة لمدونة النقائش السامية نخص بالذكر منها *Répertoire d'Epigraphie Sémitique* وهو تأليف بدأت الأكاديمية الفرنسية في إصداره منذ سنة 1900 ويمكن أن نضيف إليه بعض العناوين الأخرى التي فضلت التركيز على مختارات من النقائش الفينيقية والبولية (وغيرها) لدراستها ومن أهم الأعمال نذكر:

- COOKE (G.A), *A Text book of North Semitic inscriptions* 1903
- DONNER (H), ROLLIG (W), *Kanaanaische und Aramaische Inschriften (= KAI)* 1907.

في نفس الإطار دائما يمكن تنزيل مجموعة من الأعمال أثرت دراسة نصوص بعض المواقع أو المناطق الجغرافية ويمكن أن نشير إلى المنشورات التالية:

- AMADASI (M.G.G), *Le iscrizioni fenicie e puniche delle colonie in Occidente (=ICO) 1967.*

- MOZIA II, III, IV, V, VI, IX:

وهي نصوص كما نلاحظ وردت في تقارير الحفريات التي أقيمت على موقع مونتي بأقلام كل ج. قربيني (G.Garbini) والباحثة م.ج.ج. امادازي (M.G.G. Amadasi) ثم تم تجميع كل النقائش في مؤلف واحد بقلم نفس الباحثة يحمل عنوان: *Scavi a Mozia. Le iscrizioni 1986*

في ضفلية دائما أثارت النصوص المرسومة على جوانب مغارة قروتا ريجينا (Grotta Regina) اهتمام الدارسين فصدر في هذا الشأن مؤلفان اثنان:

- Bisi (A.M), Amadasi (M.G.G), Tusa (V), Grotta regina I.

- POLSELLI (G), AMADASI (M.G.G), TUSA (V), *Grotta Regina II. Le iscrizioni puniche.*

في سردينيا اهتم كل من ج.قاربيني وم.ج.ج. امادازي في تقارير الحفريات الأولى بنشر نصوص مونتي - سيراى وهي تقارير بدأت في الصدور منذ سنة 1964 أما نقائش موقع انتاس (Antas) فقد تولى نشرها م.ح. فنطر في مؤلف جماعي يحمل عنوان: *Ricerche puniche ad Antas.*

- بالنسبة إلى جزيرة مالطة: بالإضافة إلى مدونة النقائش السامية نشير إلى أن البعثة الإيطالية قد تولت نشر نصوص موقع تاس سيلج (Tas-Silg) بقلم كل من م.ج.ج. امادازي وج. قربيني وذلك منذ سنة 1964.

- بالنسبة لإسبانيا وجزيرة ابيزا = يمكن للقارئ العودة إلى أعمال الباحث ج.م.سولا سولي (Sola Sole) الصادرة في مجلة *Sefaraad* منذ 1955 وكذلك مجلة *Rivista degli Studi Orientali*

- منطقة طرابلس: تمثل أعمال الباحث الإيطالي الكبير ج. ليفي دلافيدا. G. Levi Della Vida محطة منيرة نحيل القارئ للبعض منها:

- "Iscrizione neopuniche de Tripolitania" in, *Rendiconti dell'Accademia Nazionale dei Lincei* (1947) pp. 359- 412.
- "Iscrizione punica di Lepcis" (نفس المرجع) pp. 550 -561.
- "Sulle iscrizioni "Latino-Libiche" della Tripolitania", in, *Oriens Antiquus*, 2, (1963), pp. 65-94.
- "Le Iscrizione neopuniche della Tripolitania", in, *Libya*, 2, (1967) pp. 1-26...

- المغرب الأقصى

- GALLAND (L), FÉVRIER (J.G), VAJDA (G), *Inscriptions antiques du Maroc. Inscriptions libyques, puniques néopuniques et hébraïques. Paris (1966) .*
- GALLAND (L), SZNYCER (M), "une nouvelle inscription punico-Libyque de Lixus", in, *Semitica*, 20, (1970), pp. 5-16.

- سیرتا (قسنطينة)

- BERTHIER (A), CHARLIER (R), *le sanctuaire punique d'El Hofra à Constantine, Paris, 1955 .*
- BERTRANDY (F), SZNYCER (M), *Les stèles puniques de Constantine, Paris 1987.*

- بالنسبة للبلاد التونسية سنقتصر على أبرز ما نشر حول نقائش

المواقع التالية:

- هدرمتوم (سوسة)

- CINTAS (P), "Le sanctuaire punique de Sousse", in, *Revue Africaine* (1947), pp. 30-46.

- مكنتر

استأثرت نقيشة مكنتر الشهيرة خاصة باهتمام الكثير من الباحثين من بينهم:

- FÉVRIER (J.G), "La grande inscription dédicatoire de Mactar", in, *Semitica*, 6, (1956), pp. 15-31.
- FÉVRIER (J.G), FANTAR (M.H), "Les nouvelles inscriptions monumentales néopuniques de Mactar", in, *Karthago*, 12, (1968), pp. 45-53.

موقع تبرسق

- FANTAR (M.H), "Teboursouk, stèles anépigraphes et stèles à inscriptions néopuniques". *Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des Inscriptions XVI*, (1974), pp. 377-431.

هنشير مدد

- SZNYCER (M), "les inscriptions néopuniques de Mididi", in, *Sémitica*, 36, (1986). p. 5-24.
- FANTAR (M.H), "nouvelles stèles à épigraphes néopuniques de Mididi".

نفس الإحالة السابقة والصفحات من 25 حتى 42.

مصادر الفصل الأول ومراجعته

المصادر الأدبية

اعتمدنا بصفة رئيسية الترجمة الفرنسية للمصادر الإغريقية واللاتينية الصادرة تحت إشراف جمعية قيوم - بودي في "سلسلة الجامعات الفرنسية":

Collection des Universités de France (C.U.F.). Publiée sous le patronage de l'Association Guillaume - Budé. Société d'Édition "Les Belles Lettres".

وتقدم ترجمة مصاحبة للنص الأصلي مرفقة بمراجعة وتحقيق وتقديم دقيق للكاتب والمصدر وإضافة هامش، والملاحظ أن المصادر الهامة من حيث الحجم نشرت في أجزاء مبنية حسب الكتب (Livres) من قبل مترجمين ومحققين مختلفين. ووجب التنبيه أيضا إلى عدم اكتمال ترجمة بعض المصادر في السلسلة المذكورة، على غرار "المكتبة التاريخية" لديودوروس الصقلي فبعض كتبها التي لم تصدر بعد في نص فرنسي، ترجمت إلى الإنجليزية في سلسلة Loeb Classical Library. ولجأنا عند الضرورة إلى سلسلة المصادر الكلاسيكية: فرنسي - فلاماريون:

La collection des classiques Garnier-Flammarion. وهي تشمل

على ترجمة للفرنسية مسبوقة بتقديم وجيز للمصدر ولمولفه.

- APPIEN, *Libyca, Punica, Guerres civiles*, éd. H. White, coll. Loeb, 1912-1913, réimpr, 1958.
- ARISTOTE, *Politique*. Texte établi et traduit par Jean Aubonnet. Paris: Les Belles Lettres, 1989.
- ARISTOTE, *Les Politiques*. Traduction inédite introduction, bibliographie, notes et index par Pierre Pellegrin. Paris: Garnier - Flammarion, 2ème édition revue et corrigée, 1993.
- CICERON, *Oeuvres philosophiques. Tusculanes (III, 22, 54. V, 37, 107)*. Texte traduit par G. Fohlen et Jules Humbert, Paris: les Belles Lettres, 3ème tirage, 1968.

- CORNELIUS NEPOS, *De Viris illustribus*. texte traduit et commenté par A.M. Guillemin. Paris: Les Belles lettres. (édition revue et corrigée par PH. Heuzé et P. Jal), 1992.
- DIODORE DE SICILE, *Bibliothèque historique*, s. d. de F.Chamoux. T I: Introduction et Livre I, 1993.
- FLAVIUS JOSEPH, *Contre Apion*. texte établi et annoté par Théodore Reinach et traduit par Léon Blum. Paris: Les Belles Lettres 2ème tirage, 1972.
- HERODOTE, *Histoires*. Texte établi et traduit par Ph. E Legrand Paris: Les Belles Lettres. 3è tirage, 1973.
- JUSTIN, *Abrégé de l'Histoire Universelle de Trogue Pompée*. traduit par J.Pierrot et E.Roitard. Edition M.E. Pessonneux. Paris: Garnier. s.d.
- PLAUTE, *Comedies*. TV (Mostellaria, Persa, Poenulus) texte établi et traduit par A.Ernout. Paris. Les Belles Lettres 3ème tirage revu et corrigé, 1970.
- PLIN L'ANCIEN, *Histoire naturelle*. Livre I. préface et Table des matières par J.Beauyeu. Introduction par A.Ernout. Paris. Les Belles Lettres, 1950.
- POLYBE, *Histoires*. T.I: Introduction et Livre I, texte établi et traduit par P.Pédech. Paris. Les Belles Lettres. 2è tirage, 1989.
- SALLUSTE, *La conjuration de Catilina - La Guerre de Jugurtha - Fragments des Histoires*, texte établi et traduit par J.Ernout - Paris: Les Belles Lettres. 2è tirage, 1989.
- SILIUS ITALICUS, *La Guerre punique*. TI à IV. texte établi et traduit par P.Miniconi et al. Paris: Les Belles Lettres, 1979-1992.
- SUETONE, *Vies des Douze Césars. Tome II, Livre V (Tibère)* . texte établi et traduit par Henry Ailloud Paris: Les Belles Lettres, 1932.
- TITE LIVE, *Histoire romaine* Paris: Les Belles Lettres (1940-1984): publiée en 34 tomes, le dernier est consacré aux abrégés (*periochae*).
- TITE LIVE, *Histoire romaine*: Traduction de Annette Flobert, Paris G.Flammarion.:

Livres XXI à XXV: (La seconde Guerre Punique I) 1993.

Livres XXVI à XXX: (La seconde Guerre Punique II) 1994.

- VIRGILE, *Eneide*, nouvelle édition par J.Perret tome I à IV, Paris : Les Belles Lettres, 1981-1987.

المراجع

- ANDRE (J.M) et HUS (A), *L'Histoire à Rome*. Paris: PUF, 1974.
- BARUCQ (A), CAQUOT (A), DIRAND (J.M), LEMAIRE (A) et MASSON (O), *Ecrits de l'Orient ancien et sources bibliques*. Paris, 1986. (André Lemaire: "Les écrits des Phéniciens" p. 215-238).
- BICKERMAN (E.J), "Hannibal's Covenant", in, *American Journal of philology*, 73 (1952) pp.1-23.
- CIZEK (E), *Histoire et historiens à Rome dans l'antiquité*. Lyon, 1995.
- DESANGES (J), "Le point sur le périple d'Hannon: controverses et publications récentes", in, *Enquêtes et documents*. (1981); pp. 13-29.
- DUBUISSON (M), "L'image du carthaginois dans la littérature latine", in, *Studia Phoenicia*, 1-2- (1983). pp. 159-167.
- EUZENNAT (M), "Le Periple d'Hannon", in, *Comptes Rendus de l'Academie des Inscriptions et Belles Lettres*, Avril-Juin (1994), pp. 559-579.
- FINLEY (M.I), *The essence of Herodotus, Thucydides, Xenophon, Polybios*. Londres, 1959.
- *Sur l'histoire ancienne, la matière, la forme et la méthode*. Trad. de l'anglais par J.Cartier. Paris, 1987.
- GSELL (St), *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*. T. I.
- KRINGS (V), "Les Libri punici de Salluste", in, *Africa Romana VII*, Sassari. 1990, pp 109-117.
- MAZZA (F), RIBICHINI (S), XELLA (P), *Fonti Classiche per la civiltà fenicia e punica I, Fonti litterare greche dalle origini alla fine dell'età classica*. Roma, 1988.
- MOMIGLIANO (A), *Sagesses barbares. Les limites de l'hellénisation*. Paris, 1979.
- *Problèmes d'historiographie antique et moderne*. Paris, 1982.
- PEDECH (P), *La méthode historique de Polybe*. Paris, 1964.

- PICARD (G.Ch), "Est-il possible d'écrire une histoire de Carthage?", in, *Atti del I Congresso internazionale di Studi Fenici e Punici*. vol. I, Roma. (1983). pp. 279-282.
- RAWSON (E), "The firsts latin Annalists" in *Latomus*, 35, (1976). pp. 689 et suiv.
- REDISSI (T), "Les emprunts de sceaux égyptisants et égyptiens de Carthage", in, *CEDAC*. n°12. (1991). pp 13-24

نشرية مركز الدراسات والوثائق الأثرية لمحافظة آثار قرطاج

- ROUSSEL (D), *Les historiens grecs*. Paris, 1973.
- SYME (R), *Histoire et historiens dans l'Antiquité*. Genève, 1959.
- SZNYCER (M), *Les passages puniques en transcription latine dans le Poenulus de Plaute*. Paris, 1967.
- "La littérature punique", in, *Archéologie vivante*, 1-2, (1968-1969). pp. 141-148.
- VAN EFFENTERRE (H), *L'Histoire en Grèce*. Paris, 1962.
- WALBANK (F.W), "The historians of greek Sicily", in, *Kokalos*, XIV-XV, (1968-1969) pp. 476-498.
- WEIL (R), *Aristote et l'histoire*, Paris, 1960.

حول تاريخ الحفريات البونية اعتمدنا بالأساس على :

- PICARD (G Ch), « la recherche archéologique en Tunisie des origines à l'indépendance », in, *Cahiers des Etudes Anciennes XVI*, (1983), pp 11-20.

من أهم تقارير الأب دولتر يمكن أن نذكر :

- DELATTRE (R.P):
- « La nécropole punique de Douimes à Carthage. Fouilles de 1895. 1896 » *extrait de Mémoires de la Société Nationale des Antiquaires de France LVI*, (1887) p. 255-395 Paris, 1897.
- « Carthage quelques tombéaux de la nécropole punique de Douimes 1892-1894 », *extrait des Missions Catholiques Lyon*, 1897.
- « La nécropole des Rabs, prêtres et prêtresses de Carthage, 2ème année », *extrait de Cosmos, Paris*, 1905.
- « La nécropole des Rabs... 3ème année » *extrait de Cosmos, Paris*, 1906.

- « Nécropole punique de la colline de Saint-Louis » *extrait des Missions Catholiques XXXVIII, Lyon, 1896.*
- « Carthage la nécropole punique voisine de Sainte-Monique. Le 1er mois des fouilles. Janvier 1898 », *extrait de Cosmos Paris, 1899.*

حول الخزف انظر مثلا :

- * BISI (A.M), *La Ceramica punica Aspetti e, problemi.* Naples 1970.
- * CHELBI (F), «Céramique à vernis noir de la Rabta», in, *Latomus 31*, (1972) pp. 368-378.
- «A propos des amphores archaïques de Carthage», in, *Atti del II Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici Rome* (1991) pp. 715-732.
- *Céramique à vernis noir de Carthage*, Tunis 1992.
- * CINTAS (P), *Céramique punique* Paris 1950.
- * DEMARGNE (P), «La céramique punique », in, *Revue Archéologique* (1951) pp. 44-52.
- * MOREL (J P), « les vases à vernis noir et à figures rouges d'Afrique avant la deuxième guerre punique et le problème des importations de Grande-Grèce », in, *Antiquités Africaines, 15*, (1980) pp. 29-90.
- « La céramique à vernis noir de Carthage-Byrsa: Nouvelles données et éléments de comparaison », in, *Actes du Colloque sur la céramique antique, in, CEDAC, Carthage. Dossier I*, (1982) pp. 43-61
- « Les importations de céramiques grecques et italiennes dans le monde punique (Vème siècle) », in, *Atti del I Congresso internazionale di Studi Fenici e Punici, III*, Rome (1983) pp. 731-748.
- VEGAS (M), « Archaische und mittelpunische Keramik aus Karthago, Grabungen 1987-1988 », in, *MDAI, Rom, Abt, 96*, (1989) pp. 209-259.

حول الحلي يمكن العودة إلى :

- * QUILLARD (B), *Bijoux Carthaginois I, les Colliers.* Louvain -la-Neuve 1979.

حول التماثيل والجعلان :

- * ACQUARO (E), « Gli, scarabei punici in pietra dura del Museo Nazionale G.A.Sanna di Sassari » *AANL XLI*, (1987), pp. 227-252.
- « Scarabs and Amulets », in, *"The Phoenicians"* Milan, 1988, pp. 394-403.
- * REDISSI (T), *Etudes des amulettes de type égyptiens et égyptisants et divers Aegyptica de Carthage (VII-II) et de la Méditerranée au 1er millénaire av.J.C.* (thèse dacty) sous la direction de M.M; J.Leclant et M.Leglay. Paris Sorbonne 1987.
- « Les empreintes de sceaux égyptiens et égyptisants de Carthage », in, *CEDAC*, 12, (1991) pp 13-24
- * VERCOUTTER (J), *les objets égyptiens et égyptisants du mobilier funéraire carthaginois* Paris, 1945.

حول البلّور :

- * SEEFREID (A), *Les pendentifs en verre sur noyau des pays de la Méditerranée antique*. Rome 1982.

حول البرنز :

- * ACQUARO (E), *-i rasoi punici*. Rome 1971.
- « Bronzes », in, *the Phoenicians*, Milan, 1988 pp. 422-435.
- * PICARDS (C), « Sacra punica », in, *Karthago*, 13, (1967) pp. 3-115.
- * TAHAR (M), « la collection des miroirs en bronze conservé dans le musée de Carthage. Essai de classification » (à paraître).

حول الأنصاب :

- BARTOLONI (P), *Le stele archaiche di Cartagine*. Rome, 1976.
- BISI (A.M), *le stele puniche (Studi Semitici, 27)* Rome, 1967.
- PICARD (C), *Catalogue du Musée Alaoui, N.S. collection punique I. II*, Tunis 1954.

حول معبد التوفات انظر مثلا :

- * CINTAS (P), « un sanctuaire pré-carthaginois sur la grève de Salammbô », in *Revue Tunisienne 3ème série, n.I.*, (1948), pp. 1-31

- * HARDEN (D), « Punic urns from the precinct of Tanit at Carthage », in, *American Journal of Archaeology*, XXXI, (1927), pp 297-310.
- « The pottery from the precinct of Tanit at Salamô Carthage », in, *Iraq*, IV, (1937), pp. 59-89.
- * KELSEY (F), « A preliminary report on the excavations at Carthage, (1925) » *supp. to the American Journal of archaeology*, New York, (1926) .
- * PICARD (G.C), « Le sanctuaire dit de Tanit à Carthage », in, *CRAI*, (1945), pp. 443-452.
- * POINSSOT (L) et LANTIER (R), « un sanctuaire de Tanit à Carthage », in, *Revue de l'Histoire des Religions*, (1923), pp. 31-68.
- * RIBICHINI (S), *il tofet e il sacrificio dei fanciulli*. Sassari 1987 (avec bibliographie).
- * STAGER (L), « The rit of child sacrifice at Carthage. New Light on Ancient Carthage » (J.G Pedley edit) *Ann Arbor*, I, (1981) pp. 1-11.
- * STAGER (L), WOLFF (S.R), « Child Sacrifice at Carthage - Religious Rite or Population Control? Archaeological Evidence for a New Analysis », in, *Biblical Archaeological Review*, 10, (1984) pp. 31-51.
- * Le tophet de Motyé: *Mozia I.IX, Rapporti preliminari delle campagne di scavi 1964-1974 - Rome (1964-1978)*.
- * « Le tophet de Tharros », *Tharros I.XIV, in, Rivista di Studi Fenici*, (1975-1988).

حول التمدن : انظر الببليوغرافيا الواردة في آخر الفصل المخصص

لدراسة الحضري لمدينة قرطاج كما يمكن العودة أيضا إلى العناوين التالية:

- * FANTAR (M.H), *Kerkouane cité punique du Cap-Bon Tunisie T.I*, Tunis 1984, T II, Tunis 1985, T III, Tunis 1986.
- * ISSERLIN (B S.J), DU PLAT TAYLOR (J), *Motya, a Phoenician and carthaginian city of Sicily*, I, leyde 1974.
- * WHITAKER (J.I.S), *Motya, a phoenician colony in Sicily* Londres 1921.

المقابر : تتميز الببليوغرافيا بغزارتها لذلك سنقصر على عناوين بعض الدراسات العامة:

- * GAUCKLER (P), *Nécropoles puniques de Carthage*, Paris 1915.
 - * SAFAR (H.B), *Les tombes puniques de Carthage. Topographic, structures, inscriptions et rites funéraires*. Paris 1982.
- للحصول على إحالات أكثر تفصيلا حول هذه الجوانب المادية من حضارة قرطاج يمكن العودة إلى
- * KRINGS (V), ed, *Manuel de recherche sur la civilisation phénicienne et punique*, Leiden-New York, 1995.
 - * LIPINSKI (E), (Sous la direction de), *Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique*. Bruxelles 1992

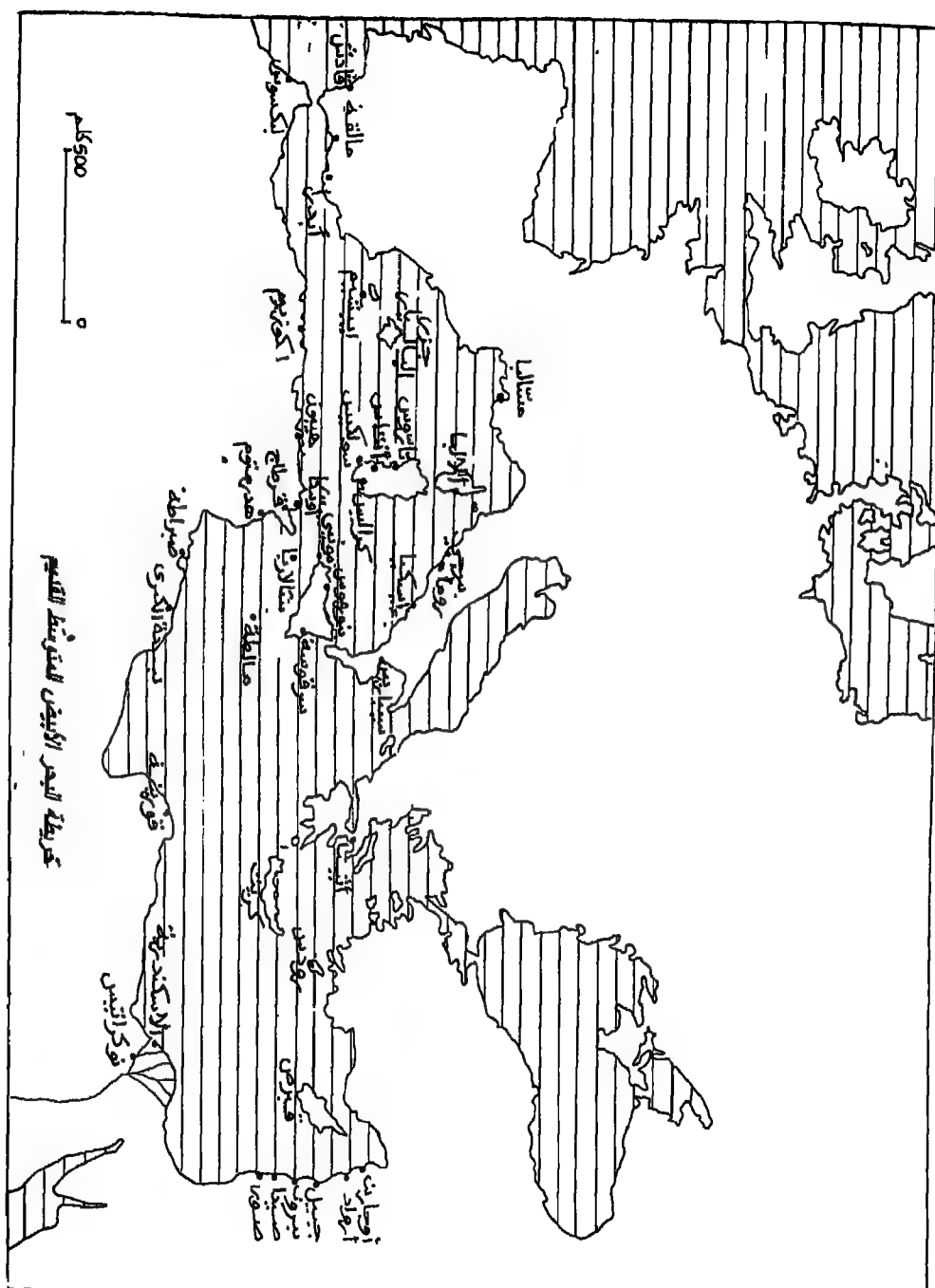
الفصل الثاني

التوسّع الفينيقي بغرب المتوسط

أثارت قضية تاريخ التوسّع الفينيقي جدلاً طويلاً بسبب التضارب الكبير بين التواريخ المتقدمة التي تقترحها المصادر الأدبية من جهة والتواريخ المتأخرة التي تمّ التوصل إليها بالاعتماد على الحفريات الأثرية وهو ما حدا ببعض الباحثين إلى إخضاع شهادات الكتاب القدامى لنقد بلغ أحياناً درجة كبيرة من التشدد فتباينت في خضم هذا الجدل المواقف وتعدّدت الآراء ولئن تقلّصت الهوة الزمنية في موقع قرطاج بالذات بفضل الحفريات الألمانية الأخيرة كما سنعرض لذلك في الفصل القادم فإن القضية لازالت مطروحة وبحدّة بالنسبة إلى بعض المواقع الأخرى وأشهرها ليكسوس (Lixus) وقادش (Gades) وأوتيكا.

في محاولة منّا لتبسيط هذه الإشكالية فضّلنا أن نخصّص الجزء الأول من هذا الفصل للتعرّض إلى مختلف شهادات الكتاب القدامى مبنية تبويباً جغرافياً مشددين بالأساس على الروايات المتضمنة لتواريخ يستحسن تقديمها لاثراء هذا الملفّ أما الجزء الثاني فسيقع تخصيصه لتناول جوانب الملفّ الأثري وطبيعيّ أننا سنركّز على أقدم اللقى التي أمكن الكشف عنها لما لذلك من علاقة وثيقة بإشكالية التاريخ متّبعين في ذلك نفس التبويب المشار إليه آنفاً أي التبويب الجغرافي.

وقد حاولنا في الجزء الأخير من هذا الفصل استجلاء أهم الانجاهات التي اتبعها الباحثون في محاولاتهم قراءة وتأويل المادّة التاريخية سواء منها الأدبية أو الأثرية أو النقائشية ساعين قدر جهننا إلى تقديم رؤية عامة عن هذه الإشكالية تأخذ بعين الاعتبار آخر ما تمّ التوصل إليه في هذا الشأن.



I - التوسّع الفينيقي بالمتوسط الغربي من خلال المصادر الأدبية

يمكن للمثأمل في شهادات الكتاب القدامى حول قضية التوسّع الفينيقي أن يلاحظ دون صعوبة أن الأمر يتعلّق غالبا بشذرات وردت عرضا في كتاباتهم وتفتقد غالبيتها للدقة المطلوبة كما سنبيّن ذلك لاحقا ولنبدأ أولا باستعراض أهمّ شهادات هؤلاء والمتعلّقة بقادش

- قادش : تقع في الأصل على جزيرة صغيرة محاذية للساحل الأطلسي لشبه الجزيرة الايبيرية عند مصب ريو قوادلاتي (Rio Guadalete) ويعود تأسيسها حسب فليوس بتركولوس إلى زمن عودة الـهركليديين (Les Heraclides) إلى منطقة البلبينزوس (Le Péloponnèse) التي حصلت ثمانين سنة بعد حرب طروادة (La guerre de Troie) وهو ما يحملنا إلى سنة 1110 ق.م على الأقل بالرغم من الجدل الشائك حول تأريخ هذه الحرب.

أما الجغرافي سترابو فيذكر دون تدقيق أن المستوطنات الفينيقية بإسبانيا تأسست بعد حرب طروادة بقليل وهي إشارة تتطابق مع ما يذكره بومبينيوس ميلا والذي يضيف أنّها (أي المستوطنات الفينيقية) تأسست قبل فترة هوميروس.

- ليكسوس (Lixus) تقع على الساحل الأطلسي شمال العرايش (Larache) بالمغرب الأقصى اليوم ويعود تأسيسها إن وثقنا بشهادة بليوس الأكبر إلى تاريخ أقدم مقارنة بمستوطنة قادش إذ يتحدث هذا المصدر عن وجود معبد للإله هرقل أقدم من المعبد الموجود بهذه الأخيرة.

- أوتيكا : يذكر فليوس بتركولوس أن تأسيسها تمّ سنوات قليلة بعد تأسيس قادش وبالعودة إلى مؤلف بليوس الأكبر أمكن الوصول إلى تاريخ أكثر دقة إذ يتحدث عن أعمدة من أرز نوميديا يمكن مشاهدتها في معبد الإله أبولون خلال الفترة التي عاصرها ويضيف أنها وضعت عند تأسيس المدينة

1178 سنة قبل ذلك فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن بلينوس الأكبر قام بإهداء مؤلفه "التاريخ الطبيعي" إلى الإمبراطور تيتوس (Titus) سنة 77 بعد الميلاد فإننا نحصل على تاريخ 1101 قبل الميلاد كتاريخ لتأسيس أوثيكا وهو استنتاج يتوافق مع ما يذكره أرسطو المنحول (Le Pseudo-Aristote) الذي يورد اعتمادا على الجوليات الفينيقيّة أن أوثيكا تأسست 287 سنة قبل قرطاج وإذا ما اعتمدنا تاريخ 814-813 ق.م. كتاريخ لتأسيس العاصمة البونية فإننا نحصل على تاريخ يتطابق تماما مع التاريخ الوارد لدى بلينوس الأكبر.

- أوزا (Auza) يذكر مندروس الايفيزي بالاعتماد على الحوليات الصورانية أن ملك صور إيتوبعل (Ittobaal) قام بتأسيس مستوطنة تحمل اسم أوزا ويرجح أن ذلك تم في النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد ولا يزال تحديد موقع هذه المستوطنة موضع جدل بين الباحثين.

إذا استثنينا هذه الإشارات القليلة والدقيقة نسبيا فإن بقية الروايات تتخذ طابع العموميات وتفتقر بالتالي إلى ضوابط تاريخية يمكن التعويل عليها إذ نكتفي بمصادرنا بذكر أسماء بعض مستوطنات قام الفينيقيون بتأسيسها من ذلك مثلا ما يورده الكاتب سلوستيوس عن تأسيس هؤلاء لهيبو (Hippo) وهدرميوم (Hadrumète = سوسة) وليده (Lepcis) ويضيف في شأن هذه الأخيرة أن ذلك تم من قبل سكان صيدا على إثر صراعات داخلية ويتعارض ذلك مع ما يذكره الشاعر سيليوس إيتاليكوس والكاتب بلينوس اللذان يذكران أن المدينة هي مستوطنة صورانية؛ وفيما تجمع كل الدراسات المعاصرة اليوم على القول أن مستوطنتي هدرميوم وليده توافقتان سوسة وليدة الكبرى (شرق طرابلس بين خليجي سرت الصغرى وسرت الكبرى) فإنه يجب أن نعترف بعجزنا عن تحديد موقع هيبو بدقة بسبب وجود مدينتين مستحتملان لاحقا نفس التسمية وهي هيبو ديريتوس (Hippo Diarrhytus) (بنزرت) وهيبو ريجيوس (Hippo Regius) (عنابة).

تصبح الشهادات الأدبية الكفيلة بإلقاء بعض الضوء عن الحضور الفينيقي في الجزر الوسطى من المتوسط أكثر ندرة ولا تقدّم كما هو الشأن بالنسبة لهدرمتوم ولبدة وهييو أية معلومات دقيقة من شأنها أن تساعدنا على تحديد بدايات الحضور الفينيقي بهذه الجزر ويقع عادة الالتجاء إلى مقتطفين شهيرين وردا لدى المؤرخين توفديداس وديودوروس الصقلي في معرض حديثه عن تاريخ صقلية قبل قدوم الإغريق إلى الجزيرة يشير المؤرخ الآثني إلى أن الفينيقيين قطنوا بكامل سواحلها وخاصة النقاط المتقدمة نحو البحر والجزر الصغيرة الموجودة على مقربة من الساحل بهدف المتاجرة مع السيكوليين (Les Sicules) ولكنهم اضطروا أمام زحف الإغريق إلى ترك معظم مواقعهم والتمركز في غرب الجزيرة في مواقع موتيي (Motyé) وسوليس (Soleis) وبنورموس (Panormos) ويفسر اختيارهم هذا بقرب المواقع الثلاث من الإيليم (Les Elymes) وأيضا بقصر المسافة بينها وبين قرطاج (للتذكير نشير إلى أن توفديداس يتعرض على امتداد الفقرات التي تسبق حديثه عن مقدم الفينيقيين للشعوب التي استوطنت الجزيرة منذ تواربخ متقدمة جدًا وهي شعوب السيكوليين (Les Sicules) والسيكانيين (Les Sicanes).

أما ديودوروس الصقلي فقد شدد على ثراء منطقة شبه الجزيرة الايبيرية بالمعادن وخاصة الفضة وتمكن الفينيقيين عن طريق المتاجرة مع السكان الأصليين من جمع ثروات طائلة سمحت لهم في مرحلة لاحقة بتدعيم قوتهم وتأسيس عديد المستوطنات سواء في صقلية والجزر المحاذية أو في لوبيا وسردينيا وإيبيريا.

وبالرغم من افتقار معظم مصادرنا للدقة بجوز لنا القول أنها تكاد تجمع على أن التوسع الفينيقي عملية بدأت منذ نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد على الأقل وسنعود إلى شهادات هؤلاء الكتاب عند تناولنا للجدل الذي أثارته التواريخ المتقدمة التي تقترحها.

بالإضافة لما تقدمه مصادرنا الكلاسيكية (الإغريقية واللاتينية) تتعرض العديد من أسفار التوراة إلى التوسع الفينيقي نحو بلاد ترشيش وتذكر المواد التي كان يتم جلبها وترويجها من قبل أساطيل ملك صور الشهير حرم وشريكه سليمان ملك بني إسرائيل وتتحدث هذه الأسفار عن وجهتين أساسيتين لهذه الرحلات: بلاد أوفير وبلاد ترشيش لكن جهلنا للمعنى الأصلي للفظ "ترشيش" ولد جدلا كبيرا بين الباحثين وقد زاد ورود الكلمة في مواضع متعددة بمعاني مختلفة في إضفاء هالة من الغموض على هذه القضية ذلك أنها وردت كتسمية في صيغة الجمع لنوع من السفن كما وردت أيضا كاسم علم ونجدها أخيرا كتسمية لنوع من الحجارة الكريمة.

يبقى السؤال الأهم الذي حاولت عديد الدراسات الإجابة عنه هو التالي: هل يمكن اعتبار بلاد ترشيش الواردة في التوراة هي نفس تارتسوس (Tartessos) الواردة لدى المصادر الكلاسيكية؟

حاولت الكثير من الدراسات تحديد موقع بلاد ترشيش جغرافيا وقدمت أجوبة متضاربة كالهند وأيوبيا وبلاد أتروريا (L'Etrurie) وقبرص ورودس وفرطاج وإسبانيا... وتمثل هذه الدراسات بالرغم من تضارب الأجوبة المقترحة تيارا واحدا في البحث سعي ويسعى جتى اليوم إلى محاولة تحديد الموقع الجغرافي لترشيش في مكان ما من المتوسط (أو خارجه) أما التيار الثاني فيضم مجموعة من الباحثين تتفق اصطلاحا على إطلاق نعت "ترتسية" على حضارة الأندلس إبان الحركة الملاحية الفينيقية. ونتجه الأبحاث اليوم أكثر فأكثر نحو القبول بفرضية أن ترشيش هي تسمية لمنطقة موجودة جنوب إسبانيا أطلقت عليها المصادر الإغريقية تسمية تارتسوس بحكم أن الكتاب القدامى أطلقوا بدورهم هذه التسمية أحيانا على أحد أنهار المنطقة وأحيانا أخرى على مدينة واحدة.

II - التوسع الفينيقي بالمتوسط الغربي من خلال المصادر الأثرية والنقائشية

إذا عكفنا على دراسة الوثائق الأثرية فإننا سنلاحظ دون صعوبة أن أغلب المواقع الفينيقية لم تقدم، إلا فيما ندر، مؤشرات مادية تتجاوز القرن الثامن قبل الميلاد في أفضل الحالات.

المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة الإيبيرية

سبق وأن بيّنا إجماع المصادر الأدبية على القول بأن المنطقة تزخر بمعادن كثيرة ومتنوعة جلبت إليها الفينيقيين منذ نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد إذ يعود تأسيس قادش حسب فليوس بتركولوس إلى حوالي سنة 1110 ق.م.

غير أن التواريخ التي تقدّمها المصادر الأثرية تظل متأخرة جدًا مقارنة بما أصطلح على تسميته اليوم بالتواريخ المتقدمة وقد أثبتت الحفريات اليوم وجود استغلال زراعي قديم في منطقة الوادي الكبير (Guadelquivir) وهو ما أقام الدليل على وجود حضارة زاهرة وقد دعمت اللقى الأثرية المكتشفة في قبور قرمونة (Carmona) غير بعيد عن إشبيلية (Séville) في اتجاه الشمال هذه الفكرة لكن هذه اللقى لا ترقى زمنيا إلا إلى حدود القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. وبغض النظر عن قضية التأريخ فإن ما يلفت الانتباه هو وضوح التأثيرات الفينيقية على حضارة هذه المنطقة.

بالنسبة إلى قادش نلاحظ أن موقعها يوافق المواقع التي يحبّها الفينيقيون عادة إذ تحتلّ وكما هو الحال بالنسبة إلى صور وموتبي جزيرة لا يفصلها عن الأرض سوى ممر مائي صغير وهي مواقع بقدر ما تؤمن لهم الحماية ضد الهجمات المفاجئة فإنها تظل مفتوحة على هذا العالم الذي ظلّ دائما قبلتهم وهو

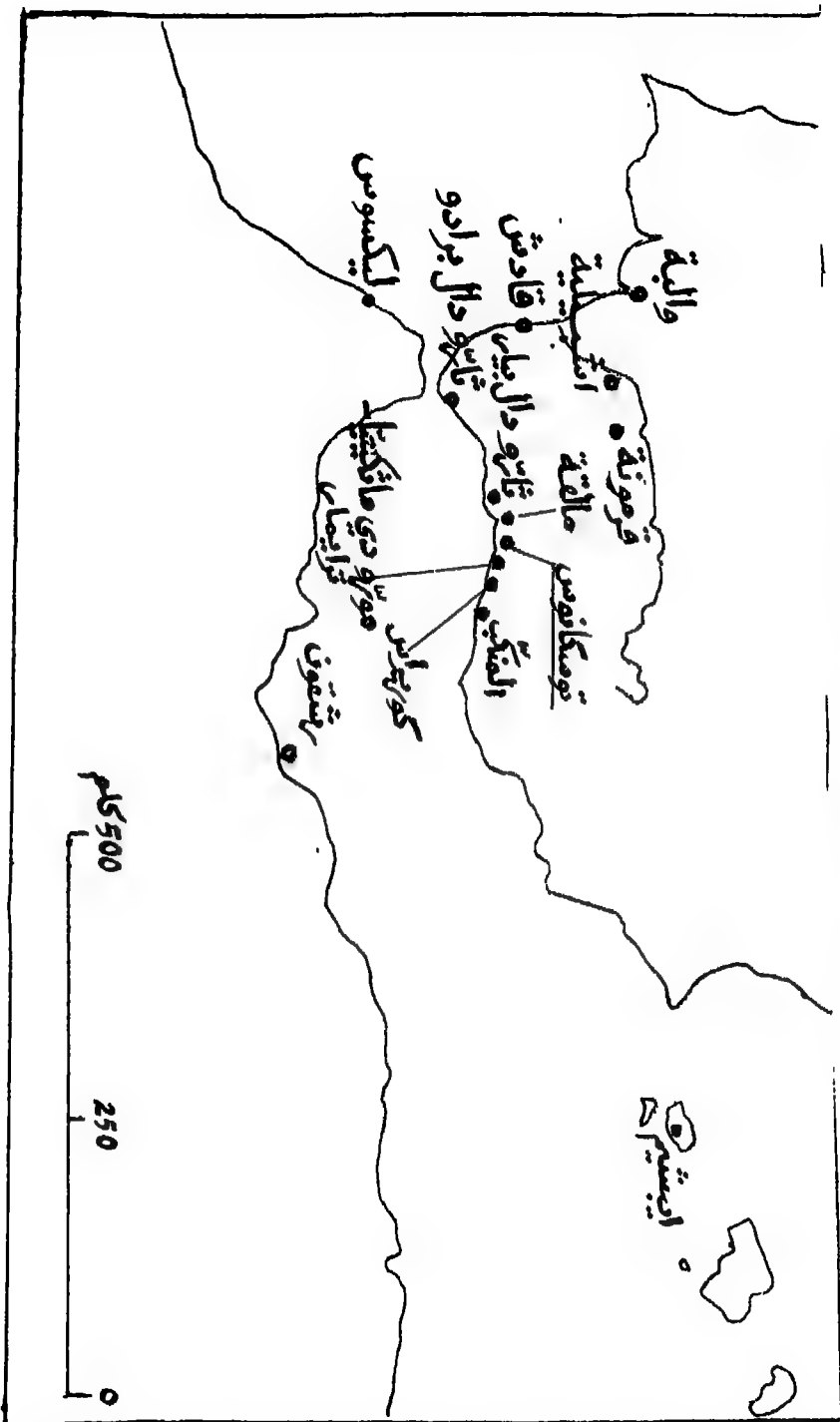
عالم البحر وبالرغم من شهرة هذا الموقع فإن الملف الأثري يظل هزيلًا بسبب تواصل الحضور البشري به على امتداد العصور وقد سمحت الحفريات بالكشف عن بعض اللقى ذات الطابع الشرقي في موقع قوادلاتي (Guadalete) المواحه لقادش وهي تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

كشفت الحفريات على الساحل المتوسطي لشبه الجزيرة عن وجود مقبرة اتبع مستعملوها طريقة حرق جثث موتاهم وذلك على مقربة من المنكب (Almunecar) وتعود أقدم قبور هذه الموقع إلى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد. في المقابل أمكن الكشف في موقع توكسانوس (Toscanos) الذي يوجد على مسافة ثلاثين كلم نحو الغرب عن شواهد تعود إلى أواسط القرن الثامن ويتعلق الأمر بمجموعة من الغرف حيث تتكتس كميات هامة من الجرار والأواني الفخارية ويرجح أنها لعبت دور المخازن لتسهيل عملية المبادلات.

أما في منطقة ترايمار (Trayamar) فإن تواريخ اللقى المكتشفة داخل القبور الفينيقيّة المبنية من الفوالب الكبيرة لا تتجاوز النصف الثاني من القرن السابع قبل الميلاد ويرقى إلى ما بعد ذلك موقع ثارو دال برادو (Cerro del Prado) الموجود في مقاطعة كاديكس (Cadix) (أواخر القرن السابع قبل الميلاد) فيما تعود بدايات استعمال المساكن المكتشفة في كوريراس (Chorreras) ومورو دي مائيكتيّا (Mezquitilla) إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

الواكر الفينيقيّة بإبيدريا

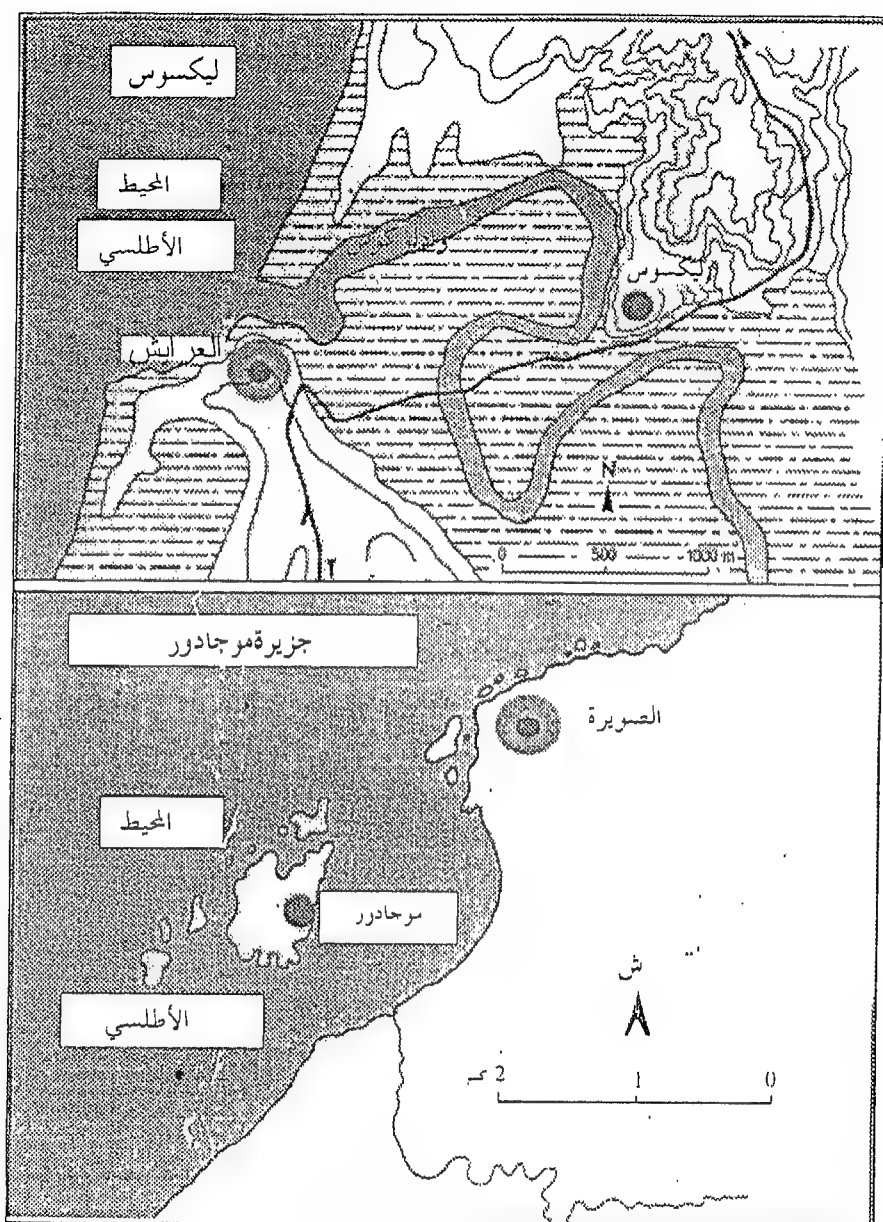
المصدر: GRAS (M), ROULLARD (P), TEIXIDOR (J), *L'antiquité phénicienne*, Paris 1989, p. 256.



إجمالاً يبرز هذا الجرد السريع تأخراً لا مجال للشك فيه للتواريخ التي يمكن استجلاؤها باعتماد الوثائق الأثرية مقارنة بما تقدمه مصادرنا الأدبية ولكن الحفريات ولئن لم تسمح حتى اليوم بالاقتراب من التواريخ المتقدمة فإنها تسمح الآن باستقراء بعض ملامح هذا الحضور الفينيقي على الأقل بداية من القرن الثامن قبل الميلاد إذ يمكن لنا اليوم القول أن استغلال المعادن يتنزل جغرافياً في جنوب غرب شبه الجزيرة الإيبيرية وبالتحديد على مستوى ظهير والبة (Huelva) وقادش (معدني الفضة والنحاس) وسيارا مورينا (Sierra Morena) وإشبيلية وسيارا المقريرا (رصاص وفضة) كما يرجح أن القصدير كان يبلغ المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة قادماً من جنوب منطقة البروطاني الفرنسية (La Bretagne) وانقلترا وجزر الكاستيريد (Les Cassitérides) وهكذا أمكن لتارتسوس إذن أن تلعب بالإضافة لدور المنتج دور الحلقة التجارية المحورية حيث تتجمع بها المعادن التي لا تنتجها المنطقة غير أن المواقع الفينيقية وكما سبق أن أوضحنا لم تقدم الدليل حتى الآن على وجود عمليات تحويل أو تصنيع لهذه المعادن ونتيجة لذلك نميل إلى افتراض أن الفينيقيين اهتموا بالأساس بالمناجزة بهذه المواد المعدنية دون التدخل في استخراجها فباختيارهم لقلادش ذات الموقع القريب من منطقة تارتسوس فإنهم أرادوا الجمع بين الاقتراب من المنتجين وفي الآن نفسه المحافظة على استقلاليتهم.

الساحل الأطلسي الإفريقي

تطرح قضية الاختلاف بين التواريخ التي نقدمها المصادر الأدبية وتلك التي تزودنا بها مصادرنا الأثرية كذلك وبكل أبعادها بالنسبة للمواقع الفينيقية الموجودة على الساحل الأطلسي الإفريقي إذ لا ترقى اللقى الأثرية المكتشفة بموقعي ليكسوس وتانجيس (Tingis) إلى ما هو أقدم من القرن السابع. وقد سمحت بعض الشققات الفخارية المكتشفة بموقع موجدور (Mogador) بالصعود إلى أواسط القرن السابع ويتعلق بشققات أتيكية (attiques) وأيونية (ioniennes) لا نجد نظيراً لها في قرطاج.



ليكسوس ومجادور

GRAS (M), ROUILLARD (P), TEIXIDOR (J), L'univers phénicien, Paris, المصدر

1989 p.264.

(ملاحظة قمنا بتعريب أسماء المواقع)

أوتیکا

خلافا لما كان عليه الأمر إلى نهاية العصر القديم يوجد موقع أوتیکا اليوم بعيدا عن ساحل البحر بسبب تراكم طمي واد مجردة في المصب. وقد خيب هذا الموقع آمال علماء الآثار الذي عولوا عليه لمحاولة حل قضية جذور التوسع الفينيقي ولكن الحفريات الأثرية وخاصة منها تلك التي أنجزها ب.سنتاس (P.Cintas) لم تكشف عن لقي تعود إلى ما قبل منتصف القرن الثامن.

سردينيا

تعود أقدم أثار الجزيرة إلى بداية الربع الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد وتم الكشف عنها في سلكيس (Sulcis) لكن معظم الدراسات اليوم تميل إلى الاعتقاد بأن الحضور الفينيقي على سواحل سردينيا بدأ قبل هذا التاريخ وذلك اعتمادا على نقشة نورا (Nora) الشهيرة والتي أثار تدورها جدلا مطولا.

يبلغ طول الحجر الذي نقش عليه النص اليوم 120صم تقريبا ويحوي 44 حرفا موزعا على ثمانية أسطر. وبالرغم من إجماع المختصين (إذا ما استثنينا الحرف الأول من السطر الثاني) على قراءة واحدة فإن معنى النص لا يزال موضع اختلاف بينهم ويعود ذلك بالدرجة الأولى إلى غياب رموز (أسطر عمودية صغيرة أو نقاط) تفصل بين الكلمات فتضاربت نتيجة لذلك التأويلات لكن ما يمكن الاحتفاظ به هو أن النقشة بإجماع كل الباحثين تخلد ذكرى قيام الفينيقيين ببناء معلم؟ وربما تعلق الأمر بمجرد نقشة للإله بومي (Poumay) وبالتالي فإن الفينيقيين حرصوا في كل الحالات على ترك أثر مادي يشهد على حضورهم.

إلى أي تاريخ يعود هذا النص النقائشي؟

تجدر الإشارة منذ الانطلاق إلى أن المقياس المعتمد من قبل المختصين في محاولاتهم تأريخ نقيشة نورا هو الباليوغرافيا وقد ساد الاعتقاد طويلا ومنذ سنة 1924 على إثر اهتمام الباحث الفرنسي ر.ديسو (R.Dussaud) بالإجابة عن هذا السؤال معتمدا مقارنة نصنا بنقيشة كيلاموا (Kilamua) التي تعود إلى سنة 825 ق.م أن نقيشة نورا تعود إلى أواخر القرن التاسع قبل الميلاد ولم يمنع هذا الرأي الشائع معارضة بعض المختصين الذين دافعوا عن فكرة إنزال تاريخها إلى القرن السادس وحتى القرن الخامس قبل الميلاد. ولكن نظرة متمعة في شكل بعض الأحرف وخاصة منها الألف والواو والتسادي والميم تدفع معظم المهتمين نحو القبول أكثر فأكثر بأن نقيشة نورا تعود إلى الفترة العتيقة خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار التشابه الكبير بينها وبين بعض النصوص اللقائشية المكتشفة في قبرص والتي تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

صقلية

نطرح قضية تأريخ بدايات الحضور الفينيقي في هذه الجزيرة أيضا بنفس المعطيات تقريبا ومرة أخرى تبدو الهوة الزمنية بين التواريخ الأدبية والتواريخ الأثرية واضحة باعتبار أن الدلائل المادية هنا أيضا لا تتجاوز القرن الثامن قبل الميلاد (شواهد فخارية في موقع موتي بأقصى غرب صقلية) إذا استثنينا تمثالا صغيرا من البرنز وقع العثور عليه في عرض مدينة سيلينونت (Sélinonte) وهو يعود إلى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد ويرتبط دون شك بمجموعة من التماثيل المشابهة اكتشفت في الشرق ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: هل تم نقل هذا التمثال إلى المنطقة عن طريق الفينيقيين وهل يحق لنا اعتبار هذا الاكتشاف دليلا ماديا جازما على قدم ارتيادهم لها؟ في الحقيقة لا يمكن القطع بأن هذا التمثال قد جلب من قبل الفينيقيين ذلك أننا إذا سلمنا بأن بدايات توسعاتهم نحو الغرب المتوسطي بدأت مع نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد فإنه

يجب علينا في هذه الحالة أن نجد إجابة مقنعة تفسر الفارق الزمني بين تاريخ صنع هذا التمثال (XIII-XIV ق.م) وفترة أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد يضاف إلى ذلك أنه من غير المستبعد أن يكون التجار الميسينيون (Les Mycéniens) هم الذين نقلوا التمثال إلى الجزيرة خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن توسعاتهم التجارية مست شرق المتوسط وغربه.

أخيرا لابد لنا من أن نثير اعتراضا أخيرا يكتسي طابعا منهجيا ذلك أن الحذر المعرفي يدفعنا إلى تجنب خطر بناء أحكام بالاعتماد على اكتشاف من هذا النوع إذ يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن التمثال البرنزي تمثال صغير الحجم يسهل نقله من مكان إلى آخر.

في المقابل تبدو لنا الحجج المعتمدة من قبل ل.ب.بريا (L.Bernabo Brea) أكثر تماسكا إذ أن هذا الباحث لاحظ أن حضارة صقلية العتيقة تستمد جذورها من تلاحق حصل بينها وبين حضارة كان مهدها في شرق المتوسط ويضرب على ذلك مجموعة من الأمثلة أهمها ما كشفت عنه بعض الحفريات من أباريق تتخذ شكل قوارير مكورة تزايد استعمالها خلال الفترة الممتدة بين القرنين XI و X ق.م. إضافة إلى مجموعة من الخواتم الحديدية تم الكشف عنها في مقابر مولينو دلا باديا (Mulino della Badia) وتعود بدورها إلى القرن العاشر قبل الميلاد وربما تكون قد جلبت من قبل الفينيقيين ويمكن أن نضيف أخيرا مجموعة من الجعلان والتمائم المصنوعة من عجين البلور عثر عليها في سرقوسة وميغارا (Megare) وكلتيجيرون (Caltigirone) ويرجح أن التجار الفينيقيين هم الذين تولوا ترويجها في الجزيرة.

في نفس هذا الإطار تمكن الباحث ف. توزا (V.Tusa) من استقراء بعض ملامح هذه التأثيرات الفينيقية في مواقع أخرى من صقلية كتابسوس (Thapsus) حيث اكتشفت مجموعة من القبور التي تتخذ شكل آبار جابية وتبدو التأثيرات الفينيقية واضحة عند التأمل في مجموعة من الأكواب المعدنية

المكتشفة في جيلا (Géla) وسان انجيلو موكسارو (San Angelo Muxaro) والتي تعود إلى هذه الفترة الأولى من الحضور الفينيقي وقد أطلقت عليها بعض الدراسات تسمية الفترة "ما قبل الاستعمارية" (Précoloniale) وتعكس هذه الاكتشافات وجود تجارة "مترفة" موجهة على ما يبدو نحو أقلية ثرية رأت وكما بين ذلك س.ف.بوندي (S.F.Bondi) في أملاك هذه النوعية من البضائع رمزا لوضع اجتماعي معين ومقياسا للتميز.

إجمالاً وعلى الرغم من الجهود المبذولة يظل الملف الأثري فيما يتعلق ببداية الحضور الفينيقي فقيراً بالنسبة إلى معظم إن لم نقل كل المناطق التي مسها هذا التوسع وهي ظاهرة اصطلاح على تسميتها بظاهرة "صمت الآثار" وهي التي دفعت ببعض الباحثين إلى إخضاع شهادات الكتاب القدامى إلى نقد متشدد انتهى بالبعض منهم إلى حد اعتبارها شهادات غير موثوق في صحتها بحكم أنها اعتمدت من وجهة نظر هؤلاء دائماً، منظومة تأريخ اعتباطية مستوحاة من مؤلف الكاتب الإغريقي تيمايوس الطاورميني والذي يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد ومن هذا المنطلق فإن تعدد الشهادات الأدبية لا يقيم الدليل على أن مصادرنا يدعم بعضها البعض بقدر ما يثبت وقوعها في التكرار ويمكن للمأمل في الدراسات الفينيقية البوندية أن يلحظ دون صعوبة أن البحث في هذه القضية اتبع ثلاث اتجاهات كبرى هي الآتية:

* اتجاه أول: يقبل بشهادات الكتاب القدامى ويثق بها ويعتبر أصحابه أن بدايات التوسع الفينيقي يمكن أن ترقى فعلاً إلى نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد مع تأسيس قادش سنة 1110 ق.م وأوتيكاً 1101 ق.م وبالتالي فهم يقرون بأسبقية التوسع الفينيقي زمنياً مقارنة بالتوسع الإغريقي.

* اتجاه ثان: اعتمد أصحابه أساساً وكما هو متوقع على معطيين أساسيين يتمثل الأول في حجة صمت الآثار وغياب الشواهد المادية التي تقيم الدليل على أن التوسعات الفينيقية بدأت قبل القرن الثامن قبل الميلاد أما المعطى

الثاني فيتمثل في رفضهم شهادات المصادر الأدبية بعد إخضاعها للنقد والتشكيك.

* اتجاه ثالث: برز على امتداد العشرين سنة الأخيرة تقريرا إذ حاولت مجموعة ثالثة من المؤرخين وعلماء الآثار أن تتحو منحى انبنى على محاولة التوفيق بين المعطيات الأدبية والمعطيات الأثرية. ويقر هؤلاء بأسبقية للتوسع الفينيقي بالمقارنة مع التوسع الإغريقي وبالتالي فهم يقبلون إجمالا بما يقدمه الكتاب القدامى ولكن ليس حرفيا كما أنهم يعترفون بغياب الأدلة المادية على الحضور الفينيقي قبل القرن الثامن بالنسبة لمعظم المواقع الفينيقية بغرب المتوسط ويدافع عدد من أنصار هذا التيار عن فكرة أساسية معادها أن توسعات الفينيقيين بدأت وكما هو الشأن بالنسبة للتوسعات الإغريقية بفترة استكشاف أو استطلاع يمكن تسميتها بفترة "ما قبل الإستيطان" وطبيعي أن لا يكون للمستوطنات الفينيقية خلال هذا الطور أي ظهور أو امتداد جغرافي وبالتالي فإن هذه المرحلة اقتضت على إقامة مجرد محطات صغيرة (مخازن) قام بتسييرها أعوان أو قضاة كانوا مرتبطين بالمدينة الأم وبديهي حسب أصحاب هذا الرأي أن حضورا على هذه الشاكلة لا يمكن أن يترك أثرا مادية ملموسة ويستشهد هؤلاء خاصة بلص توقيديداس للشهير وقد سبق أن تعرضنا له فالمؤرخ الأثيني يستعمل عند وصفه للحضور الفينيقي قبل قدوم الإغريق لفظة عامة تغطي معنى "ارتيلاد" و"حضور" وبالتالي فإنه لم يستعمل لفظة تؤدي معنى "احتل" أو "احتلال" بالرغم من وجود مثل هذه الألفاظ في لغته الإغريقية وفي نفس هذا الاتجاه يمكن أن نفهم العبارة الواردة لدى نفس الكاتب عند ذكره لمواطن تركز الفينيقيين إذ استعمل عبارة عامة "هنا وهناك" أي سلسلة من المحطات الساحلية المتناثرة على ساحل صقلية دون أي امتداد نحو دواخل الجزيرة وانطلاقا من هذا التحليل يخلص الباحث س. موسكاتي (S. Moscati) إلى القول بأن عملية المتاجرة لا تعني بالضرورة وجود مستوطنات خاصة إذا استعملنا لفظة "مستوطنة" بالمعنى الذي كان رائجا لدى الإغريق.

هذا التصور العام للتوسعات الفينيقية يبدو للوهلة الأولى تصورا منطقيا يمكن القبول به ولكن يجب أن نبدي في شأنه مجموعة من الملاحظات الهامة:

- الملاحظة الأولى هي أن مصطلحي "فترة ما قبل الإستيطان" و"فترة الإستيطان" أو الفترة الإستيطانية هي مصطلحات تنطبق بالدرجة الأولى على حركة التوسعات الإغريقية وبالتالي لسنا في مأمن من خطر إسقاط واقع حضارة أجنبية على واقع الحضارة الفينيقية.

- الملاحظة الثانية: وترتبط وثيق الارتباط بالملاحظة السابقة فلو قبلنا جدلا بهذا التصور فإن ذلك يفترض منا القبول بفكرة أن الفترة الاستطلاعية الأولى تمهد بالضرورة للفترة الثانية أي الفترة الإستيطانية ومن هنا بطرح السؤال الهام التالي هل أن الأمر يتعلق فعلا بحركة تمهد للإستيطان؟ ذلك أن الحركة الملاحية الفينيقية تواصلت حتى القرن السادس قبل الميلاد أي بعبارة أخرى حتى تواريخ يفترض أن تكون خلالها طبيعة المحطات الأولى قد تغيرت ويكفي للتدليل على ذلك التذكير بأن فرعون مصر نيكاو (Nécho) (610-595 قبل الميلاد) كلف البحارة الفينيقيين بالقيام بدورة استكشافية حول القارة الإفريقية فانطلقوا من البحر الأحمر قبل أن يعودوا - حسب رواية هيرودوت - بعد ثلاث سنوات عبر مضيق جبل طارق؟ وبالتالي يجوز لنا أن نعتبر أن "الإستيطان" و"الحركة الملاحية التجارية" ظاهرتان متوازيتان ونخلص للقول بالتالي أن هناك تمازج بين الظاهرتين لدى الفينيقيين.

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن لنا أن نفترض أنه بداية من القرن الثاني عشر قبل الميلاد توالى هجومات شعوب البحر على ساحل سوريا وفلسطين متسببة في تدمير عديد المراكز الموجودة على الساحل الفينيقي كأوجاريت وأرادوس (Arados شمال فينيقيا) وربما بيروت ويبدو أن صيدا عانت بدورها الكثير من هذه الهجومات كما نرجح أن مدينة جبيل (Byblos) فقدت تحت تأثير نفس هذا العامل زعامتها.

وضعت هذه الهجومات في الآن نفسه حدا للهيمنة المصرية على المدن الفينيقية وتبعت ذلك على ما يبدو فترة من الاضطراب والفوضى الداخلية ويمكن الإشارة إلى أن التوراة تعرض إلى الخلافات المتواصلة بين بني إسرائيل وجيرانهم. وتدعم الحفريات هذه الفرضية إذ تحطمت بعض المواقع كبيت لحم مثلاً في أربعة مناسبات خلال الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد.

غير بعيد عن الساحل الفينيقي عرفت جزيرة كريت (La Crète) حضارة لامعة سميت بالحضارة المينوية (La civilisation minoenne) اعتمدت المبادلات التجارية واستغلال أراضي الجزيرة الخصبة وطور الكريتيون منذ سنة 2000 ق.م. على الأقل حضارة أثرت في كامل حوض بحر ايجيه (La mer Egée) وتعتبر فترة القصور الأولى الممتدة بين سنتي 2000 و 1750 ق.م. تقريباً إحدى أزهى فترات هذه الحضارة ويبدو أن زلزالاً عنيفاً دك قصور هذه المرحلة الأولى فأعيد بناءها ثانية بداية من سنة 1700 ق.م. تقريباً وتقيم هذه المعالم الدليل بصورة لا تدع مجالاً للشك على درجة التطور الذي عرفته الحضارة المينوية خلال ما اصطلح على تسميته "بفترة القصور الثانية".

خلال هذه الفترة اجتاح الأخيون (Les Achéens) جزيرة كريت وتشبعوا بمقومات حضارة من قاموا بالسيطرة عليهم ويبدو أن الكريتيين قاموا بتهديب أذواق هؤلاء الغزاة وعلموهم مبادئ الملاحة والكتابة وترتب عن هذا التلاقح بين الحضارتين ما يعرف بالطور الثاني من الحضارة الميسينية في تاريخ بلاد الإغريق والممتدة من منتصف القرن الخامس عشر إلى مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد وتمكن الميسينيون خلال هذه الفترة من ربط علاقات تجارية بين الحوضين الشرقي والغربي للمتوسط ولكن هجومات الدوريين (Les Doriens) خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد جاءت لتضع حداً نهائياً لهذه الحضارة اللامعة وستترجع نتيجة لذلك اهتمامات بلاد الإغريق بالمبادلات البحرية.

استغلت مدينة صور هذه الظرفية لتتطلق في حركتها التوسعية ويبدو أن البحث عن المعادن هو الذي دفع بالصوريانيين نحو أقصى غرب المتوسط ولتوفير أفضل الظروف لحركتهم الملاحية اضطر الفينيقيون للبحث عن مواقع للإرساء على طول الخط الرابط بين الشرق وأقصى غرب المتوسط وقد ساعدهم على ذلك توفر مجموعة من الجزر تقع بين قارات أوروبا وآسيا وإفريقيا وتختصر مراحل الملاحة ونتيجة لكل ذلك مست التوسعات الفينيقية في الشرق خاصة قبرص (حضور دائم) وسواحل آسيا الصغرى وجزيرة كريت وجزر بحر إيجة (حضور تجاري) أما في الغرب فقد بلغت مالطة والجزر الصغرى المحاذية بالإضافة إلى صقلية وسردينيا وجزر الباليار وجنوب إسبانيا دون أن ننسى بالطبع السواحل الإفريقية حيث أسس الفينيقيون إحدى أهم مستوطناتهم التي ستلعب دورا استثنائيا في تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط ولقد عينا بالتأكيد قرطاج.

مصادر الفصل الثاني ومراجعته

من العسير جدًا الإحاطة بكل عناوين الدراسات التي تناولت مسألة التوسع الفينيقي من قريب أو من بعيد لذلك فضلنا أن نضع على ذمة القارئ ما يمكن أن نطلق عليه تسمية "اتجاهات بيبليوغرافية عامة" كفيلة بإحاطته عند الاقتضاء على مراجع أخرى أكثر تفصيلا كما نلفت انتباهه إلى أننا لم نأخذ بعين الاعتبار في هذا الجرد غير المسهب الإحالات المتعلقة بمسألة تأسيس قرطاج والتي نتعرض لها بالدرس في الفصل الموالي من هذا الكتاب.

1 - المصادر

كنا أشرنا على امتداد هذا الفصل إلى فقر المادة المصدرية الأدبية ولكن وبالرغم من ذلك بدا لنا من المفيد مدّ القارئ بأبرز الإحالات المعتمدة في دراسة تاريخ التوسّعات الفينيقية وهي

- VELLEIUS PATERCULUS. I, 2, 3 (قادش وأوثيكا)
- STRABON I; 3; 2 (المستوطنات الفينيقية باسبانيا)
- POMPONIIUS MELA III, 6 (المستوطنات الفينيقية باسبانيا)
- PLINII XIX, 4 (ليكسوس)
- PLINII XVI, 40 (أوثيكا)
- PSEUDO-ARISTOTE, *Sur les merveilles étendues* 134 (أوثيكا)
- FLAVIUS JOSEPHUS, *Antiquites Judaiques*, VIII, 13, 2 (أوزا)

- SALLUSTE, *Jugurtha*, XIX, 1 (لبدّة، هدرمتوم، لبدّة)
- SILIUS ITALICUS III, 256 (لبدّة)
- PLINE, V, 76 (لبدّة)
- THUCYDIDE, VI, 2,6 (موتبي، سولاييس، بنورموس)
- DIODORE V, 20 (المستوطنات الفينيقية في صقلية والجزر المحاذية..)
- (ترشيح)
- LA BIBLE (التوراة) *Ezechiel*, 27, 12, *Genèse*, 10, 4, I, *Chroniques* 1, 17, II *Chroniques* 9, 21

2 - المراجع

أ - مراجع تناولت قضية التوسع الفينيقي بصورة عامة

- * ALBRIGHT (W.F), « New light on the early history of phoenician colonisation », in, *Bulletin of the American schools of Oriental Research*, 83, (1941) pp. 17-22.
- * BONDI (S.F), « i Fenici in Occidente », in, *Forme di contatto e processi di trasformazione nelle società antiche - Atti del convegno di Cortona 24-30 maggio 1981 - Pisa - Roma* (1983) pp. 379-407.
- * BUNNENS (G), *L'expansion phénicienne en Méditerranée. Essai d'interprétation fondé sur une analyse des traditions littéraires*, Brux- Rome, 1979.
- * CARPENTER (R), « Phoenicians in the West », in, *American Journal of Archaeology*, 62, (1958) pp. 35-53.
- * CULICAN (W), « Aspects of Phoenicians settlement in the West Meditereanean », in, *Abr -Nahrain I*, (1959-1960) pp: 36-55.

- * GARBINI (G), « L'espansione fenicia nel Mediterraneo », in, *Culture e Scuola*, 7, (1963) pp. 92-97.
- « I Fenici in occidente », in, *Studi Etruschi*, XXXIV, (1966) pp. 111-117.
- * MOSCATI (S), « L'espansione fenicia nel Mediterraneo occidentale », in, *Phonizer im Westen* (H.G.Nimeyer editeur) Mayence (1982), pp. 5-12.

ب - حول التوسع الفينيقي بجنوب إسبانيا انظر مثلا

- * *La Revue de l'Institut Allemand de Madrid. Madrider Mitteilungen III* (1962) et suiv.
- * AUBET - SEMMLER (M.E), « Zur problematik des orientalisierenden horizontes an der Iberischen Halbinsel », in, *Phoenizer, im Westen* سابقا ذكر pp. 309-335
- * BLASQUEZ (J.M), *Tartissos y los origenes de la colonisaciones fenicia en Occidente*, Salamanca, 1975.
- * BEN ABED (F), « Les Phéniciens dans la péninsule iberique Une nouvelle lecture des données archéologiques », in, *Actes du III Congrès International des Etudes Phéniciennes et Puniques Tunis 11-16 nov 1991*, Tunis (1995) pp. 109-122 (avec une bibliographie très utile).

ت - حول المواقع الفينيقية بالمغرب الأقصى انظر

- * JODIN (A), *Mogador, comptoir phenicien du Maroc atlantique* Tanger, 1966.
- * PONISH (M), *Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger* (Etudes et travaux d'archéologie marocaine III) Tanger, 1967.

ث - حول أوتيكا

- * CINTAS (P), « Deux campagnes de fouilles à Utique », in, *Karthago II*, (1951) pp. 5-88.
- « Recherches à Utique », in, *Karthago*, V, (1954) pp. 87-161.

ج - حول صقلية انظر

- * BISI (A.M), « Fenici o Micenei in Sicilia nella seconda meta del II millenio à C? », in, *Atti e memorie del I congresso internazionale di Miscelanea*. Roma (1967) pp 1156-1168.
- * BONDI (S.F), « La sicilia fenicio - punica: il quadro storico et la documentazione archeologica », in, *Bolletino d'Arte*, 31-32 serie VI, (1985) pp. 13-33.
- * BREA (L.B), « Leggenda e archeologie nella protostoria siciliana », in, *Kokalos*, 10-11, (1964 -1965), pp. 1-33.
- * TAHAR (M), *Recherches sur les rapports entre Carthage et la Sicile punique*. Thèse 3ème cycle (dacty) Paris I, 1991 Tome I p. 25 et suiv.
- * TUSA (V), « La statuetta fenicia del Musco Nazionale di Palermo », in, *Rivista di Studi Fenici*, 1, (1973), pp. 173-179.
- « La presenza fenicio punica in Sicilia », in, *Phonizier im Westen* (ذكر سابقا) pp. 95-112.

ح - حول التوسع الفينيقي بـسـردينيا انظر

- * MOSCATI (S), « La penetrazione fenicia e punica in Sardegna », in, *Rendiconti all' Accademia Nazionale di Lincei, serie 8, XVII* (1966) pp. 215-250.
- « Fenici e Cartaginesi in Sardegna ». Milano, 1968.

- « Sulcis, colonia fenicia in Sardegna », in, *Rendiconti della Pontifica Accademia Romana di Archeologia*, 53-54 (1980-82), pp. 347-367.

خ - أسالت نقيشة نورا (سردينيا) الكثير من الحبر انظر مثلا

- * CIS, I, 144
- * DUPONT-SOMMER (A), « nouvelle lecture de l'inscription archaïque de Nora en Sardaigne (CIS, I, 144) », in, *CRAI*, (1948), pp. 12-22.
- * FÉVRIER (J.G), « l'inscription archaïque de Nora », in, *Revue d'Assyriologie et d'Archéologie orientale* 44, (1950) pp. 123-126.
- * FERROŃ (J), « la pierre inscrite de Nora », in, *Rivista degli Studi Orientale*, 41, (1966) pp. 281-288.
- * AMADASI (M.G.G), *le iscrizioni fenicie e puniche delle colonie in Occidente* - Roma, 1966 p. 83 et suiv.

د - حول قضية الفترة الاستعمارية والفترة ما قبل الاستعمارية انظر

- * BISI (A.M), « Modalità e aspetti degli scambi fra oriente e occidente fenicio », in, *momenti precoloniali nel mediterraneo antico. Atti del convegno internazionale. Roma 14-16 marzo 1985*. (1988), pp. 205-226.
- * BONDI (S.F), « Problemi della precolonizzazione fenicia nel mediterraneo centro-occidentale », in, *momenti precoloniali*. ذكر سابقا pp. 227-235.
- * MAZZA (F), « la « Precolonizzazione » fenicia, Problemi storici e questione metodologiche », in, *Momenti precoloniali*, ذكر سابقا pp. 191-203.
- * MOSCATI (S), « Precolonizzazione greca e precolonizzazione fenicia », in, *Rivista di Studi Fenici* 11, (1983), pp 1-7.

- « Tucidide e i Fenici », in, *Rivista, di Filologia e di Istruzione Classica*, 113 (1985), pp. 129-133.
- « I Fenici e il mondo mediterraneo al tempo di Omero », in, *Rivista di Studi Fenici*, XIII, (1985) pp. 179-189
- * TUSA (V), « la colonizzazione fenicia e le culture alleniche di Sicilia », in, *Momenti precoloniali* (ذكر سابقا) pp. 277-291.

ذ - حول التوسعات الميسينية انظر على سبيل المثال أعمال المؤتمرين

- * *Magna Grecia e mondo miceneo. Atti del XXII Convegno di Studi sulla Magna Grecia*. Tarente, 1982.
- * *Momenti precoloniali* (ذكر سابقا)
- GODART (L), « Minoici e Micanci: precolonizzatori e precolonizzati » pp. 43-57
- BRACCESI (L), « indizi per una frequentazione micenea dell' Adriatico » pp. 133-147.
- LEVÊQUE (P), « reflexions terminales sur la dynamique précoloniale » pp. 177-187.

الفصل الثالث

تأسيس قرطاج

يمثل تأسيس قرطاج حدثاً مركزياً في مجرى التوسع الفينيقي في غرب المتوسط. إذ تطورت هذه المدينة لتضطلع بدور هام في مستقبل الفينيقيين بالمنطقة، اعتباراً للمكانة الريادية التي اكتسبتها سياسياً واقتصادياً وعسكرياً تجاه بقية المراكز الفينيقية، ثم تجاه القوى التي ارتبطت بها أو نافستها على امتداد تاريخها وهي تباعاً: الأهالي الأفارقة والإغريق والأترسكيون والرومان والايبيريون فالممالك النوميديّة في ما بعد.

وقد تطوّرت قرطاج إلى مدينة - دولة ثم إلى عاصمة استقطبت مصالح فينيقي غرب المتوسط حيث تمكّنوا من تأصيل الظاهرة الحضارية البونية التي تمثل نتاجاً لإضافاتهم إلى مختلف شعوب محيطهم الجديد وتفاعلهم معها.

ولئن لم يكن تأسيس قرطاج في أواخر القرن التاسع ق.م (814 ق.م) حدثاً مستجداً حيث أن أولى المراكز الفينيقية المشار إليها في الفصل الثاني ترقى إلى أواخر القرن الثاني عشر ق.م. فإن قرطاج - خلافاً لسابقتها - انفردت بأهم الأدوار التاريخية لذلك تبدو في مظهر المركز الذي يختزل التاريخ البوني.

يتّضح أول تأكيد لهذه المكانة من خلال أفراد المصادر الإغريقية واللاتينية رواية متكاملة لتأسيس لقرطاج. وهي رواية تتجاوز في صيغها التاريخية والأدبية الإشارات المحدودة لتأسيس بقية المستوطنات الفينيقية مثل قادش وأوثيكا وتبدو أقرب إلى روايات تأسيس المدن - الدول الإغريقية أو رواية تأسيس روما.

وقد أثارت رواية تأسيس قرطاج تساؤلات عديدة وكانت منطلقاً لقرارات مختلفة، فقد وردت لدى المؤرخين الإغريق واللاتينيين متأثرة بعناصر روايات

تأسيس المدن المميزة للذهنية الإغريقية، ثم أضيفت عليها المصادر اللاتينية التاريخية والشعرية الملحمية إسقاطات واستعارات متأثرة بتبعات الصراع القرطاجي الروماني. ولمجمل هذه الاعتبارات فإن قراءة مختلف أوجه الروايات لابد أن تنفذ إلى العناصر اللغوية والرمزية وتبحث في دلالاتها من خلال مقارنة نقدية شاملة تتجاوز المراجعة التاريخية ذلك أن العديد من جوانب الرواية يتجاوز الإثبات التاريخي وبفينا من الناحية الرمزية.

أما التساؤل الثاني الذي أثاره تأسيس قرطاج، فيتجاوز الرواية المشار إليها ويبحث في عناصر تفسيرية إضافية اعتمادا على خصائص الإطار التاريخي والظرفية التي سادت بفينيقيا وشرق المتوسط خلال القرن التاسع قبل الميلاد. وهي ظرفية أدت إلى تأسيس قرطاج كمستوطنة ذات نوع خاص من حيث موقعها والدور الموكول إليها. ومن أبعاد ذلك البحث في فرضية التأسيس المعدّ له في صور والمبرمج في أعلى مستوى على عكس ما تنصّ عليه بعض الروايات من طابع عرضي.

وفضلا عن تحليل الرواية والإطار التاريخي لنشأة قرطاج فقد مثّلت المقاربة الأثرية رافدا أساسيا في بلورة تصوّر متكامل للمسألة، إذ مكنت عمليات سبر ودراسة الأحياء العتيقة للمدينة من الملاءمة بين تأريخ أقدم اللقى الأثرية والروايات التي ترجع تأسيس قرطاج إلى أواخر القرن التاسع ق.م (814 ق.م) فاستبعدت بذلك الروايات التي تقترح تاريخا متقدما يعود إلى أواخر الألف الثانية بقدر ما استبعدت النزعات النقدية المعاصرة التي أرجعت تاريخ التأسيس إلى أواسط القرن السابع ق.م.

يمكن دراسة تأسيس قرطاج اعتمادا على المحاور المعنوية أي المصادر الأدبية التي قمت رواية متكاملة لنشأة المدينة أو المدينة الحديثة (قوت حشمت) ثم البحث في عناصر التفسير الإضافية من خلال الإطار التاريخي في الشرق الفينيقي والمتوسط واستنتاجات البحث الأثرى في موقع قرطاج.

1 - تأسيس قرطاج : الروايات التاريخية

يتمثل القاسم المشترك بين روايات تأسيس قرطاج في طابعها المتأخر بالنسبة إلى تاريخ نشأة المدينة المتفق حوله أي سنة 814 ق.م، فأقدم مصادرنا مؤرخة بالقرنين الرابع و الثالث ق.م. وتواصل تواترها في الكتابات الإغريقية واللاتينية بعد سقوط قرطاج سنة 146 ق.م من ذلك النصوص المتكاملة التي دونت أو نقلت خلال القرنين الأول والثاني م. عن مؤلفين سابقين.

إن تواتر معطيات رواية التأسيس يفترض بالضرورة بعض الاختلافات بينها بسبب الإضافات وأحيانا أخطاء النسخ. ومن أوجه الاختلاف أساس التاريخ المعتمد وهو الذي دفع بيار سنّاس (P.Cintas) إلى اعتباره مقياساً لتصنيف المصادر. فبوّبها إلى ثلاث مجموعات : الأولى هي تلك التي تعتمد تاريخاً ثابتاً وهو سقوط قرطاج في ربيع 146 ق.م. وتحدّد وفقاً لذلك المدة التي عاشتها المدينة. ويكفي إضافة المدة المقترحة لتاريخ سقوط المدينة لضبط تاريخ نشأتها.

ومن ذلك مثلاً تيتيوس لويوس الذي يفترض أن المدة التي عاشتها قرطاج هي 700 سنة ويرجع ضمناً تأسيسها إلى 846. أما وليوس باتركولوس (Velleius Paterculus) فيقترح 667 سنة للمدة التي شغلها تاريخ قرطاج مما يجعل تأسيسها في حدود 813 ق.م. ونجد ضمن هذا التقليد كلاً من قيرو (Cicéron) وأبيانوس الاسكندري وسولينوس (Julius Solinus).

أمّا القسم الثاني فيقوم على تقدير أسبقية تأسيس قرطاج على تاريخ تأسيس روما المثبت وفقاً لتقويم وارو (T.Varron) أي سنة 753 ق.م. فبالنسبة لوليوس باتركولوس سبق تأسيس قرطاج نشأة روما بـ 65 سنة أي أنه حصل سنة 818 ق.م.

أمّا يوستينيوس فيقرّر بوجود فارق 72 سنة بين تأسيس المدينتين وهو ما يعني نشأة قرطاج سنة 825 ق.م.

نجد مجموعة ثالثة من المصادر التي تعتمد تاريخ الألعاب الأولمبية الأولى 776 ق.م. وأقدمها نصّ تيميبوس الطاورمني عن دونيس أصيل هاليكارناس (Denys d'Halicarnasse) في مؤلفه "التاريخ الروماني" (I، 74) الذي يؤرخ تأسيس قرطاج بالسنة 38 قبل الألعاب الأولمبية الأولى وهو ما يوافق سنة 814 ق.م.

ولجد نفس التاريخ ولو بفارق سنة واحدة واعتمادا على نفس المقياس - أي الألعاب الأولمبية - لدى كل من قيقرو (Cicero) وأرسطو - المنحول (Pseudo-Aristote)

تعود أقدم الروايات إلى ما بقي من كتابات المؤرخ الإغريقي تيميبوس أصيل طاورمينا المستوطنة الإغريقية التي أسسها والده أندروماكوس بشرق صقلية وقد عاش بين 340 و 250 ق.م. فقد ألّف تاريخا لغرب المتوسط في 38 كتابا قدم له بدراسة جغرافية وأثنوغرافية في الكتب الخمسة الأولى واهتم بتاريخ المنطقة من البدايات حتى أوائل القرن الثالث ق.م. اعتبر أول من أرّخ من بين الإغريق لغرب المتوسط وقد انتبه إلى الأهمية المتزايدة لروما واهتم أيضا بتاريخ قرطاج التي كانت على صلة بإغريق صقلية فتيسّر لتيميبوس استقاء روايات من القرطاجيين المتمركزين عرب الجزيرة. وكتب مؤلفه أ أو قسما منه على الأقل في أثينا إذ غادر صقلية لما تولّى أغانكلاس (Agathocles) الحكم في سرقوسة سنة 317 ق.م. وعاد إليها في فترة هيرون الثاني (Hieron II) أي بعد سنة 269 ق.م. بسبب مناهضته للحكم الاستبدادي المعروف بحكم الطغاة (La Tyrannie) ومن المرجّح أن الإقامة الطويلة لتيميبوس بأثينا مكنته من الاطلاع على روايات شرقية تهتم أصول القرطاجيين وتأسيس قرطاج. ورغم اندثار كتاباته فإن ما بقي منها وتحديدًا المقتطف 23 من الجزء الأول من "مقتطفات التاريخ الإغريقي" التي نشرها مولار (Müller) تمدّنا بملخص واضح عن تأسيس قرطاج أنجزه ناسخ مجهول ونورد في ما يلي

أهم عناصره. "يقول تيمايوس أن ثيوسو (Theiosso) تسمى في لغة الفينيقيين عليسة (Elissa) هي شقيقة بيغماليون (Pygmalion) ملك صور وهي التي أسست قرطاج في لوبيا (Libye) ذلك أن زوجها قُتل بايعاز من بيغماليون فجمعت أمتعتها على سفينة وهربت بمعية البعض من مواطنيها وأرست في لوبيا بعد مصاعب عديدة وأطلق عليها الأهلالي هناك اسم ديدو (Dido) بسبب كثرة ترحالها. وبعد أن أسست المدينة رغب ملك اللوبيين في الزواج منها فرفضت طلبه ولما حاول مواطنوها إقناعها بالأمر، تظاهرت بإجراء احتفال يخلصها من عهودها (تجاه زوجها) فأقامت محرقة كبيرة قرب مسكنها ومنه أُلقت بنفسها في النار".

تكمّن قيمة هذه الرواية في انفتاح مؤلفها على مصادر أو روايات قرطاجية، فرواية تيمايوس تمثل باعتبارها أقدم الروايات المصدر الرئيسي للكتابات اللاحقة. فقد ذكرت هذه الرواية في صيغة إحالة مباشرة على تيمايوس لدى دونيس أصيل هاليكارناس (Denys d'Halicarnasse) وهو خطيب ومؤرخ إغريقي أقام بروما ابتداء من سنة 30 ق.م. في مؤلفه حول الأزمنة الأولى من تاريخ روما. كما نجد عناصرها الرئيسية في أهم الروايات اللاتينية. قبل استعراض هذه الروايات نتناول مصدرا ينتمي إلى التقاليد الشرقي القريب من المصادر الفينيقية المفترضة ويمثله فلافيوس جوزاف (Flavius Josephus) وهو مؤرخ يهودي عاش خلال القرن الأول م. (37-93م) وكتب "التاريخ اليهودي" (*Antiquitates Judaicae*) منذ البدايات حتى سنة 63م معتبرا فيه بعلاقة الممالك اليهودية بالمدن - الدول الفينيقية وتحديدا صور نظرا إلى أهمية علاقتها بمملكة سليمان فتدرج في استعراض تاريخها مشيرا في ثانيا ذلك إلى ظروف خروج مؤسسي قرطاج.

أما في كتابة "ضدّ آبيون *Contra Apionem*" فقد جادل آبيون المفكر الإغريقي الإسكندري الذي عبّر عن موقف نقدي إزاء الديانة والعادات اليهودية. استعرض في الجزء الأول (I، 18، 125-126) تاريخ تأسيس قرطاج ممهدا لذلك

بذكر مصدره المؤرخ الإغريقي ميناندروس الإيفيزي (Ménandre d'Ephèse) الذي عاش خلال القرن الثاني ق.م ويذكر أنه اجتهد في استقاء معلوماته المرتبطة بالأحداث التي جرت لدى الإغريق وغيرهم من الحوليات الخاصة بكل شعب". فمرجعه في تأسيس قرطاج هو حوليات صور ويتضح هذا التدقيق الوثائقي في روايته كما يلي: "خلف بيفماليون (Pygmalion) متان (Mettên)، وعاش ستاً وخمسين سنة وتولى الحكم طوال سبع وأربعين سنة، وفي السنة السابعة من حكمه هربت شقيقته لتؤسس مدينة قرطاج في لوبيا (Libye) وهكذا فإن الزمان الفاصل بين حكم حرم (Hirôm) وتأسيس قرطاج يساوي مائة وخمسا وخمسين سنة وثمانية أشهر، وفي السنة الثانية عشرة من حكمه شيد معبد سليمان وبين بناء المعبد وتأسيس قرطاج انقضت مائة وثلاث وأربعون سنة وثمانية أشهر".

تكمن القيمة الاستثنائية لهذه الرواية في تدوين ميناندروس الإيفيزي لحوليات قائمة على الأرشييف الفينيقي الذي أمكنه الاطلاع عليه وضبط قائمة الملوك ومدة حكمهم ومنهم حرم ملك صور الذي تزامن حكمه مع حكم سليمان (970-931 ق.م).

وإذا استثنينا ما يحفّ من شكوك بمصدر هذه الرواية فإنّها تتفق في حيثياتها مع ما أورده تيمايوس الطاورميني مع الملاحظ أننا نفتقر لمؤلف المؤرخ الإغريقي ميناندروس الإيفيزي. لذلك لم يستبعد النقد المعاصر أن يكون فلافيوس جوزاف ملماً برواية تيمايوس ولم يأخذ عن ميناندروس سوى جدول حوليات صور.

ومما يدعم هذا الموقف زيارة المؤرخ اليهودي لروما قبل سنة 66م ثم إقامته بها وحصوله على المواطنة الرومانية بعد سقوط أورشليم سنة 70م. فقبل تدوين آخر مؤلفاته ضد آبيون كانت رواية تيمايوس شائعة في الأوساط الرومانية سواء في الكتابات التاريخية وخاصة بفضل أشعار ورجيليوس (Publius Virgilius Maro 70-19 ق.م) الذي أسهم نصه الشعري "ملحمة أينيّس" أو "الأينيّس" (L'Eneide/Aeneis) في إشاعة الرواية. فالأمر يتعلّق بملحمة

تأسس روما والرجوع إلى أصولها الطروادية فالبطل الملحمي أينياس Aeneas الذي هجر طروادة إثر سقوطها، أرسى بعد رحلة طويلة بإيطاليا حيث أسس مدينة لافينيوم (Lavinium) ثم أسس ابنه أسكانيوس (Asagne) ويسمى أيضا إيليوس (Iule) مدينة ألبا (Albe) ونجد في قائمة حكامها الملك نوميثور (Numitor) جد رومولوس وريموس من ابنته إليا (Ilia) المسماة أيضا رياسلفيا (Rhéa - Silvia). وهكذا تنسب الأسطورة تأسيس روما إلى سلالة أينياس والطروانيين واعتبرت ملحمة ورجيليوس تنمّة للإلياذة والأوديسة. ووجب التذكير أن دراسة هذا الأثر تستند إلى تحقيق وتعليق سرويوس (Servius Maurus Honoratus) (النصف الثاني من القرن الرابع - بداية القرون الخامس م). واهتم في عمله "حول الأينيس" بالجوانب النحوية والأسلوبية مع صياغة ملاحظات وإضافات قيمة.

خصّص ورجيليوس الأناشيد الأربعة الأولى من الكتاب الرابع لإرساء الطروانيين بقرطاج ولقاء أينياس وديدو (Dido) وأهم في النشيد الأول (الأبيات 369-335) بنشأة المدينة وحيازة المجال الذي أقيمت عليه عن طريق الحيلة المعروفة بقصة "جدل الثور".

ونبرز فيما يلي ملخص إرساء الطروانيين وتفاعلاته بقرطاج:

دفعت العاصفة رجال طروادة نحو ساحل لوبيا لما كانوا مبحرين من صقلية إلى إيطاليا، وبعد أن تولى أينياس إخفاء سفنه، خرج بجوب الأرض التي حلوا بها فلقبته أمّه فينوس (Venus) منتكرة وأخبرته أن المدينة القريبة هي مدينة صورانية وأن ديدو (عليسة) ملكتها قدمت هربا من سوء عمل أخيها ثم روت له أهم أطوار قصتها: "كان سيكيوس (Sichaeus) زوج الملكة ديدو من أغنى رجال فينيقيا وكان له أخ اسمه بيقماليون وهو ملك البلاد. ولما نشب بينهما خلاف أخذ بيقماليون أخاه على غرة وهو يقتم الضحية عند المذبح وفتك به ثم أخفى الأمر عدة أيام عن ديدو وخادعها بالآمال فتمثل لها زوجها في الحلم وطلب إليها أن تسرع بالهرب... أعدت عدتها وساندها جمع من خصوم

الملك واستولوا على سفن كانت مهيأة وحملوها بالذهب وكان فيها كنز بيقماليون ذاته وخرجوا هاربين يقطعون البحر ثم حلّوا بهذا المكان الذي ترى منه أسوار قرطاج وقلعتها واشتروا من الأرض ما قدروا على مسحه وإحاطته بسيور من جلد ثور لذلك سميت بيرصا...".

ثم يروي إينيّاس قصّة تبيّه قبل أن ينبّه أن محتنته هي أمّه التي لفتته بضباب يحميه هو وصحبه لما اتّجهوا إلى أسوار المدينة يعاينون أشغال البناء والمعالم التي شيدت... ثم يحلّ بالمدينة جمع من الطرواديين الذين فرقهم الزوابع عن إينيّاس ويمثلون أمام ديدو يطلبون الحماية والعون ويقصّون ما حلّ بهم فأفصحت في ردّها عن معرفتها بطروادة منمّنة الخصال الحربية لرجالها واستعدادها لتيسير إبحارهم إلى إيطاليا وقبولها إقامتهم بالمدينة التي هي بصدد بنائها ووعدت بالبحث عن ملكهم في كامل أرجاء لوبيا... عندئذ ينقشع الضباب على إينيّاس وينقّم للملكة بالثناء على ردّها المطمئن. وهكذا يستأثر الكتاب الرابع من الملحمة بقصة الحب التي جمعتها والتي أثارت ردّ فعل هيارباس وتخلّ الإله الأكبر يوبتير (Jupiter) الذي بعث برسوله مركوريوس (Mercurius) لينكّر إينيّاس بوجهته الأصلية فيأمر إينيّاس بإعلام ديدو أن أمر الأرباب أتاه بوجوب السعي إلى إيطاليا. وقد أفضى رحيل الطرواديين إلى انتحار ديدو الذي احتفظ فيه الشاعر اللاتيني بمشهد المحرقة كما ورد في رواية تيمايوس مضيفا أنّها طعنّت نفسها بسيف إينيّاس وقتمت قبل ذلك قربانا لإحراق صورة رجل طروادة...

نلاحظ تطويعا شعريا لعناصر الرواية التاريخية والعودة بنشأة قرطاج إلى العصر الملحمي قبيل سقوط طروادة وهو ما ذهب إليه قبل ورجيليوس كلّ من فلستوس السرقوسي (Philistos de Syracuse) (409-356 ق.م) وأودكسوس الكنيدي (Eudoxe de Cnide) (435-356 ق.م) ثمّ بعدهما آبيانوس الإسكندري (القرن الثاني م).

ساهمت الملحمة في إشاعة التصور الشعري لتأسيس قرطاج في أوساط المتعلمين إذ كانت مبرمجة ضمن المؤلفات التربوية في المدارس

الرّومانية ومثلت خلال العصور القديمة والقرون الوسطى أكثر الكتب "الوثنية" تداولاً في العالم اللاتيني.

ومما يذكر أنّ الإمبراطور أغسطس أمر بنشرها بعد وفاة مؤلفها وقد تزامن هذا القرار مع إعادة بناء قرطاج الرّومانية. وتفسّر الظرفية التاريخية إعادة صياغة الرواية بعناصر أسطورية جديدة أثرت في التصورات الأدبية والفنية لمحو ديدو (عليسة) أكثر من تأثيرها في الكتابات التاريخية. ففي أوائل القرن الأوّل ميلادي دون تروغوس بومبيوس (Troque Pompée) التاريخ العالمي أو الفليبّي (*Historiae Philippicae*) في 44 كتاباً وأهتمّ فيه بممالك الشرق القديم وفليبوس الثاني المقدوني. وقد وصلنا هذا المصدر في صيغة ملخّص أنجزه يوستينوس (M.J.Justinus) وهو مؤرخ لاتيني يرجح أنه عاصر الأباطرة الأنطونيين (القرن الثاني م).

أفرد يوستينوس قسماً من الكتاب الثامن عشرة لتأسيس قرطاج وكامل الكتاب التاسع عشر لتاريخ قرطاج. ويُجمع النقد المعاصر على مصدر معلوماته التي نهم قرطاج وهو المؤرخ الإغريقي نيمايوس، فمهما كانت الإضافات أو المصادر الأخرى التي اعتمدها فإن هذا الملخّص يحتوي على النص الأكثر اكتمالاً وتجانساً لتأسيس قرطاج ويمكن تلخيص عناصره في تتابعها في المصدر المذكور (XVIII، 4-6) كما يلي:

- تولّى بيقماليون السلطة في صور وزواج شقيقته عليسة من أكرباس (Acerbas) كاهن معبد هرقل (ملقرط).

- إيعاز الملك بيقماليون بقتل أكرباس بهدف الاستيلاء على ثروات المعبد.

- قاومت عليسة شقيقها بالحيلة وأوهمته برغبتها في الانتقال إلى قصره فأوفد مبعوثين لتيسير ذلك. وكانت عليسة قد أعدت هجرتها سرّاً فدعمها والتحق بها العديد من الشيوخ واتجهت مبحرة نحو الغرب.

- أُرست حملتها بقبرص حيث أقتبلها كاهن معبد يونو - (عشرت) وعرض عليها الانضمام إلى رحلتها ومشاركة مصيرها على أن تبقى كهانة المعبد متوارثة في عائلته، ثم دعمت عليسة حملتها باختطاف ثمانين فتاة قبرصية.
- أُرست الحملة على سواحل إفريقيا ورأى الأهالي في قدوم الوافدين فرصة للتبادل.
- اشترت عليسة مساحة بحجم جلد ثور وتمكنت بقطعه في شكل خيط دقيق من حيازة مساحة أوسع سميت لذلك بيرصا.
- قدوم سكان المناطق المجاورة للتبادل بحثا عن الربح ممّا دعم المستوطنة التي تحولت إلى مدينة - دولة (Civitas).
- قدم ممثلون عن أوتيكا وحثوا الوافدين على تأسيس مدينة في الموقع الذي أرسوا به.
- رغبة الأفارقة في بقاء هؤلاء الأجانب وباتفاق الجميع أسست قرطاج مقابل ضريبة سنوية تدفع لقاء الأرض التي قامت عليها.
- عثر عند حفر أسس المدينة على رأس ثور وهو ما ينبئ بأرض خصبة لكن صعبة الاستغلال، ورأوا فيها استعبادا دائما فحفروا في موضع آخر حيث كشف عن رأس حصان وهو رمز للأهمية والقوة ولتأمين المدينة الجديدة.
- تدعم المدينة وامتدادها بفضل قدوم عدد هام من السكان الجدد.
- كانت قرطاج غنية وقوية لما طلب هيارباس (Hiarbas) ملك الماكسيتاني (Maxitani) الزواج من عليسة مهددا بالحرب في حالة الرفض.
- استعادت عليسة طويلا ذكرى زوجها أكرباس ووعدت بالذهاب إلى حيث يدعوها قدر قرطاج وأقامت محرقة قدمت فيها ضحايا عديدين ثم ألقت بنفسها في النار.

- ألّهت عليسة وخصّت بطقوس الآلهة على امتداد تاريخ قرطاج التي أسست 72 سنة قبل روما.

مثّلت الروايات الثلاث المذكورة للرصيد الأدبي الكلاسيكي لتأسيس قرطاج وكانت منطلقا لقراءات وتأويلات مختلفة سنحاول في ما يلي إبراز أهم خصائصها.

2 - روايات تأسيس قرطاج: خصائصها وتأويلاتها

استعرضنا العناصر المميّزة لروايات تأسيس قرطاج في الأدب الكلاسيكي وتحديدًا تلك التي تسمح باستقراء شامل للمسألة بناء على تكاملها وتأثيرها في الكتابات اللاحقة وهي عديدة، فصدى تأسيس قرطاج- أو على الأقل صدّى عليسة - ديدو- تواصل في المؤلفات المسيحية خلال العهد الإمبراطوري المتأخّر وخلال العصر الوسيط لدى المؤرّخين والشعراء وكتاب الأساطير. والثابت أنّ الكتاب الرابع من ملحمة أينيّاس كان له عميق الأثر في إشاعة هذا المحور إذ تحوّل بصفة مبكّرة إلى رصيد مشترك لكلّ المتعلمين. وقد أشار الشاعر اللاتيني أوفيدوس (43 ق.م - 17م) (P. Ovidius Naso) أنّ التّعرض شعرا لديدو أكثر ما انتشر من مجمل كتابات ورجيليوس. ويؤكد القديس أوغسطينوس بعد أربعة قرون نفس الملاحظة مشيرا إلى تأثير قصّة ديدو- أينيّاس في نفسه خلال المرحلة الأولى من تكوينه التعليمي.

أما معاصره نيودوزيوس مكروبيوس (A. Theodosius Macrobius) الذي كان يواكب حلقات كبار المفكرين بروما فحاول تفسير هذه الظاهرة في محاوراته (*Les Saturnales*) مشددا على أنّ ورجيليوس نهل من أبولونيوس (215-295 ق.م) (Apollonios de Rhodes) فأسقط حبّ ميديا (Médée) لجازون (Jason) على ديدو في هيامها بأينيّاس إلّا أنّه تجاوز مصدره ببراعة أسلوبه فأكسب أسطورة حبّ ديدو التي يتفق الجميع على لا تاريخيتها طابع الحقيقة لمدة قرون وتناقلتها الألسن بسرعة حتى أنّ الرّسامين والنّحاتين يجسمون

هذا الموضوع كما لو أن نماذج الزينة انعدمت، فضلا عن اقتباساتها المسرحية، إن جمالية الرواية لها من القوة ما يجعل كلاً ممّا يقبل الأسطورة ويفضل الاحتفاء بصدق المتخيل الذي ينفذ إلى الأنفس عبر سحر الخيال الشعري.

أدى اختزال الرواية في شخص المؤسسة علية إلى استعمال النعت الشعري إليسيوس (نسبة لعليسة = *elisseus*) كمراف لقرطاجي أو بونيّ (*carthaginiensis - punicus*) وهو ما نلاحظه لدى أبولوناريس سيدونيوس (487-430م) (*Apollonaris Sidonius*) على غرار استعمال نعت روموليوس (*romuleus*) للدلالة على روماني (*romanus*).

وهكذا فإن المكونات التاريخية للرواية، كما تبدو في نصوص ثيمايوس وفلافيوس جوزاف ويوستينوس، لا تمثل معطى ثابتا في المصادر اللاحقة لذلك اكتسبت بعض عناصرها وخاصة علية استقلالية بالنسبة للإطار التاريخي.

فما هي إذن سبل ومناهج تحليل الرواية؟

تدرج تحليل الرواية من القراءة التاريخية والمقارنة مع روايات تأسيس المدن والمستوطنات الإغريقية وروما إلى الاستفادة في السنوات الأخيرة من نتائج التحليل اللغوي - السيميولوجي أي محاولة استقصاء الإحياءات المضمّنة في المصطلحات والرموز المستعملة في المصادر الإغريقية واللاتينية ومدى صلتها ببنيتها الأصلية. وسنحاول اعتماد مختلف هذه التوجهات في تأويل عناصر الرواية.

تتفق مجمل المصادر الرئيسية حول السبب المباشر لخروج أو هروب علية من صور وهو مقتل زوجها أكرباس (*Acherbas*) (سيكيوس *Sichaeus* لدى ورجيليوس) بإيعاز من شقيقها بيقماليون. ويتمثل الإحياء الأولي لهذا الحدث الترامي في توفير تبرير لقطيعة نهائية. ويحتل هذا البعد مكانة بارزة في المرجعية الإغريقية - اللاتينية، فالرويا التي أكلت لرومولوس (*Ro mulus*)

الملكية وتأسيس روما لم تكن كافية وبدأت النشأة الفعلية للمدينة بعد مقتل شقيقه ريموس (Remus).

وتتخذ القطيعة عند الإغريق طابع صراع اجتماعي يخلق حول المؤسس (L'oïkiste) مجموعة من المساندين لمشروعه. فسألوستيوس مثلاً يقتّم في روايته الوجيزة لنشأة لبدة نفس المبرّر فقد "أسّسها صوريانيون طردوا من وطنهم بسبب اضطرابات اجتماعية".

حاول خ. ألبار J.Alvar وك. فغنار C.Wagner إيجاد تفسير تاريخي لهذا الجزء من الرواية، فانطلقا من فرضية استفادة الملكية والأرستقراطية التقليدية في المدن الفينيقية من النشاط التجاري لكن هذه الفئة الاجتماعية بقيت ذات وزن عقاري ومتمكّنة من المالكين الكبار. كما أدّى تطوّر التجارة إلى نشأة فئة ثرية أو بلوتقراطية (ploutocratie) تدعمت مكانتها تدريجياً تجاه الفئة السابقة، وهي ظاهرة عرفت في بلاد الإغريق خلال المرحلة العتيقة.

ويعتبر الباحثان أنّ توزيع السلط بين الملك والأسباط والمجالس والكهنة هو من مؤشرات التأثير السياسي لهذه الفئة الجديدة من أثرياء التجار أو الأوليغارشية التجارية. وقد اختلت العلاقة بين الفئتين الاجتماعيتين بسبب الحملات الآشورية على فينيقيا، وكان التجار أشدّ تأثراً بانعكاساتها السلبية خاصة على الطرق البرية باتجاه نينوي، آشور وبابل أو نحو البحر الأحمر وهي طرق كان الوسطاء يموّنون عبرها التجارة الفينيقية كما أثبتت النقائش أنّ بعض التجار الفينيقيين يساهمون في المبادلات البرية. وسنبرز في ثانياً هذا الفصل حيثيات الحملات الآشورية التي طبعت النصف الأوّل من القرن التاسع ق.م.

لذلك اعتبرت القطيعة بين بيقماليون وأكرباس ثم بين الملك البافع وشقيقته عليسة نتيجة لتناقضات اجتماعية عميقة، فكاهن معبد ملقرط يمثل السلطة القادرة على منافسة الملك، وجريمة القتل من هذه الوجهة لا تعود إلى رغبة في الإستيلاء على ثروة الكاهن والمعبد بقدر ما تعود إلى مصالح الملك

والأرستقراطية الدائمة له. ومن المفترض أيضا أن تكون عليسة مهتأة في خضم هذه التناقضات لأن نلعب دور الوصيّة على العرش، ومما يدعم هذا التّأويل أن مقتل أكرباس تجاوز ردّ فعل عليسة وأثار فئة من خصوم بيقماليون.

يحاول خ. ألبار وك. فاقنار دعم تحليلهما من خلال موقف الفئتين المذكورتين من قوى الشرق القديم، فالملك والأرستقراطية التّقليدية حافظوا على مصالحهم في ظروف الحملات الآشوريّة وتكيّفوا مع الأوضاع دون تأثر يذكر، أما فئة التّجار، فإنّ حدّة تأثرها بمخلّفات الحملات المذكورة جعلها أقرب إلى مصر في تحالفاتها الخارجيّة ويستدلّ الباحثان على ذلك بأهميّة العلاقات لاحقا بين قرطاج ومصر.

ولم يهمل عنصر التّباين الدّيني فملقرت هو إلى حدّ ما "إله التّجار" في حين كان الملك يتولى كهانة معبد عشتّرت التي من بين وظائفها الإخصاب الزراعي، فقد تولّى إتوبعل ملك صور هذه الوظيفة الدّينية حسب رواية فلا فيوس جوزاف.

تصطدم هذه المحاولة لإضفاء بعد تاريخي وتفسير اجتماعي للأزمة التي نشأت بـصور قبيل تأسيس قرطاج بعوائق عديدة بالرّغم من جاذبيّة القياس المنطقي الذي انتهجته، فالإيجاز الذي تتميز به الرّواية يقلّص من هامش تأويلها التاريخي - الاجتماعي والمقابلة التي اعتمدت بين فئتين متنافستين لا تستقيم أمام إجماع المصادر على اهتمام ملوك صور بالتجارة ومحدودية القاعدة العقارية أو الظهير الزراعي للمدن - الدّول الفينيقيّة وفي هذا ما لا يبرّر الحديث عن أرستقراطية عقارية ذات نفوذ سياسي، إضافة إلى محدوديّة البتور الاقتصادي للمعابد في فينيقيا خلافا لبلاد الرافدين. وهو ما بينه أحمد الفرجاوي الذي يرى في مناقشته "لضريبة العشر" أن قرطاج كانت ترسلها إلى السلطة السياسية في صور لا إلى المعبد فقط، لكن وجب التأكيد على أن مصادرنا في هذا الشأن تهمّ مراحل بعيدة عن الطّور الأول من تاريخ قرطاج. وهكذا فإنّه من الصّعب إيجاد سند تاريخي اجتماعي لما تعتبره المصادر سببا مباشرا لهجرة عليسة وسنحاول في

ثانيا هذا الفصل إبراز خصائص الإطار التاريخي المباشر في فينيقيا قبل تأسيس قرطاج اعتمادا على مصادر مجمع عليها.

نرجح إذن تأثير التقليد الأدبي الإغريقي في السياق المذكور من رواية تأسيس قرطاج ونلاحظ امتداد هذا التأثير في العنصر الموالي من الرواية وهو تركيبة المجموعة المؤسسة إذ اصطحبت علية مناصرين لها من شيوخ المدينة ومن الشعب إضافة إلى خدم بيقماليون الذين ضمتهم إلى حملتها عن طريق الحيلة. دعمت مرحلة قبرص الحملة بانضمام كاهن معبد عشترت شرط بقاء الكهانة في نسله، وتوارث هذه الوظيفة الدينية ثابت في الشرق القديم. والملاحظ أن يوستينوس يذكر عشترت عبر مرافقها اللاتيني يونو (Juno) - كما ذكرت في مصادر أخرى بأسماء هيرا (Héra) وفينوس (Venus) وأفروديت (Aphrodite) - ثم يتطرق المصدر المذكور إلى اختطاف حوالي ثمانين فتاة قبرصية بأمر من علية لتجعل منهن زيجات لشبان حملتها وللإسهام في إعمار المدينة التي تعترم تأسيسها. ويفسر المؤلف ملابسات العملية بتجمّع في معبد فينوس لتعاطي البغاء المقدّس وسبق أن استهجن هيرودوت هذه العادة الشائعة في بلاد الرافدين والتي تتم في معبد الإلهة مليتا (Mylita).

ونجد صدى لهذه الممارسة، من خلال إدانتها أيضا في التّوراة (سفر الملوك). وتنتضح بذلك المرجعية التاريخية لهذه الحلقة من الرواية أو الإمكانية العادية لتجمّع العدد المذكور من القبرصيات.

وإجمالا، فبعد الخروج من صور ومرحلة قبرص اكتسب أعوان مشروع التأسيس هويّة المجموعة المهيأة للتّكامل والحياة المشتركة والمدنية المرادفة للكينونيا (Koinonia) الإغريقية الضامنة لانسجام المستوطنات المعتمز تأسيسها واستمرار وجودها. وهو ما يوافق أيضا التّصور الروماني لثنائية الشيوخ والشعب (Senatus populusque) كشرط للحياة المدنية، ولا نجانب الصّواب إذا اعتبرنا ذكر يوستينوس للشيوخ الصوريين في المقام

الأول من ضمن مصطلحي عglise مرادفا لدور الآباء (Patres) بالمفهومين السياسي والاجتماعي في المرجعية اللاتينية.

ومن البديهي استبطان عglise لمشروعية دينية كأرملة كاهن معبد ملقّرت، لكن حملتها كانت في حاجة إلى تركية سلطة دينية مستقلة وتمّ ذلك في قبرص عبر مباركة كاهن معبد عشتّرت وانضمامه للحملة.

ونلاحظ إجماعا حول الأساس التاريخي للإرساء بقبرص، التي تبعد حوالي 100 كلم عن الساحل الفينيقي. ويعود اهتمام الفينيقيين بمناجم القصدير بالجزيرة إلى أواسط الألف الثانية ق.م. ومن ضمن المدن التي أنشؤوها بقبرص، قرطاج التي يختلف الدارسون في تحديد موقعها حيث أنّ معرفتنا بها محدودة، ويرجح أغلب الباحثين أنها توافق موقع كيتيون - لارناكا (Kition-Larnaka) لكن صلة التجار الفينيقيين بقبرص على هامش رحلاتهم البحرية نحو سواحل آسيا الصغرى وبلاد اليونان لا تفسّر لوحدها إرساء عglise بالجزيرة، لأنّ دلالة التحاق كاهن معبد عشتّرت بحملتها تكمن في اكتمال شروط التأسيس، وتمثّل هذه المرحلة القاسم المشترك للوارد تقريبا في كلّ النصوص الإغريقية المتعلقة بإحداث المستوطنات حيث تذكر مرور المؤسس بمعبد أبولون (Apollon) في دالفي (Delphes) بالسّطح الجنوبي الغربي لجبل برناس (Parnasse) حيث يُعبد « كاله نبوءة » وتتولّى الكاهنة (La Pythie) دور " وسيطة الوحي " حيث يلقى الإله على لسانها بنصائحه ويحدّد أحيانا وجهة الحملة. وفي هذا السّياق، تمثّل رؤيا الكهنة وقراءة الطالع (augures/auspices) الضمان الديني (Sacrum) لأي مبادرة هامة لدى الرّومان.

يستجيب اختطاف القبرصيات أيضا لتفسير أساسه مقارنة الروايات والبحث في تقارب معانيها ونماثلها. فيوستينوس يبرّر العملية بهاجس إعمار المدينة وهو ما يدعم منحي الدّراسات المعاصرة في الإحالة لما تمّ على هامش تأسيس روما أي حادثة "اختطاف السّابينيات" (L'enlèvement des Sabines) ومفادها أنّ رملوس بعد أن شجّع الرّجال والعبيد الفارين وحسّى

المجرمين منهم على الاستقرار بالمدينة المحدثه، أصبح يجابه معضلة إعمارها، فدعا أجواره السابينيين (*Sabini/Les Sabins*) في شمال شرق روما، لحضور احتفالات الكونسواليا (*Consualia*) (نسبة لكونسوس Consus إله المخازن) وكان غرضه اختطاف بناته ليكن زيجات لمواطنيه وعلى إثر الإختطاف نشب صراع بين رملوس ورجاله من ناحية والسابينيين من ناحية أخرى وقد انتهى الصراع بتدخل من السابينيات. وأصبح اللاتينيون والسابينيون بعد ذلك يؤلفون أقدم سكان روما أي الكويريتاس (*quirites*).

ويهدف اختطاف القبرصيات أيضا إلى ضمان الانسجام والتواصل الاثني والثقافي للمدينة، وهي ظاهرة نلاحظها في المستوطنات الإغريقية، ذلك أن حالات الاندماج المبكر مع الشعوب الأصلية تمثل استثناء على غرار نموذج مساليا الذي سنعرض له لاحقا.

ويشمل الطور الثاني من الرواية الإرساء بالساحل الإفريقي ورد فعل الأهالي ووفد أوثيكا ثم ظروف تأسيس المدينة. يفيدنا يوستيوس بأن الأهالي الأفارقة استبشروا بقدم الوافدين الجدد ورأوا في ذلك فرصة للتبادل التجاري، وبحيلنا ذلك إلى انفتاح الأهالي على تجارة إعادة التوزيع التي تولّاهم مرفأ أوثيكا، إذا ما اعتبرنا الروايات التاريخية التي تجعل منه أقدم المنشآت الفينيقية على الساحل الإفريقي المتوسطي، مما يفسر حضور وفد أوثيكا الذي قدم لاستقبال من يعتبرون أقارب وحثم على تأسيس مدينة في الموقع الذي أرسوا به.

ومن الثابت أن لموقع قرطاج من المميزات ما يجعله أفضل من موقع أوثيكا، فالخليج محمي من الرياح الشمالية والغربية والسّهل الرّملّي مناسب للإرساء وبه بحيرتان شاطئيتان مناسبتان لتجهيز موانئ. أما على المستوى القاريّ فإن شكل البرزخ له من الموصفات الطبيعية ما يخفف عناء حمايته بفضل الحاجز الطبيعي للبحيرة ولسبخة أريانة حاليا، أما المائدة المائية فهي محدودة العمق وذات ماء عذب فضلا عن انسياب عين ماء في السّطح الشمالي.

ويتدعم الطابع الحيوي للموقع إذا اعتبرنا بقية مناطق تمركز الفينيقيين وتطورها المستقبلي في غرب صقلية وسردانيا ثم في مالطا. فبمجرد أن تحكمت قرطاج في الضفة الجنوبية لمضيق صقلية وكسورا، -بنتلريا حاليًا- (Pantelleria / Cossura) التي تتوسط المضيق بين ليبي والساحل الإفريقي أصبحت بمثابة "بوابة غرب المتوسط" بالنسبة للفينيقيين على الأقل. (انظر خريطة موقع قرطاج)

ويقتضي المرور إلى مرحلة التأسيس الفصل بين عناصرها المبسطة التي تسهل مراجعتها وتلك التي تنخل في عداد الإضافات والاسقاطات الرمزية والأسطورية. والملاحظ تلاحم هذين البعدين في رواية يوستينوس، إذ يؤكد المؤلف في مرحلة أولى على الإطار التعاقدي لتأسيس قرطاج أي وجود ضريبة سنوية تدفع للأفارقة، ويمكننا من رصد تواصل الإيفاء بهذا الالتزام الضرائبي حتى أواسط القرن السادس ق.م. ولما حاولت قرطاج للتخلص مما كانت تدفعه للأهالي لم تنجح في ذلك إلا في منتصف القرن الخامس ق.م. وتبقى معرفتنا بالطرف أو الكيان السياسي المحلي الذي تعاقد معه القرطاجيون غامضة فهي لا تتجاوز ما يذكره المؤلف عن الملك هيارباس (Hiarbas) والأهالي الماكسيثاني (Maxitani) (انظر فصل الحضور القرطاجي في المجال الإفريقي).

يجمع يوستينوس بين الجانب التعاقدي المشار إليه وعنصر الحيلة المعروفة بقصة جلد الثور وقد ذكرها في السياق الآتي:

"...سعت علسة إثر إرسائها بساحل إفريقيا إلى كسب صداقة الأهالي الذين رأوا بابتهاج في قدوم هؤلاء الأجانب فرص اتجار ومبادلات مشتركة. اشترت إثر ذلك مساحة أرض في حدود ما يمكن أن يغطي جلد ثور، ولتأمين مكان راحة لمصطحبيها المنهكين من رحلة إحار طويلة، قطعت الجلد في شكل أشربة في منتهى الرقة واستحوذت على مساحة أكبر من تلك التي تظاهرت بطلبها لذلك اشتق لهذا المكان اسم بيرصا..."

* المجلد البحري (n. 1) 1852 م

105

تعتبر الفروق بين الروايات التي ذكرت هذا العنصر طفيفة، وبهنا إضافة إلى ما سبق النص الشعري لورجيليوس، حيث تعلم فينوس آينياس بأمر ديدو - علية - و "اشتراء الفنيقيين أرضا يمكن إحاطتها بجلد ثور لذلك سميت بيرصا..."

وفسر أغلب النقاد الإيجاز الذي يميز نص ورجيليوس بالمعرفة الشائعة لهذه الحيلة ويرجحون أن يكون تيمايوس ملما بها. ويضيف سرفيوس هنوراتوس (Servius Honoratus) في تعليقه على الملحة أن علية "لما أرست في لوبييا طردها هيارباس فطلبت شراء مساحة أرض يمكن أن يغطيها (tegere) جلد ثور ثم منته في شكل خيط وأحاطت (circumdare) بمساحة سمتها بيرصا."

تعود أولى التأويلات التي حاولت فك رموز الحيلة المذكورة إلى القول بوجود إسقاط إغريقي بسبب تطابق اسم بيرصا (Byrsa) - اللواة المفترضة للمدينة - وتسمية بورسا (bursa) الإغريقية التي تفيد الجلد. وكان هذا الإيهام السمعى أو التّطابق في النّطق بين اسم المكان والجلد في اللغة الإغريقية كافيا للربط بينهما عبر نسيج روائي. ونحن نلاحظ إسقاطات مماثلة في المخيال الشعبي لتفسير أسماء الأماكن.

ومن محاولات اللغويين أيضا مقاربة بيرصا مع بيرتو (birtu) الأكادية التي تفيد الحصن. أما إلبينسكي (E.Lipinski) فلا يأخذ بالتفسيرات السابقة ويناقش الإحاطة بالأرض بالبصر أو الوقوف عند جزء منها كمرادف للتملك مركزا في ذلك على المرجعية التّوراتية وبعض المصادر اللاتينية، وحاول بذلك في نفس الوقت استبعاد مفهوم الحيلة في نص ورجيليوس والبحث في أصول أخرى لتسمية بيرصا فقام بنعداد أسماء أماكن سامية مركبة من "بئر" وخلص إلى أن أصل بيرصا أقرب إلى "بئر الشاة" (بيرشاة Birsat) ويذكر صلة التسمية بالأبار في السهل الساحلي لقرطاج.

لكننا لم نلاحظ صدى ومناقشة لهذه الفرضية في الدراسات التي تلت صدور مقال إلبينسكي ، فقد تجاوزت الأبحاث الأخيرة التفسير المحدود القائم على تسرب خلط لغوي بين بيرصا والجلد في اللغة الإغريقية وذلك باعتماد منهجي التحليل اللغوي - السيميولوجي والدراسة المقارنة للأساطير وتحديد روايات تأسيس المدن.

مثلت دراسة ج. شايدي (J.Scheid) وي. سفنبرو (J.Svenbro) تجديدا عميقا بانتهاج التحليل اللغوي وازدواجية عديد الأسماء والأفعال في النصين الإغريقي واللاتيني للرواية. ويتضح من خلال هذه الدراسة أن اسم عليسة (Helissa) في اللغة الإغريقية يحيل إلى فعل يفيد الاحتفال (*helissen*) أو التفكير في الحيلة (*mêtin helissen*) ويستعمل للتعبير عن ينتهج خطابا مزدوجا، أي أن اسم المؤسسة في تناغمه مع المعطى اللغوي المذكور يضع الرواية في الدائرة الدلالية للحيلة الإغريقية أو "مئيس" (*La mêtis*) وهي موقف ذهني ثابت في العقلية الإغريقية إلى جانب العقل والمنطق.

بيّنت دراسات ج ب فرنان (J.P.Vernant) وم. دتيان (M.Détienne) للأساطير اليونانية أهمية مفهوم الذكاء القائم على الحيلة وتشعب معانيها: فهي تقيّد الخديعة والمغالطة أو الموارد لكنها تنطبق ضمنا على حكمة الحرفي الذي يستخدم أدواته دون اعتماد توقع أو برهنة رياضية وهو ما يفسّر تسمية "الميكانيكا" أحيانا بعلم الجبل. ويبدو هذا الموقف الذهني أيضا في التصرف الذكي حيال وضعيات شائكة وهذا البعد مائل في الإلياذة والأوديسا وتجسّد خاصّة حيل أوليسوس (Ulysse). وتجدر الإشارة إلى اقتران صورة الفينيقيين في نفس المصدر بالحيلة والمغالطة لترويج "بضاعتهم الرديئة". ويمثل "البرابرة" أو غير الإغريق ضحايا الحيلة، وتصطدم حيل التجار الفينيقيين بنباهة الإغريق في رودس (Rhodes).

يتجاوز ج. شايدي وي. سفنبرو تفسير نصي يوستينوس وورجيليوس بناء على ثنائية الجلد (*bursa*) واسم المكان بيرصا وينبّهان إلى جوهر الحيلة وهو

تجاوز عليسة لمعنى تغطية الجلد للأرض (*tegere*) إلى معنى الإحاطة بالأرض (*circumdare*) وتحيلنا هذه الصورة إلى المعنى الضمني وهو خرق الاتفاق ونكت العهد. فإذا اعتبرنا الجلد المجسم المادي للاتفاق بين عليسة وهيارباس الذي نصّ على مساحة مطابقة لحجمه يصبح توليد معنى "الإحاطة بالأرض" مغالطة وتخلياً عن الاتفاق والبعد الأعرق لقطع الجلد هو تمزيق العهد.

وتوفّر الدراسة المقارنة للأساطير قرائن إضافية لدعم هذا التّأويل، فقد اتّضح أنّ رمزيّة الجلد في عقد الأحلاف مثبتة عند الإغريق والرومان إضافة إلى رمزيّة البقرة في تأسيس المدن. ومن أبرز الأمثلة على ذلك تأسيس طيبة (Thèbes) وينسب إلى مؤسس أسطوري واسمه كدموس ابن أجينور ملك صور (Cadmos fils d'Agenor) وقد قدم كدموس إلى بلاد الإغريق بحثاً عن شقيقته أوربّا (Europe) التي اختطفها زيوس (Zeus) فنصحه كاهن معبد أبولون بدلفي بالتّخلي عن ذلك. وأبلغه أنّه سيصادف بقرة عليه أن يتبع خطاها ويتّخذ من المكان الذي تجثم به موقع تأسيس لمدينة جديدة. ونشأت مدينة طيبة وفقاً لهذه الرّويّا ومثلت البقرة أوّل قربان، لاستكمال طقوس التأسيس، ثم أمسك كدموس وصحبه بأطراف الجلد كميّاق يجمع بينهم.

أمّا تأسيس روما فبدأ بعملية حفر حدود المدينة حول هضبة البلاتينوس (*Palatinus mons*) وقد أنجزها رملوس بواسطة محراث يجرّه ثور وبقرة وكان صحبه يتبعونه لوضع أسس سور المدينة وتمّ بعد ذلك تحديد المجال المقدّس للمدينة (*pomerium*).

وهكذا يتّضح التّناقض بين العملية المقدّسة لضبط الحدود ثمّ مفهوم الجلد كميّاق تأسيس من جهة، ومبادرة عليسة التي تنطوي في نفس الوقت على نكت العهد بقطع الجلد ثم الاستهانة بقداسة التأسيس والتوسّل في إنجازها بالحيلة والمغالطة.

بحث الدراسات المعاصرة في الأصول التاريخية لهذا البعد في رواية تأسيس قرطاج، فقد بلورت "الحروب البونية" بعض المعتقدات الراسخة في الذهنية الرومانية وأبرزها "الثقة البونية" (*fides punica*) وهي تعبير يستعمل للدلالة على انعدام الثقة أو نكث العهود.

وتعود أصول هذا الحكم إلى الجدل الدائم حول مسؤولية قرطاج في نشوب المجابهات وتوفر مبررا للحرب (*causus belli*) بسبب نقض المعاهدات أو تجاوز الاتفاقيات التي أبرمت إثر الحروب أو الاعتداء على حلفاء روما من قبل قرطاج.

ويتضح التأثير العميق لهذه الصورة السلبية في المصادر اللاتينية وكذلك أيضا في المصادر الإغريقية التي تبنت وجهة النظر الرومانية إلى درجة تغييب المعاهدات التي ميزت فترة التعايش بين قرطاج وروما أو تناولتها بصفة عرضية.

أبرز ج. شايدي، سفنبر والإطلاع المثير للإنباه بحيلة علية في كل من اسكندنافيا وجنوب شرقي آسيا ولدى الكرغيز (Kirghiz) بآسيا الوسطى الذين يقارنون "خدعة الروس لهم بخدعة علية للنوميديين...". وهكذا فإن تواتر الرواية احتفظ بالمعنى العميق أو النواة الأولى وهو ما بينته جيوليا بكالوفا (G.Piccaluga) التي اهتمت بتطور الأسطورة وما يشوبها من إسقاطات وإضافات.

تستعرض الرواية في البداية بناء المدينة والتخلي عن الموقع الذي عثر فيه على رأس ثور والاستبشار بالموقع الذي عثر فيه على رأس حصان. ويحيط ورجيليوس العملية بشروطها التينية ويحدد الموضع في الأكمة المقنسة التي أقامت فيها علية معبدا كبيرا للالهة يونو - عشترت التي بشرت بحسن طالع رأس الحصان رمزا للانتصار وحياة الرّخاء. ويعلن المؤلف أنه "رمز شعب محارب" ويتفق نص يوستينوس مع نفس التفسير. اعتبر هذا التأكيد على رمزية

القوة والتوجه الحربي المستقبلي للمدينة انعكاسا روائيا لصورة الحصان المجسمة بكثافة على العملات القرطاجية منذ المرحلة الأولى لظهورها حتى القرن الثاني ق.م. ونلاحظ تجسيم هذه الصورة على قفا العملات الذهبية والبرنزية المضروبة في منتصف القرن الرابع ق.م سواء بقرطاج أو بغرب صقلية أو في العملات التي ضربت في إيبيريا في أواخر القرن الثالث علاوة على العملة التي أصدرت في البروتيوم (Bruttium) خلال الحرب الثانية وهي عملة تمتاز بصورة كوري (Koré) إلهة الخصب على الوجه وصورة الحصان على القفا، وقد استمر استعمالها خلال القرن الثاني ق.م حتى سقوط قرطاج وأمتد تأثيرها إلى العملات النوميديّة.

أما إذا اعتمدنا الدراسة المقارنة للأساطير من منظور ج.دوميزيل (G.Dumezil)، الذي درس الحضور الضمني للبعد الوظيفي الثلاثي - المحاربون والكهنة وأعوان الإنتاج - في الأساطير الهندو - أوروبية، فإننا نرجّح أن يكون هذا البعد في الرواية اللاتينية إيذاً رمزياً بنشأة الوظيفة الحربية. وقد سبق أن أشرنا إلى حرب اللاتينيين والسابينيين التي أعلنت تشكّل نفس الوظيفة مبكراً في روما.

ونعتقد أنّنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا العنصر الأخير من الرواية أي طلب هيارباس الزواج من عليسة ورفضها ثم انتحارها إعلاناً ضمناً بقبول التحدي الذي أعلنه الملك في حالة الرقص، إذ شفع طلبه بالتهديد بالحرب وحرص الفينيقيون الذين نقلوا طلبه على إقناع عليسة بالقبول.

جسد موقف عليسة إرادة المدينة الناشئة في الحفاظ على هويتها وروح الجماعة في المفهوم الإغريقي. لكن وجب التساؤل عما إذا كان القبول بتحدي هيارباس إعلاناً ضمناً لحتمية تبلور الوظيفة الحربية المكملّة للوظيفتين الدينية والإنتاجية اللتين ذكرتا بصفة صريحة. ولا نستبعد في سياق تحليل نفس العنصر المحدّدات التاريخية في تشكّله بناء على الصورة السائدة بخصوص الصدارة التي احتلّها نوو الأصول الفينيقية في قرطاج على المستويين السياسي والاجتماعي.

ونقصح المقارنة عن أبعاد أخرى للمسألة فالأسطورة الإغريقية تـرى في زواج كادموس من أرمونيا (Harmonie) بعد حروب داخلية في طيبة بداية مرحلة الاستقرار وبناء المدينة.

ونلاحظ معنى مقاربا في أطوار نشأة روما بعد الوفاق بين اللاتينيين والسابينيين الذين اختطفت بناتهم وتمّ القبول بعلاقات مصاهرة مفروضة وكون الطرفان أصل سكان روما. أمّا تأسيس الإغريق الفوقيين (Les Phocéens) لمساليا فقد شفع مباشرة باندماج مع الأهالي السيقوبريج (Segobrigi/Ségobrigues). فوفقا لرواية يوستينوس صادف قدوم الإغريق بقيادة قيمون (Cimon) وبروتيس (Protis) يوم زواج قوبتيس (Gyptis) بنت الملك. وتقضي العادة أن تختار البنت زوجها من بين الشبان الحاضرين بأن تقدم له الماء، وكان أن اختارت بورتيس الإغريقي الذي أصبح صهر الملك وتحصل منه على الأرض التي أنشئت عليها المدينة. ويذكر يوستينوس أن بروتيس سعى إلى التحالف مع ملك السيقوبريج (amiticam petentes conveniunt) والملاحظ أن المؤسس الإغريقي لمساليا يتخذ أيضا اسم أوكسنوس (Euxenos) الذي له معنى "الأجنبي الطيب".

ويمكن أن نستنتج من اللصوص اللاتينية لبداية العهد الإمبراطوري التأكيد على المصير المختلف لكل من قرطاج وروما أو التلميح للمرحلة الجديدة التي بدأتها قرطاج الرومانية وهو ما ينطبق على ملحمة ورجيليوس الذي يجعل من مرور آينياس بقرطاج مرحلة عابرة في مسار تأسيس طروادة الجديدة - روما ووصفه لمشاهد بناء قرطاج التي عاينها البطل الطروادي ينطبق على بناء قرطاج الرومانية فمن المعلوم أن الشاعر معاصر لهذا الحدث الذي تم في عهد أغسطس.

تنتهي الروايات الرئيسية الثلاث المعتمدة في تحليلنا لتأسيس قرطاج، بانتحار علسة - وينفرد الحدث في السياق الشعري عند ورجيليوس ببنية

درامية مختلفة كلياً عن بقية المصادر. فانتحار عليسة - ديدو كان نتيجة لتخلي أيدياس عنها، ويختصر الشاعر مقام البطل الطروادي بقرطاج كما لو أنه أخطأ وجهته فقدره يدعوه إلى إيطاليا ليهيئ نشأة روما. وتتفق بقية الروايات على سبب انتحار عليسة وهو رفض الزواج من هيارباس ملك الأهالي وكان ذلك بأن ألقت بنفسها في النار. وبضيف يوستينوس أنها حُضيت على امتداد تاريخ قرطاج بطقوس الآلهة.

وقد درس مشهد انتحار عليسة في علاقة بالقرابين البشرية في قرطاج (أنظر فصل الديانة القرطاجية)، فالروايات الإغريقية اللاتينية ترمي إلى إيجاد سبب أصلي لهذه الظاهرة وهو ما يعتبر تفسيراً إيتولوجياً (étologique) لا يخلو من الإسقاط.

يعتبر ج.ش.بيكار في هذا السياق أن المسألة أقرب إلى "عقلة أسطورة تضحية صيغت لتبرير القرابين البشرية" وهي بمثابة "رواية مقدسة" لانتحار مؤسسة قرطاج ضمناً لتواصل المدينة وازدهارها ويؤكد مدعماً وجهة نظره على دراسات جايمس جورج فرازر (J.G.Frazer) ومعابنته في أواخر القرن التاسع عشر لبعض المجتمعات البدائية التي عرفت طقوس الزواج ثم قتل الملك لتجديد الطاقة المقدسة والحيوية الضامنة لتواصل المجموعة وتشفع العلمية بتأليهه. وتجدر الإشارة إلى تبني الدراسات الأنثروبولوجية نفس التأويل لاختفاء رومولوس وعبادته في الأسطورة الرومانية.

حاول ج.ش.بيكار تأكيد تواصل هذه الظاهرة ومراجعتها تاريخياً. فانتحار عبد ملقرط الماجوني سنة 480 ق.م، إثر هزيمة جيشه ضد الإغريق في واقعة هيمراس بصقلية، هو حسب رأيه بمثابة تجديد التضحية الأصلية وإحيائها بعبادته. ومن معالم ذلك ما قُتِم في موقع وفاته من قرابين بشرية من بين الأسرى الإغريق وذلك بأمر من حفيده حنبعل الماجوني سنة 407 ق.م.

لكن وجهة النظر هذه تقوم على فرضيتي تمثيل القائد المنتحر للسلطة الملكية من جهة ثم وجود طقوس عبادة الأبطال (culte des héros) في قرطاج، من جهة ثانية. وتفتقر الفرضيتان للقارئ اللازمة، وسنبين في الفصل المخصص للمؤسسات السياسية طبيعة سلطة عبد مفرط الماجوني كقائد عسكري، أما طقوس عبادة الأبطال فإننا لا نستطيع مقاربتها بما عرفته بلاد الإغريق وروما ويرجح س. قرال على هذا الأساس انعدامها في قرطاج.

تعرض ك. قروتالي (C. Grotanelli) لانتحار علية واستحالة زواجها من هيارباس وفقاً لمنظور اجتماعي وقانوني. فانطلاقاً من الطابع التراتبي للمجتمع القرطاجي القائم على فئة أولى من ذوي الأصول الفينيقية واللوبي - فينيقيين ثم من فئة ثانية تفتقر للحقوق السياسية نجد ضمنها الأهالي، ترى المؤلفة ضرورة الفصل بين علاقات التبادل والتجارة (commercium) أو العلاقات الضريبية (tributum) من جهة، وعلاقة الزواج (connubium) التي تفرض شروطاً قانونية بمعنى انحصارها داخل نفس الفئة الإثنية - الاجتماعية فهي أهم أشكال التعبير على الانتماء لإحدى الفئتين والحفاظ على تجانس كل منهما. والملاحظ أن نص يوستينوس يشير إلى آفاق المبادلات التجارية مع الأهالي التي تبدو في مستوى أدنى من العلاقات التي أرساها القرطاجيون مع أقاربهم (consanguinei) من فينيقي أوتيكا.

يمكن مناقشة الطابع المطلق لهذا الاستنتاج الذي اعتمد على صيغ من المصدر المذكور فالمصطلحات التي تعتمد عليها ك. قروتالي لها مضمون دقيق في القانون اللاتيني لأن ذات القانون لم يكن جامداً فيكفي التنكير بتطوره واسنفاده غير اللاتينيين منه. كما تعتمد ك. قروتالي على تصنيف المجتمع القرطاجي خلال المرحلة الهلنستية أي الطور الأخير من تاريخ قرطاج والتراتب الاجتماعي الذي تعتمد لا يخلو من حالات اندماج بين الفينيقين والأهالي. وإجمالاً فإن الشحنة الرمزية لخاتمة الرواية لا تحتمل الاختصار في مقاربات تاريخية - اجتماعية.

ذكر يوستينوس في ثانيا ملخصه تطوّر قرطاج وتدعمها بفضل الوافدين عليها ويستعمل للتعبير عن هذا الانتقال النوعي عبارة كويتاس (*ci vitas*) أي "مدينة - دولة" ذات مؤسسات ومجال ترابي محدّد ولسكانها صفة المواطنة وهو ما يوافق مرحلة ما بعد التأسيس أو عملية التمدن الذي تعبر عنه في اللاتينية عبارة أوريس (*urbs*) أي المدينة بمعنى التجمّع السكاني.

ويمكن معاينة نفس التطوّر المرحلي للمفاهيم المستعملة بصدد نشأة روما وتطوّرها فلعنوان هذا المشروع في البداية صفة للشبان (*Juvenes*) وبمجرّد نشأة المدينة - الحاضرة (*Ab Urbe Condita*) أصبحوا مواطنين، فمفهوم المواطنة والمدينة - الدولة متلازمان.

أمّا عن إمكانيات وحدود المراجعة التاريخية لتطوّر قرطاج المشار إليه في المرحلة الأولى من نشأتها فقد حاولنا إبراز معالمها الأساسية في العصرين الموليين من هذا الفصل، أي الإطار التاريخي بفنيقيا وتأسيس قرطاج ثم المراجعة الأثرية بناء على الإضافات المسجلة في معرفتنا بآثار المدينة خلال المرحلة العتيقة، وهو ما يتيح لنا الخروج من دائرة الأسطورة أو الرواية إلى معاينة ظروف نشأة قرطاج وأقدم أثارها المادية.

3 - الإطار التاريخي المباشر: فينيقيا خلال القرن التاسع ق.م.

تتضمن الأحداث التاريخية خلال القرن التاسع ق.م. مؤشرات لتحولات جغرافية - سياسية أثّرت في أوضاع المدن - الدويلات الفينيقية فقد شهدت المرحلة المذكورة عودة الآشوريين في إطار الإمبراطورية الآشورية الحديثة (911-609 ق.م) وفيادة حملات ضدّ الآراميين وممالكهم في سوريا الوسطى والشمالية والمدن - للتول الفينيقية.

أما في خصوص صور فإن النصّ التوراتي يشير إلى مبادلات بين مملكة سليمان (970-931 ق.م) وصور وهو ما يوافق مرحلة استقرار في الشرق الأوسط انتهت خلال القرن الثامن بانقسام مملكة سليمان إلى يهودا وإسرائيل واحتداد الصراع بينهما إضافة إلى حروب الممالك الآرامية وخاصة مملكة دمشق

ضدّ مملكة إسرائيل، لكن المعطي الرئيسي خلال القرن التاسع ق.م. كان متمثلاً في انعكاسات الحملات الآشورية التي كانت موجّهة بصفة أساسية ضدّ الممالك الآرامية وهي أطراف تجارية هامة بالنسبة لصور وصيدا وأرواد مما أدى إلى اضطراب مبادلاتها تماماً مثل اضطرابها مع الممالك اليهودية.

وتبرز حوليات الحملات العسكرية للملوك الآشوريين غنائم فينيقيا والالتزامات الضريبية التي فرضت على مدنها التجارية رغم أنها لم تكن نمثّل الهدف الرئيسي لهذه الحملات.

والملاحظ أن التخصيص على المدن الفينيقية في حوليات الملوك الآشوريين يعود إلى القرن الحادي عشر ق.م. حيث ذكرت على هامش حملات ثقلات فلاسر الأوّل (Tiglath-Phalazar 1er) (1114-1076 ق.م.) ويقترن ذكر فينيقيا في هذه النّقائش بتأكيد وصول الحملة إلى البحر الكبير أي المتوسط وهو ما يكتسي مدلولاً خاصاً لدى الآشوريين، فالمملكة الآشورية هي إحدى أبرز قوى الشرق القديم التي تفتقر لواجهة بحريّة.

تتمثّل أبرز حملات القرن التاسع ق.م. في حملة آشورنا صربال الثاني (Assurnasirpal II) (883-859) بين 878 و866 ق.م. ضدّ المملكة الحيثيّة الحديثة والممالك الآرامية وبلغت فينيقيا ومما ورد في حوليات الحملة: "غزوت كامل جبل لبنان وأدركت البحر الكبير واستخلصت ضريبة ملوك البحر وهم ملوك صور وصيدا وجبيل وأرواد التي تضمّنت فضّة وذهباً وقصديراً ونحاساً وأواني من البرنز ونسجاً مصبوغاً وخشب الأبلوس والعاج...".

واستمرّت سياسة المملكة الآشورية الحديثة على نفس الوتيرة خلال الرّبّع الثالث من القرن التاسع ق.م. حيث تتضمن حوليات شلمنصر الثالث (Salmanazar III) (858-824 ق.م) قيادة حملات متواصلة ضدّ الآراميين، جوبهت بتحالف حول مملكة دمشق الآرامية ضمّ الفينيقيين والممالك اليهوديّة خاصّة. ولئن لم تقض الحملات الآشورية إلى نتيجة عسكرية حاسمة لفائدتها فإنّها

فرضت على قوى الشرق الأوسط مجهودا حربيا وخلقت حالة عدم استقرار. وأما بالنسبة لفينيقيا تحديدا فإن نصّ حملة 841 ق.م. يشير مجدّدا إلى بلوغ الآشوريين صور وصيدا وتسلم الضريبة منهما. كما نجد تجسّما لمبعوثي المدينتين في مسألة قصر آشوري وهم يقيمون ضربيتهما إلى جانب ضرائب إسرائيل والحثيين.

اتّجه الآشوريون في بداية الرّبع الأخير من القرن التاسع ق.م. إلى توطيد أوضاع مملكتهم ضدّ الفرس الميديين وبابل وإلى معالجة أوضاعهم الداخلية. وفي هذا السّياق يمكن أن نتساءل عن دور أحداث النصف الثاني من القرن التاسع ق.م. المشار إليها في خلق توجّه لدى الفينيقيين لثمتين صلتهم بغرب المتوسط عبر تأسيس مستوطنات جديدة.

وإذا كان من الصعب اعتبار هذا الظرفية محدّدة في تأسيس قرطاج فإنّ المنحى الجديد الذي اتّخذته سياسة الآشوريين تجاه فينيقيا خلال القرن الثامن ق.م. تجاوز الارتباط الضريبي وحتّت من هامش استقلاليتها. فقد اتّجه الآشوريون مجدّدا خلال حكم حدد نيررتي الثالث (A dad-Nirarti III) (810-783 ق.م) إلى شرق آسيا الصغرى والممالك الأرامية بمنطقة سوريا الشمالية والوسطى وأدّى ذلك إلى خلق حالة ارتباط اداري أشارت إليه حولّيات تقات فلاسار الثالث (Tiglath-Phalazar III) (744-727 ق.م) "لقد أمجّتهم ضمن حدود آشور وولّيت عليهم أعواني" ولئن لم يكن هذا الارتباط آليّا بالسلطة المركزية فإنّه يفترض على الأقلّ عهود ولاء لآشور تترك هامش استقلالية نسبيّة لكن أقدم هذه العهود (*adê*) المعروفة مؤرّخ حوالي 750 ق.م.

إنّ البحث في تزامن الضّغط الآشوري شرقا والتوسّع الإغريقي غربا لتبرير البعد الحيوي لتأسيس قرطاج يؤدّي بنا إلى مفارقة تاريخية نسبية. فهذا التزامن ينطبق على أحداث أواسط القرن الثامن ق.م. لما تأكّدت التبعية تجاه آشور والحملات الاستيطانية الإغريقية في صقلية وجنوب إيطاليا. لكن لا بدّ من اعتبار الأسباب والظروف التي هيأت لعملية التوسّع الإغريقي وهي الأزمة الاجتماعية الناتجة أساسا عن ضيق الأرض الزراعية

(*stenechoria*) وتطوّر المدينة - الدولة كإطار سباسي جعل من الاستيطان عملية رسميّة ومنظمة وخاصة عودة الملاحة التي كانت السبيل الرئيسي للمواصلات في بلاد الإغريق والوسيلة المحددة في نشأة اليونان الكبرى.

يمكننا تجاوز صعوبات إثبات هذا التزامن بالنظر في علاقة الفينيقيين ببلاد الإغريق خلال المرحلة العتيقة وإمامهم بالتحولات التي تعيشها وهي علاقة مثبتة من خلال أهم مصادر المرحلة العتيقة أي الإلياذة والأوديسا التي نكر فيها الفينيقيون في سبع عشرة مناسبة.

ومن المرجح أيضا أن انعكاسات الحملات الآشورية وأزمة الممالك اليهودية بعد حكم سليمان أعطت دفعا لمبادلات الفينيقيين مع بلاد الإغريق وهذه العلاقة تهمنا في افتراض إمام الفينيقيين بالتوجّه الإغريقي نحو الاهتمام بتخفيف الأزمة الاجتماعية عبر سياسة استيطان وهو توجّه لا يمكن أن يُرتجل فالإعداد له يرقى إلى ما قبل القرن الثامن، مما يبرّر في هذه الحالة الطابع الثالوي للتعاقب الخطي للأحداث.

4 - تأسيس قرطاج في ضوء المعطيات الأثرية

بدأ البحث الأثري بقرطاج منذ أواخر القرن التاسع عشر ولم تسمح اللّقي الأثرية وخزيات المرحلة العتيقة بترجيح تأسيس قرطاج في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد مما يفسّر صدور فرضيات تاريخ متأخّر لتأسيس قرطاج وأهمّها تلك التي صاغها الباحث إميل فورير (Emil Forrer) وتبنّاها إيموند فريزول (Edmond Frezouls) وتتملّ في مراجعة جذرية للمصادر الأدبية في غياب السند الأثري معتبرة رواية أواخر القرن التاسع ق.م. تنطبق على قرطاج قبرص. أمّا قرطاج غرب المتوسط فقد أسست خلال النصف الأول من القرن السابع في حدود 663-679 ق.م. ويستند هذا التاريخ مجدداً إلى الظرفية التي سادت في فينيقيا خلال القرن الثامن وبداية القرن السابع ق.م. وهي متمثلة في انعكاسات الهيمنة الآشورية المباشرة على المنطقة.

يعكس هذا الرأي صعوبة تاريخ الخزف الشرقي والاقتصار على كرونولوجيا الخزف الإغريقي التي تتضمن هامش خطأ محدود إضافة إلى محدودية القطاعات العتيقة التي كشف عنها إلى حد ذلك التاريخ وهي المقابر وهيكل التوفات. إلا أن حفريات الحملة الأمامية لإنقاذ موقع قرطاج التي كشفت عن مستويات السكن العتيق والتي كانت من تأريخه انتهت إلى ملامحة المعطيات الأثرية ورواية التأسيس في أواخر القرن التاسع ق.م. أو 814 ق.م.

عثر على أقدم القرائن الأثرية في المقابر العتيقة والتوفات ثم في القطاعات السكنية. وتمثل المقابر باعتبار ثباتها النسبي مجالا حيويًا للبحث الأثري بالمقارنة مع بقية قطاعات المدينة. لكن أقدم المقابر التي درست شرق هضبة يولو وفي أسفل منحدر درمش يمكن أن يؤرخ بعض أثارها بأواخر القرن الثامن ق.م. ولم يكشف بعد عن مقابر بداية القرن الثامن وفي المقابل فإن اكتشاف مقابر بداية القرن الثامن أو النصف الأول منه طرح عدة تساؤلات منها الوزن الديمغرافي للمجموعة المؤسسة ومدى امتداد مقابر القرن الأول من تأسيس المدينة ثم موقعه من السكن العتيق. وتضاف إلى هذا الاعتبار إمكانية انتصاب العمران الروماني على مجالات جنازية بصفة لا تسمح لعمليات السبر رصد بقاياها ويرتكز هذا الاقتراض على شهادة ترتوليانوس (حوالي 150-220م) الذي شهِر بتعمد إزاحة مقابر قرطاجية بونية لاقامة الأوديون (قاعة العروض الموسيقية).

أما أقدم لقيّ معبد التوفات فبالرغم من الجدل الذي أحاط بدارستها فقد سمحت بالمقارنة مع المقابر من الاقتراب نسبيا من بدايات قرطاج العتيقة فقد اتجه بيار سنتاس (Pierre Cintas) في معابنته للأواني الفخارية وخاصة أقدم الجرار الشرقية إلى اقتراح تأريخها بنهاية القرن العاشر ق.م. واعتبر "المعبد الصغير" المعروف بـ "Chapelle Cintas" المكتشف في قاعدة التوفات سابقا لاسيطان الفينيقيين.

تمت مراجعة هذه القراءة الأولية لخزف المستوى القاعدي للتوفات الذي اصطلح على تسميته "تلايت I" ذلك أن الأواني الخزفية التي يتضمنها تشبه من

حيث الشكل والزينة خزف قبرص والشرق الأوسط الذي يؤرخ وفق مقياس واسع بين 850 و700 ق.م، على أن بعض الجرار الشرقية العتيقة يمكن أن تؤرخ ببداية القرن الثامن ق.م. وهو ما ينطبق أيضا على الأسكوس والأواني التي تعود إلى الفترة المعروفة باسم "قبيل العهد الكورنثي" (p rotocorinthien).

واعتبارا لموضوع كرونولوجية الخزف الإغريقي يمكن أن نعتبر المعاينة الجديدة التي قام بها برونو داقوستينو (Bruno D'Agostino) للخزف الإغريقي "بالمعبد الصغير" والتي أُنْتُ إلى إدراج هذا الخزف ضمن نموذج "اينوس" 666 Aetos واكتشف هذا النموذج خاصة بموقع (Aetos) بجزيرة إينكي (Ithaque) ويؤرخ بالربيع الثاني أو منتصف القرن الثامن ق.م. (أنظر الصورتين 1 و2)

فتحت حفريات الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج أفاقا جديدة في معرفة سكن المرحلة العتيقة فقد مكنت عمليات السبر المنجزة في زاوية تقاطع نهج سبتموس سيوروس وشارع الجمهورية بقرطاج - حنبل سنة 1987 من العثور على ست قطع فخارية لأواني أويّة من طراز "العهد الهندسي الحديث" (géometrique récent) تعود إلى الربع الثاني والثالث من القرن الثامن ق.م. وباستثناء واحدة منها وجدت برسم المرحلة الأوغسطية الرومانية فإن القطع الأخرى وجدت في المستويات المترتبة لأرضية السكن العتيق. وأبرز قطع هذه المجموعة من حيث قيمتها التاريخية "الاسكيفوس" رقم 2 الذي ينتمي إلى العهد الهندسي المتأخر أي إلى منتصف القرن الثامن ق.م. والقطعة رقم 5 وهي ممثلة لنوعية خزف سادت في المنطقة الممتدة من تساليا إلى السيكلاد الشمالية وتؤرخ بين 900 و750 ق.م. إلى جانب هذه الاستنتاجات المباشرة تمكنا هذه اللقي من الإقرار بأن قرطاج كانت تستورد أواني ومنتجات إيجية إغريقية خلال الربع الثاني والثالث من القرن الثامن ق.م. (أنظر الصورة رقم 3)

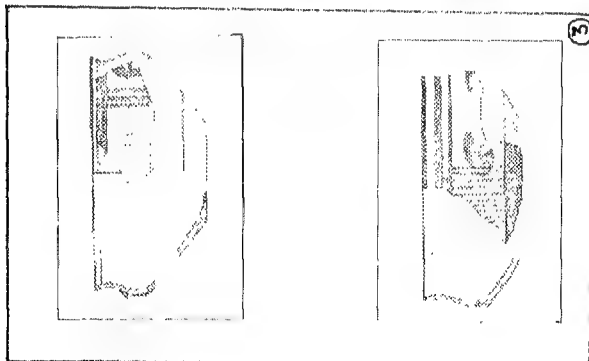
تدعمت هذه النتائج إثر عمليات السبر التي تمت بقرطاج درمش وكشفت بقايا سكن يعود على الأقل إلى النصف الأول من القرن الثامن ق.م. وورشات تعدين من القرن الثامن ق.م. أيضا في تخوم السكن المشار إليه وافران خزف من

القرنين السابع والسادس ق.م. وأمكن مراجعة تراتب السكن الفرطاجي في كامل
مراحله اعتمادا على كميات هامة من الخزف المستورد الأويي والفينيقي
والقبرصي إضافة إلى الخزف المحلي المقولب الذي يمثل 25% من خزف
مستوى سكن القرن الثامن ق.م. وهو مؤشر جدي على العلاقة والمبادلات بين
الأهالي وقرطاج خلال القرن الأول من نشأتها.

وأثبتت الحفريات الأثرية في المنخفض الجنوبي الشرقي لهضبة بيرصا
امتداد سكن المرحلة العتيقة على بعد 360 مترا من الساحل مما يؤكد امتداد
السكن في المرحلة الأولى من نشأة قرطاج في اتجاه مجالي مختلف عن المرافئ
الفينيقية والمنشآت التجارية - المينائية المألوفة في المتوسط الغربي.

وهكذا أكدت دراسات سكن المرحلة العتيقة مستويات استقرار مختلفة
خلال القرن الثامن ق.م. وتجاوزت محدودية الاستنتاجات الممكنة في بقية
القطاعات العتيقة مثل المقابر والتوفات وقُلصت الهوة التي كانت تفصل بين أقدم
اللقى الأثرية والمعطيات الروائية لتأسيس قرطاج. وفي هذا السياق وجب التذكير
بـ سنتاس السابق للأبحاث الأثرية المذكورة والذي أفضى إلى ملاحظة
مماثلة بين نشأة المدينة وتحليل نقيشة نذرية عُثر عليها بمعبد التوفات
(C.I.S. ; III, n°3778) مؤرخة بمنصف القرن الرابع ق.م. وتتضمن أحد عشر
سطرا.

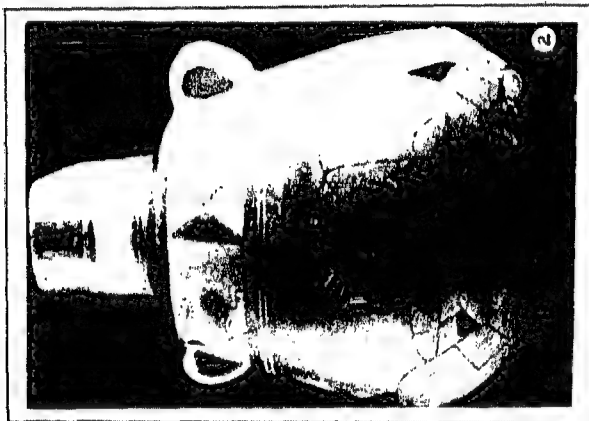
ويذكر النادر في هذه النقيشة أسلافه وهم في عداد ستة عشر جيلا. ينتمي
آخرهم مبدئيا إلى النصف الأول من القرن الرابع ق.م. وسواء اعتمدنا معتل
ثلاثين سنة لكل جيل كما يقترح بـ سنتاس $(16 \times 30 = 480)$ سنة + 350 أي
تاريخ النقيشة = 830 ق.م) أو ثلاثة أجيال على امتداد كل قرن كما يرى
ق.بوننس (533 سنة للأجيال الستة عشر) فإن ممثل الجيل الأول بعد معاصرا
لنشأة المدينة.



٣: بقايا فخار أوينين عثر عليها في منطقة السكن المكتشفة بطاح وهي مؤرخة بالنصف الأول من القرن الثامن ق.م.

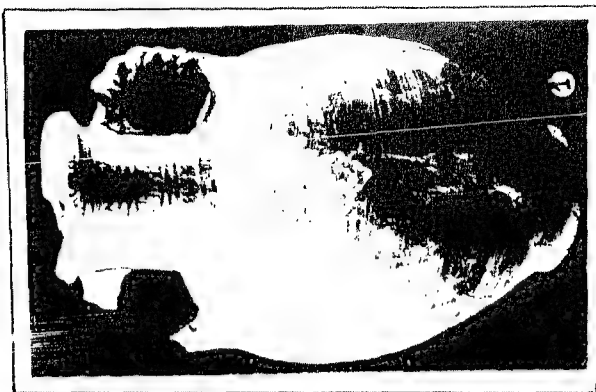
المصدر :

VEGAS M. «Céramique de la période du géométrique récent à Carthage ». in CEDAC n°10, (Juin 1989), p 27



٢: جرّة عثر عليها بحفريات تولت قرطاج مؤرخة بأواسط القرن الأول ق.م. وهي نموذج لجرار ذات شكل فنيقي شائع منذ بداية الألف الثاني ق.م. وهي نموذج لجرار ذات شكل فنيقي شائع منذ بداية الألف الأول ق.م. لكر طراز الزينة (الأشكال الهندسية والطيور) يشبه المحسمات على الجرار الأفرقية لأفينا وجرر السيكلاذكريت

المصدر : 1-2. (1968-1969) Archéologie vivante.



١: جرّة مؤرخة بأواخر العهد الهنسي، حوالي منتصف القرن الثامن ق.م. عثر عليها في أكنة طقات تولت قرطاج وهي نموذج محسّن لإنجاح جرر السيكلاذ الأفرقية

مصادر الفصل الثالث ومراجعته

1 - المصادر

- APPIEN, *Histoire romaine* - VIII, 1, 1-2, 19, 132.
- FLAVIUS JOSEPH, *Antiquités Juives*, VII, 5,3.
- *Contre Apion*, I, 17 et 18.
- JUSTIN, *Abrégé des histoires philippiques*, XVIII, 4,5 ,6.
- TIMÉE DE TAORMINE, *Fragments d'Histoire grecque*, n°23.
- VIRGILE, *Eneide*, Traduit et commenté par J.Perret. Paris: Les Belles lettres, 1981.
- *Textes du Proche-Orient ancien et histoire d'Israël*, (textes n°19 à 29) - présentés par Jacques Briend et Marie-Joseph Seux, Paris, 1977.

المراجع

- ALONSO - NUNEZ (J.M), "Troque pompoée sur Carthage", in, *Karthago. XXII*, (1990) p. 11 -19.
"Troque Pompoée et Massalia (Justin, Epitoma XLIII,3,4- XLIII, 5,10)", in *Latomus*, T53. Fasc.1, Janv. mars, (1994), pp. 110-117.
- ALVAR (J) et WAGNER (C.G), "Considerationes historicos sobre la Fundacion de Cartago", in *Gèrion*, 3, (1985) p. 79-95 (editorial de la Universidad Complutense de Madrid).
- BERARD (V), *Les phéniciens et l'Odyssée*, Paris, 1927, T I.
- BLOCH (R), *Les orgines de Rome*, Paris, PUF, 1985 (QSJ? n°937).
- BUNNENS (G), *L'expansion phénicienne en Méditerranée: essai d'interprétation fondé sur une analyse des traditions littéraires*, Bruxelles - Rome, 1979.
- "Considérations géographiques sur la place occupée par la Phénicie dans l'expansion de l'empire assyrien", in, *Studia Phoenicia*. 1-2, (1983), p 169-193.
- BUXTON (R), *La Grèce de l'imaginaire. Les contextes de la mythologie.*, trad. de l'anglais par Micheline Wechsler - Bruderlein - Paris, 1996.
- CALAME (C), *Thésée et l'imaginaire athénien: Légende et culture en Grèce antique*. - Lausanne, 1990.

- CINTAS (P), *Manuel d'archéologie punique. I: Histoire et archéologie comparées*, Paris, 1970.
- DESANGES (J), *Recherches sur l'activité des méditerranéens aux confins de l'Afrique*, Rome, 1978.
- "Rex Muxitanorum Hiarbas (Justin XVIII, 6, 1)", in, *Philologus*, 111, (1967), p. 304 - 308.
- DETIENNE (M), *L'invention de la mythologie*, Paris, Gaollimard, 1981.
- DETIENNE (M) et VERNAT (J.P), *Les ruses de l'intelligence: La métis des Grecs*, Paris, 1974.
- DUMEZIL (G), "L'idéologie des trois fonctions dans quelques crises de l'histoire romaine", in, *Latomus*, t XVII, Fas. 3, Juillet-Sept. (1958) pp. 429 - 445.
- DUPONT - SOMMER (A), *Les Araméens*, Paris, 1994.
- FANTAR (M.H), *Carthage: Approche d'une civilisation. T1. - (Chap. II. p. 63-107)*, Tunis, 1993.
- FERJAOUI (A), *Recherches sur les relations entre l'Orient phénicien et Carthage*, Tunis, 1992.

(ترجم إلى العربية تحت عنوان بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي

وقرطاجة. تونس 1993)

- FINLEY (M.I), *Les premiers temps de la Grèce: l'âge du bronze et l'époque archaïque*, Paris, 1980.
- FREZOULS (E), "Une nouvelle hypothèse sur la fondation de carthage (A propos d'un article de M. Emil Forrer)", in, *Bulletin de correspondance Hellénique*, LXXIX, (1955), p. 155-176.
- GARELLI (P) et NIKIPROWEZKY (V), *Le Proche - Orient asiatique: Les Empire mésopotamiens. - Israël*, Paris, 1974.
- GRAS (M), ROUILLARD (P) et TEXIDOR (J), *L'Univers phénicien*, Paris, 1989.
- GROTANELLI (C), "Encore un regard sur les bûchers d'Amilcar et d'Elissa", in, *Atti del Congresso di Studi Fenici et Punici. I* Rome (1983), p. 437-441.
- GSELL (St.), *H.A.A.N. - II, (p. 359-401)*, Ed. 1972.
- LETOUBLON (F), *Fonder une cité: ce que disent les langues anciennes et les textes grecs ou latins sur la fondation des cités*, Grenoble. - Université des Langues et des Lettres, 1987.

- LIPINSKI (E), "La Carthage de Chypre", in, *Studia Phoenicia*, 1-2- (1983). p. 209-234.
- "Byrsa", in, Carthage et son territoire dans l'Antiquité, *IV colloque du BCTH*, Paris (1990) p. 123-129.
- LEVI - STRAUSS (C), *Anthropologie structurale (chap. XI: La structure des mythes)* Paris, 1958.
- MARTIN (R) (Ed), *Ennée et Didon: Naissance, fonctionnement et survie d'un mythe, Actes du colloque organisé par le centre d'Etudes sur l'Antiquité Rémanente (Décembre 1988)* : Paris; CNRS, 1990
- MOSCATI (S), "La fortuna di Elissa", in, *Rendiconti. dell'Accademia Nazionale dei Lincei*, 40, (1985), p. 95-98.
- NEIMEYER (H G), "A la recherche de la Carthage archaïque: premiers résultats des fouilles de l'université de Hambourg en 1986 et 1987", in, "Carthage et son territoire dans l'Antiquité" *XVe colloque du B.C.T.H.*, Paris (1990), p. 45-52.
- PICCALUGA (G), "Fondare Roma, domare Carthagine: un mito delle origini", in, *Atti del congresso di studi Fenici et punici I*, Roma, (1983) p. 409-421
- PICARD (G,Ch), *Les religions de l'Afrique antique. (Chap. II: Mythes de la fondation et de la royauté de Carthage)*, Paris, 1954.
- "Mythe et histoire aux début de Carthage", in *Atti. dell'III Congresso di Studi Fenici et Punici Vol. I*. Rome, (1991), p. 385-392.
- POU CET (J), "La fondation de Rome: croyants et agnostiques", in, *Latomus*, T53. Fasc.1, Janv. mars, (1994), pp. 95-104.
- RAKOB (F), "Fouilles à Carthage en 1990", in, *CEDAC*, n°12, (Juin 1991), p. 7-15.
- RIBICHINI (S), "Mito e storia: l'immagine dei fenici nelle Fonti letterarie Classiche", in, *Atti del congresso di studi Fenici et punici I*, (1983) p. 443-448.
- "Les Phéniciens à Rhodes face à la mythologie classique: Ruses, Calambours prééminence culturelle", in, *Atti del primo Congresso di Studi Fenici et Punici -III*, p. 341-337.
- ROUX (G), *La Mésopotamie: essai d'histoire politique, économique et culturelle*, Paris, 1985.
- SAID (S), *Approches de la mythologie grecque*, Paris, 1994.
- SCHEID (J) et SVENBRO (J), "Byrsa, la ruse d'Elissa et la fondation de Carthage", in *Annales E.S.C.*, mars-avril, (1985), n°2, p. 328-342.

- SZNYCER (M), "Le problème de la "Mégara" de Carthage", in: *Histoire et Archéologie de l'Afrique du Nord*, B.C.T.H., Paris, (1985), p 119-132.
- VEGAS (M), "Céramique de la période du géométrique récent à Carthage", in *CEDAC n°10*, (Juin 1989), p. 26-28.
- VERNANT (J.P), *Mythe et pensée chez les Grecs*, Paris, 1971
- VEYNE (P), *Les Grecs ont-ils cru à leurs mythes?* Paris, 1983.
- فنطر (محمد حسين). "حول حضور الفينيقيين في غربي البحر الأبيض المتوسط وتأسيس قرطاج." سلسلة الدروس العمومية عدد 2. منوبة 1995 ص. 111-122

الفصل الرابع

مدينة قرطاج : الإطار الحضري

حتى تاريخ قريب كنّا نجهل كلّ شيء تقريبا عن الإطار الحضري لمدينة قرطاج إذا استثنينا ما كشفت عنه الحفريات التي تمت منذ القرن التاسع عشر على أرض العاصمة البونية من معلومات ترتبط بالدرجة الأولى بالمقابر ومعبد التوفات تضاف إلى ذلك بعض المحاولات التي بذلت للتعرف على أسوار المدينة وموانئها ولكن وبالرغم من غزارة الأبحاث المقدمة في هذا الشأن وعدم إغفالها لما تقدّمه النصوص الأدبية من وصف دقيق (الأسوار والمواني وبعض الأحياء) ومحاولة مقارنة محتوى هذه المادة بالمعطيات الميدانية يجب الاعتراف أن رؤيتنا لأبسط جوانب هذه المسألة ظلت رؤية مبهمة عاجزة عن تنزيل هذه المكونات العمرانية ضمن تصوّر أرحب بإمكانه أن يقدم إجابات ولو تقريبية عن استفهامات يمكن اختزالها في مجموعة من الأسئلة لعلّ أبرزها كيف كان النسيج العمراني القرطاجي؟ ما هي حدوده؟ كيف تطوّر عبر الزمن؟...

يجب القول أن تقديم أجوبة مقنعة ونهائية على مثل هذه التساؤلات على بساطتها يظلّ أمرا عسيرا وذلك بالرغم مما تمّ تسجيله من تقدّم في هذا المجال بفضل الحفريات التي تمت أخيرا في إطار الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج وهي الحملة التي سنعود إليها لاحقا بإسهاب.

في محاولة منّا مدّ القارئ بعرض يسعى إلى تحقيق معادلة تجمع في الآن نفسه بين الدقة العلمية ووضوح الرؤية بدا لنا من الصائب اعتماد التمشي التالي: سنسعى في مرحلة أولى إلى إحاطته علما بأبرز النصوص

التاريخية المعتمدة والتي شكلت عمدة الدراسات المنجزة خاصة بالنسبة
للأسوار والموانئ.

في مرحلة ثانية سنعمل على تبصيره بالصعوبات التي يصطدم بها
كلّ علماء الآثار بدون استثناء عند قيامهم بالحفريات على أرض قرطاج
ومن أهمها ما أصاب الموقع من تدمير ومحاولات طمس منذ سنة 146 ق.م
على يد الرومان ثم على امتداد الحقب الموالية وهي ظاهرة أثّرت سلبا على
تقدّم المعرفة التاريخية في هذا المجال ومن هذا المنطلق قد لا يعي القارئ
بسهولة مدلولات بعض العبارات التي تتردّد كثيرا في تقارير الحفريات
"كطبقات الردم" و"خنادق النهب" و"سبر محدود المساحة" و"طبقات أثرية
متداخلة"... لذلك نأمل أن يُوفّق هذا الحيز في خلق نوع من الألفة بين
القارئ وبين خصوصيات موقع قرطاج.

في مرحلة ثالثة: لما كانت الحفريات المقامة في السنوات الأخيرة
بتنسيق بين البلاد التونسية ومنظمة اليونسكو تعدّ أبرز منعرج سَجَل في
تاريخ الدراسات البونية على امتداد العشرين سنة الأخيرة فقد رأينا من
المفيد التعرّض بإيجاز لمختلف هذه البعثات مع التركيز على أعمال البعثات
الألمانية والفرنسية والتونسية والانقليزية والأمريكية لما لها من صلة
بمحتوى هذا الفصل.

بعد هذه التوطئة سنخصص ما تبقى من هذا الفصل إلى استعراض
آخر ما وقع التوصل إليه من نتائج تخص الإطار الحضري للعاصمة
البونية: ونحن نسعى إلى تقديم صورة أقرب ما تكون إلى الوضوح فقد
ارتأينا تقسيم تاريخ قرطاج إلى ثلاث فترات أولى تطلق عليها معظم
الدراسات تسمية قرطاج العتيقة (archaïque) وتغطي إجمالا الثلاث القرون
الأولى من تاريخ هذه الحضارة أي من القرن الثامن حتى القرن السادس قبل
الميلاد ثم فترة ثانية تغطي القرنين الخامس والرابع والنصف الأول من
القرن الثالث فيما تغطي الحقبة الثالثة والأخيرة ما تبقى من تاريخ هذه

الحضارة متّبعين في ذلك المنعرجات الهامة لحركة التمددين القرطاجي وذلك حتى لا تتداخل في ذهن القارئ جملة التحولات التي شهدتها أرض قرطاج. ونحن نودّ الإشارة إلى أن هذا التقسيم الكرونولوجي رائج في عديد الأبحاث الحديثة نذكر منها على سبيل المثال أبحاث س. لانسال (S.Lancel) ولكن من الضروري التنبيه إلى أن التقسيمات الكرونولوجية قد تختلف إذ من الشائع أن يدرج بعض الباحثين ملاحظاتهم حول التمددين في قرطاج متبئين تقسيمات زمنية يعتمد فترتين فقط: الفترة العتيقة (وهي محل إجماع) وما تبقى من تاريخ قرطاج (القرن الخامس حتى سنة 146 ق.م).

من حيث المصطلحات المعتمدة قد توقع التسميات المتداولة القساري في بعض الخلط إذ تطلق على الفترة الأولى عادة تسمية قرطاج العتيقة وهي التسمية الأكثر ذيوفا ولكننا نصادف أحيانا تسمية قرطاج الأولى ويكتسبي الأمر بعض الصعوبة عند التعرض للفترة الثانية إذ يطلق عليها البعض تسمية قرطاج الماغونية (نسبة إلى العائلة الماغونية) التي قد تكون مسكت بمقاليد السلطة في قرطاج خلال هذه الفترة (بطل تاريخ نهاية العائلة محل جدل بين المؤرخين) ولكننا نجد أحيانا تسمية العصر البوني الأوسط (punique moyen) (أعمال ه.ج. نيمير مثلا) وأحيانا أخرى قرطاج الكلاسيكية (La Carthage classique). أمّا الفترة الأخيرة فتسمى غالبا قرطاج الهيلينستية (hellénistique)* وطبيعي أن يتفطن كلّ عارف بتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط القديم وخاصة في جزئه الشرقي إلى هذا الإسقاط الواضح لواقع الحضارة اليونانية من حيث التسميات المعتمدة على الحضارة البونية وهو ما يستدعي منا بعض الحذر عند استعمالها.

* الفترة الهيلينستية (L'époque hellénistique) = تسمية تعود المؤرخون إطلاقها على الفترة التي تلت وفاة الإسكندر المقدوني سنة 323 ق.م. وقد تميّزت بتلاحح كبير بين الحضارات الشرقية والحضارة الإغريقية وتنتهي هذه الفترة باحتلال روما لمملكة مصر في سنة 30 ق.م.

المصادر الأدبية والنقائشية

يعتبر نص الكاتب الإغريقي أبيانوس أحد أشهر الوثائق الأدبية المعتمدة من قبل الدراسات الحديثة في محاولتها التعرف على أسوار المدينة وموانئها بالخصوص إذا ترك لنا هذا المؤلف وصفا دقيقا لهذين المعلمين يرقى إلى السنوات الأخيرة من حياة مدينة قرطاج وبالتحديد عندما حاصرها الرومان ما بين السنوات 149 و146 ق.م وبالرغم من طابعه المتأخر مقارنة بتاريخ الأحداث المروية بحكم أن الكاتب عاش خلال القرن الثاني بعد الميلاد فإن المؤرخين المحنثين يتقنون في هذه الرواية باعتبار أنها اعتمدت على مؤلف كاتب 'حضر الأحداث هو بوليبيوس والذي كان من خاصة القائد الروماني سقيبيو الإميلي.

يمكن تقسيم المعلومات الواردة لدى أبيانوس عند حديثه عن التحصينات الدفاعية والمواني القرطاجية إلى

- تقديم جغرافي لموضع قرطاج
- بعض التفاصيل عن الحصون القرطاجية
- وصف للمواني القرطاجية = الميناء التجاري - الميناء العسكري
- جزيرة الأميرال
- وصف دقيق لسير المعارك مع إضافات قيمة تخص الحصون والمواني.
- استيلاء الرومان على منطقة الميغارا (Mégara).
- عودة إلى وصف دقيق للمعارك بين الجانبين مع معلومات أخرى عن المواني والحصون.

بالإضافة لما أورده أبيانوس نجد إشارات عابرة لدى بعض المؤرخين الكلاسيكيين أحكم جمعها واستثمارها س.قزال وأ.أدلون ونذكر منها على سبيل المثال الإشارات الواردة لدى بوليبيوس وتعلق بموضع قرطاج (5-4،73،I) والجغرافي اليوناني سترابو (14،3،XVII) الذي يشير إلى

موضع الأكربوليس المنتصب وسط المدينة يعلوه معبد الإله اسكولابيوس كما نجد إشارات واردة عرضا في مؤلف ديودوروس الصقلي المكتبة التاريخية وبالتحديد في الكتب III، 44، 8 (مواني قرطاج المنحوتة في الصخر) و XV، 73، 3-4 (احتراق الترسانة البحرية القرطاجية) و XX، 44 (المدينة الحديثة) و XXXII، 24 (الأسوار القرطاجية) إضافة إلى ما يمكن استقراؤه باعتماد فلوروس (I، 31، 11) وب.أوروزيوس (IV، 22) والشاعر ورجيليوس (I، 365 و IV، 265 و 347...).

أمّا بالنسبة إلى النصوص النقائشية فيقتصر الأمر على نص وحيد نطلق عليه اليوم غالبا تسمية نقيشة التمدين القرطاجي ويعود على ما يرجح إلى فترة القرن الثالث قبل الميلاد ولازال محتوى النص المذكور حتى اليوم موضع جدل كبير بين المختصين إذ تتباين الآراء حول تأويل العبارة الواردة في سطره الأول وستكون لنا عودة إلى هذه الوثيقة عند الحديث عن التمدين القرطاجي خلال الفترة الممتدة من بداية القرن الثالث حتى 146 ق.م.

وضعية أثرية تتميز بكثير من التعقيد

شدّت كل تقارير الحفريات تقريبا على الصعوبات الجمّة التي يواجهها علماء الآثار عند قيامهم بحفريات على أرض قرطاج بسبب التغيرات التي عرفها الموقع على امتداد تاريخه ويمكن للمهتم أن يلاحظ ذلك دون أدنى صعوبة على هضبة بيرصا مثلا وهي تعطي صورة نموذجية عن هذه الظاهرة فقد عمد الرومان سنة 146 ق.م إلى حرق المدينة ودكّ معالمها واتخذوا قرارا بمنع البناء على أرضها باعتبارها أرضا ملعونة. وعلى امتداد قرن من الزمن تقريبا تكالبت العوامل الطبيعية لتضفي على هذا الموضع تشويهاات إضافية (انجراف، طمي..). عادت مدينة قرطاج بعد حوالي عشرينين من سقوطها إلى مركز اهتمامات الرومان

وذلك على هامش الصراع الاجتماعي في روما بين الأرستقراطية والعامّة التي كانت تنزّو إلى الاستفادة من حركة التوسّع باكتساب الأراضي وإنشاء المستوطنات، ففي حدود سنة 123 ق.م نجح نواب العامة في فرض هذا المطلب وعُهد للجنة ثلاثية بالإشراف على توطين المعمّرين وكان كايوس قراكوس (Caius Gracchus) أبرز أعضائها فأقرّت إنشاء مستعمرة قرطاج اليُونيَّة (Colonia Iuononia Karthago) وقاد فولفيوس فلاكوس (Fulvius Flaccus) - نائب العامة - سنة آلاف معمر ثم تبعه كايوس قراكوس سنة 122 ق.م. للإشراف على إنجاز المشروع لكنّ مجلس الشيوخ أثار في نفس الوقت حملة دعائية واسعة ضدّ نائبي العامة المذكورين أساسها تحديهما لإرادة الآلهة في التخلّي النهائي عن موقع قرطاج البونيّة وذلك لإضعاف تأثيرهما السياسي وتفادي إعادة انتخابهما وقد نجح خصومهما في إقصائهما وإصدار قانون إلغاء مستعمرة قرطاج سنة 121 ق.م ورغم المحدودية الزمنية لهذا المشروع فقد ترك تقسيم الوحدات العمرانية شواهد شمال غرب ملعب السرك الروماني أي على هامش المناطق المركزية للمدينة البونية.

تبدّدت تدريجياً وطأة المنع الديني مع بداية المنعرج الجدي لسياسة الاستيطان الروماني لشمال إفريقيا فقد أمر يوليوس قيصر سنة 44 ق.م - قبيل مقتله - بإحداث مستعمرة قرطاج اليُوليَّة (Colonia Concordia Iulia Karthago) وألحق بمجالها السّترابي (Pertica) مجموعات المواطنين الرومان المتمركزين في ضواحي المدن الأهلية، أي أنّه ارتأى لها دور العاصمة الجديدة للمقاطعة وقد تمّ تجسيم المشروع بعد مقتل يوليوس قيصر بقليل وذلك بتركيز ثلاثة آلاف مستوطن بقرطاج في تاريخ يُعتقد أنّه ينزل قبل سنة 40 ق.م. وأثناء إشراف ليدوس (Lepidus) على شؤون ولايتي إفريقيا من سنة 40 إلى سنة 36 ق.م عاشت مستوطنة قرطاج فترة من التجميد وضع لها أكتفيوس حدّا عندما آلت إليه مسؤولية الإشراف على

شؤون الولايتين الإفريقيتين. وتمثلت أهم مبادرات أكتفيوس في تدعيم مستوطنة قرطاج وذلك بتركيز ثلاثة آلاف مستوطن أضيفوا للمجموعة التي كان يوليوس قيصر قد أمر بتتصيبها.

سعى الرومان في البداية وكما بين ذلك س. لنسال لتجميع كل ما يمكن. استغلاله من مواد لإعادة تشييد المدينة ثم عمدوا إلى تغيير وجه بيرصا من ربوة نائمة إلى هضبة منبسطة تتراوح مساحتها بين 3 و 4 هكتارات وأدت هذه العملية الأخيرة إلى تكديس ما يقارب المائة ألف متر مكعب من الأتربة على السفوح وهو ما يعرف في تقارير الحفريات بطبقة الردم التي غطت طبقة التدمير الأولى والتي تعود إلى سنة 146 ق.م. ولتجنب ما قد يصيب هذه الطبقة من انهيار عمد الرومان إلى إقامة حيطان لإحاطتها تطلق عليها تقارير الأثريين تسمية حيطان الدعم ولا تزال بقاياها جلية حتى اليوم وبذلك أعد المهندسون الرومان فضاء بإمكانه احتواء مجموعة من المعالم تعتبر رمزا للسيادة الجديدة كالפורوم وبعض المعابد. مما تقدم وأسوة بس. لنسال نتبين أنه من المستحيل أن نعث على آثار قلعة بيرصا البونية بمكوناتها التي تذكرها المصادر الأدبية كالحصون ومعبد الإله أشيمون... بسبب الأشغال التي أشرنا إليها آنفا وللتدليل على ذلك يمكن الاكتفاء بالمثال الوارد لدى نفس الباحث والمتعلق بخزانات المياه البونية التي يتراوح عمقها حاليا بين متر و1,5 متر وهي أرقام لا تعكس حقيقة عمقها الأصلي والذي كان لا يقل عن 3.5 م إن لم نقل 4 أمتار.

في المقابل وبالنسبة إلى الأجزاء الوسطى والمنخفضة من الهضبة شكلت طبقة الردم التي تراكمت فوق ما تبقى من آثار الحضور القرطاجي نوعا من الغلاف الحامي يصل سمكه في بعض النقاط إلى عشرة أمتار وهو غلاف لم يقع اختراقه إلا من قبل أسس البنايات الرومانية وذلك في بعض المواضع فقط.

إن إبداء هذه الملاحظات الأساسية أمر لا مناص منه

حتى يفهم المهتم بتاريخ التمدن القرطاجي والزاثر لموقعها سرّ غرابة الوضعية الأثرية التي يشاهدها على أرض الواقع حيث يلاحظ تناسد شواهد الحضارة القرطاجية على الأجزاء المنخفضة من الهضبة تعلوها أو تشرف عليها الحجارة الضخمة التي شكّلت أسس المعالم الرومانية الممتدة على قرابة أربعة قرون من التاريخ والواقع أنّ هذه الوضعية قد تختلف من موقع إلى آخر نظرا للاختلافات الطبوغرافية. ولكن يمكن لنا أن نقبل إجمالا بوجود مجموعة من الملاحظات يمكن سحبها على الموقع بأكمله.

أ - توالي الحضارات مع ما يترتب عن ذلك من طمس لمعالم قرطاج

البونية

بعد فترة الحضور الروماني سقطت إفريقيا تحت سيطرة الوندال مع أواسط القرن الخامس بعد الميلاد وأصبحت قرطاج عاصمة لمملكتهم على امتداد قرن من الزمن قبل أن ينتصب على أرضها البيزنطيون حتى قدوم العرب المسلمين الذين استولوا عليها في نهاية القرن السابع ثم تركوا موقعها مفضّلين عليه مواقع أخرى.

ب - الضغط العمراني الحديث

بعد فترة توقف عادت حركة البناء على أرض قرطاج لتتشط مجدداً خلال القرن التاسع عشر خاصة بعد مدّ الخط الحديدي الرابط بين تونس وحلق الوادي والمرسى وهي ظاهرة تسارعت خلال الفترة الأخيرة بسبب وجود موقع قرطاج بين ثلاث تجمعات عمرانية شهدت نمواً سكانياً حثيثاً وقد عنيّا ضواحي حلق الوادي والمرسى وسيدي أبي سعيد وطبيعي أن تتحول ضاحية قرطاج كغيرها من بقية مناطق الضاحية الشمالية إلى منطقة جاذبة للسكان وأن تعتبر أرضها، كما أبرز ذلك ع.النايلي، بمثابة امتداد طبيعي معدّ لتوسع العاصمة تونس.

أصبح موقع قرطاج بسبب هذا الضغط العمراني مهتداً وبديهي أن تتسبب المباني المقامة في إعاقة الأبحاث المعاصرة من هنا نفهم طبيعة بعض الحفريات المنجزة كالحفريات الألمانية التي تهمنا بالدرجة الأولى في هذا الفصل وقد اقتصرنا غالباً (باستثناء الحفريات المواجهة لمبنى بيت الحكمة اليوم المعروفة اصطلاحاً "بحي ماغون") على سلسلة من الأسبار العميقة حققت بالرغم من محدوديتها على مستوى الامتداد نتائج على قدر لا يستهان به من الأهمية.

هذا الثراء التاريخي يفسر في الآن نفسه التعفد الذي يلاحظه كل دارس لتاريخ قرطاج البونية باعتبار أن الوصول إلى الطبقات الأثرية التي تعيننا يمر حتماً عبر اختراق طبقات أخرى هي أيضاً شواهد على الفترات اللاحقة وهنا تطرح على عالم الآثار قضية التمييز بين مختلف الحقب أو فنقل بين مختلف الأدلة على هذه الحقب وللتدليل على ذلك يمكن أن نشير إلى السبر الذي أنجزه ف. راكوب قرب شارع الجمهورية اليوم والذي كشف فيه عن وجود 16 طبقة أثرية.

الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج

كما أشرنا إلى ذلك سابقاً لم يوفر إشعاع قرطاج التاريخي مناعة تحمي موقعها من الاجتياح العمراني الحديث وذلك بالرغم من الجهود التي بذلت منذ انتصاب الحماية الفرنسية في أواخر القرن الماضي وقد ارتبط الاهتمام منذ البدء بغايات استعمارية صرفة إذ شكّل البحث عن آثار الحضور المسيحي الهاجس الأول الذي دفع بالكاردينال لفيجري (Lavignerie) إلى تكليف الأب دولاتير (Delattre) بالبحث عن شواهد هذا الحضور بهذا الموقع ومع مرور السنين تعاضم خطر سقوط قرطاج في طي النسيان الأبدي.

في هذا الإطار بالذات ينتزل النداء الذي أطلقته منظمة اليونسكو بمبادرة من الدولة التونسية لإنقاذ موقع قرطاج وقد أثمر سلسلة حملات أثرية تبنتها مجموعة من البلدان استجابت لهذه الدعوة بتنسيق مع المعهد الوطني للتراث وسنركز في هذا الموضع من دراستنا على أعمال:

* البعثة الألمانية: غطت تدخلات البعثة الألمانية قطاعا عريضا تركّز بالخصوص أسفل هضبة بيرصا بمحاذاة البحر لكن هذا لم يمنع ف.راكوب (F.Rakob) من القيام بأسفار عميقة خارج المنطقة المذكورة في محاولة للكشف عن حدود "المدينة العتيقة". وقد تدعمت الجهود الألمانية في فترة لاحقة بمشاركة ه.ج. نيمير والذي يعتبر من أفضل المختصين في تاريخ المواقع الفينيقية بشبه الجزيرة الايبيرية.

* البعثة البريطانية: تركّزت أعمال هذه البعثة تحت إشراف ه.هورست (H.Hurst) في منطقة المواني القرطاجية وعمل هذا الفريق بتنسيق مع فريق ثان أشرف عليه. ل.ستيجر (L.Stager) تركّزت جهوده على حافة ما يعرف اليوم بميناء قرطاج المستطيل (في ضاحية صلامبو اليوم).

* بعثة مشتركة كندية أمريكية تحت إدارة أ. جيفورد (J.A. Gifford) وف.فيتالي (V. Vitali): قامت هذه البعثة بإيجاز مجموعة من الأسفار السترائغرافية والجيولوجية كان الهدف من ورائها محاولة رصد التطور الجيولوجي الذي عرفته منطقة المواني وهي منطقة تستمد أهميتها لا فقط من وجود هذه البنية البحرية التي تقيم الدليل على درجة الإلتقان التي بلغها القرطاجيون في هذا الميدان بل وكذلك من وجود معبد "التوفات" الذي يرقى إلى الفترات الأولى من تاريخ قرطاج والذي كان محلّ اهتمام الباحث ل.ستيجر وقد أثرت النتائج التي تمّ التوصل إليها معرفتنا التاريخية بجوانب كانت حتى تاريخ قريب مجهولة وتتعلق بالحياة الدينية .

* البعثة الفرنسية: تركّزت أعمالها تحت إشراف س.لنسال وج.ب. مورال (J.P.Morel) على هضبة بيرصا وبالتحديد على السفح الجنوبي منها حيث أمكن الكشف عن حي سكني يعود إلى الفترة المتأخرة من تاريخ قرطاج وقد ثبت أن هذا الحي أقيم على أنقاض ورشات تعدينية أخذت بدورها مكان مجموعة من القبور ترقى إلى الفترة العتيقة (تطلق على هذه النقطة اليوم تسمية اصطلاحية: حي حنبل).

* الفريق التونسي: اتخذت الحفريات التونسية غالبا طابع الحفريات العاجلة التي أملت ظروف خاصة بالكشف عن لقي تستوجب تدخلا سريعا في نقاط هي على ملك البحث الأثري وسرعان ما تحولت هذه التدخلات إلى حفريات منظمة في نقطتين على الأقل توجد الأولى على مستوى ما يعرف بنهج عشتريت فيما توجد الثانية بضاحية الكرم قبالة الملعب البلدي اليوم.

النسيج العمراني القرطاجي

ظلت معرفتنا بالنسيج العمراني القرطاجي على امتداد فترة طويلة محدودة ذلك أن ما أنجز من تنقيبات أثرية قبل الحملة العالمية لم يسمح بالكشف إلا عن مجموعة من المقابر تغطي زمنيا فترات ممتدة إضافة لمعبد التوفات الموجود جنوب موقع قرطاج ويتسنى للمتأمل في خريطة توزيع المقابر العتيقة (القرن السابع والسادس) أن يلاحظ دون صعوبة أنها تمتد على شكل هلال يحيط بسهل ساحلي يحده معبد التوفات جنوبا والبحر شرقا ومحور يخرق حمامات انطونيوس شمالا وأسهل هضبة بيرصا غربا وتنتج الدراسات اليوم نحو إثبات أن ما يسمى "مدينة الأحياء" كان يمتد على هذه السهل .

المدينة العتيقة : القرن الثامن - القرن السادس قبل الميلاد

إلى حدّ سنة 1983 لم تتوفّر الحفريات في الكشف عن آثار مدينة قرطاج العتيقة إذا ما استثنينا طبعا المقابر ومعبد التوفات ولكن تدخلا عاجلا في ما تطلق عليه تقارير الحفريات تسمية "ملكية بن عباد" الواقعة بضاحية قرطاج حنبعل اليوم شرق الخط الحديدي سمح للبعثة الألمانية بالكشف عن حائط يرقى إلى أواخر القرن الثامن وقد مثّل هذا الاكتشاف الحلقة الأولى في سلسلة من الاكتشافات تعود جميعها إلى الفترة العتيقة ولعل أبرزها ما تمّ العثور عليه في النقاط التالية:

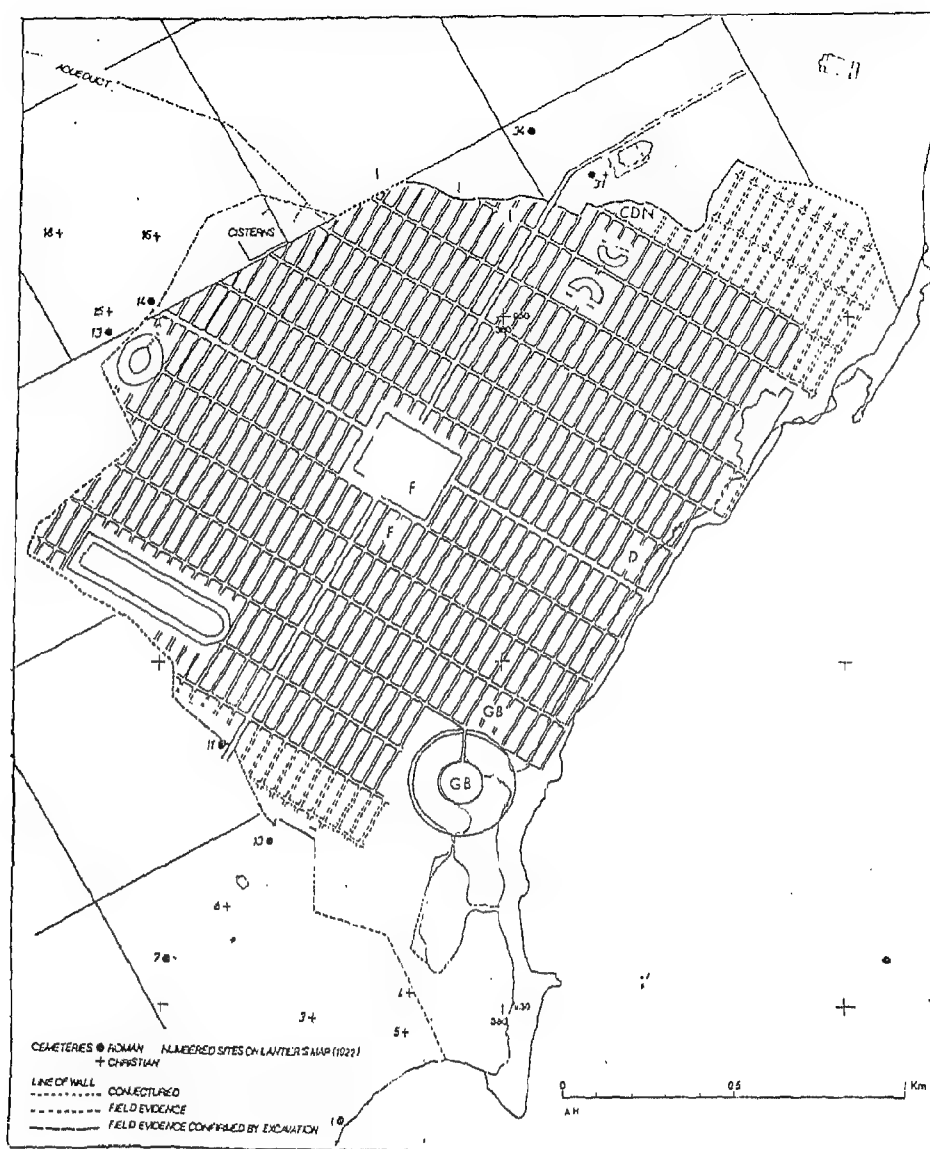
- في حي ماغون وبالتحديد في جزئه الغربي قرب لهج سببتيوس سيويروس اليوم تمّ الكشف عن حائطين يعودان إلى القرن السابع قبل الميلاد
- بعد إنجازها لسبر عميق على حافة البحر على مقربة من شارع الجمهورية اليوم توصلت البعثة الألمانية للتعرف على ستة عشر طبقة أثرية

وتكمن أهمية النتائج المحققة لا فقط في ما تمت الإشارة إليه بل وأيضاً في نجاح أفراد البعثة في تحديد الخط الساحلي العتيق (القرن السادس قبل الميلاد) والذي كان يوجد على مسافة ثمانين متراً تقريباً غرب الساحل الحالي الموافق إجمالاً لساحل القرن الخامس قبل الميلاد.

- توصلت البعثة البريطانية عند القيام بمدّ شبكة التطهير بفراطاج للكشف عن طبقة أثرية تعود إلى الفترة للعتيقة وبالتحديد إلى القرن السادس قبل الميلاد وذلك على مستوى نهج سوفونسب اليوم ويشير تقرير البعثة الصادر بتاريخ أكتوبر 1989 (نشرية CEDAC) إلى شواهد عن وجود مباني خشبية؟ تختلط بطبقات أثرية تغطي فترة زمنية طويلة تمتد من الفترة العتيقة حتى تاريخ تحطيم المدينة وقد تمّ التعرف على ذلك على مستوى نهج بليونس اليوم.

أمكن لفريق البحث التونسي أن يحقق إنجازات مماثلة في موضعين على الأقل: الأول بضاحية قرطاج حنبل وذلك عندما دعي للتدخل عند إنجاز منزل يوجد على مستوى الزاوية الواقعة بين شارع بورقيبة وشارع الجمهورية وتحملنا الطبقات الأثرية المكتشفة في هذا الموضع إلى النصف الثاني من القرون السابع قبل الميلاد أما الموضع الثاني فيقع بين الكاردو XII والكاردو XIII شمال الديكومانوس I الشمالي مباشرة* (انظر وثيقة قرطاج الرومانية). وقد بلغ عمق السبر المنجز خمسة أمتار وأثبت تواصل الحضور البشري بهذه النقطة من الفترة العتيقة إلى تاريخ تحطيم قرطاج.

* تعودت تقارير الحفريات أن تحيل الفارئ باعتماد التخطيط الروماني لمدينة قرطاج وهو تخطيط مبني على تقسيم الموضع المراد بناؤه إلى وحدات متساوية انطلاقاً من محورين رئيسيين متعامدين وتشكل نقطة لفاطعتهما الساحة العامة أو الفوروم وتطلق على المحور الأول تسمية ديكومانوس ماكسيموس (*decumanus maximus*) (اتجاه شرق - غرب) وتحمل الشوارع التي تتبع بنفس الاتجاه اسم ديكوماني (*decumani minores*) (جمع ديكومانوس) وتكون أقل عرضاً من المحور الرئيسي وتسد لها أرقام. ويطلق نفس التصور على الاتجاه المقابل إذ يحمل المحور الرئيسي الثاني (شمال جنوب) اسم كاردو ماكسيموس (*cardo maximus*) وتسمى الشوارع الموازية كاردبناس وتسد لها بدورها أرقام (*cardines minores*).



تخطيط الرومانية

Hurst (H), ROSKAMS (S.P.), in, Cahiers des Etudes Antiques XVIII, : الفصل

(1985, fig4, p.151.

- أنجزت البعثة الألمانية تحت إشراف ه.ج. نيمير مجموعة من الأسبار على مقربة من "ملكية بن عياد" وبالتحديد تحت مستوى الديكومانوس الرتيسي الروماني على مستوى الزاوية مع الكاردو X وتوصلت للكشف عن حيطان تعود إلى أواخر القرن الثامن وبداية القرن السابع قبل الميلاد ثم وخلال شهري مارس - أبريل 1987 أنجزت نفس البعثة 6 أسبار عاجلة قرب نهج سبتييموس سيويروس على أرض هي على ملك البنك المركزي التونسي وتسلي لها ملاحظة تواصل الحضور السكاني إنطلاقا من القرن الثامن على الأقل.

قبل الخوض في ما يمكن استقراؤه من نتائج بالاعتماد على مجمل الملاحظات السابقة حري بنا أن نبدي ملاحظتين على قدر كبير من الأهمية. يلاحظ كل مهتم بهذا الملف اعتماد الباحثين شبه الكلي على ما تقدمه الحفريات من نتائج وإذا ما رعبنا في الخوض بأكثر دقة في هذه النقطة يجدر التذكير بأن ما سنعرض له من نتائج ينبني في الحقيقة على ما تم إنجازه من أسبار في نقاط مختلفة من هذا السهل الساحلي نظرا لاستحالة القيام بحفريات ممتدة من شأنها أن تقدم أجوبة جازمة حول عدد التساؤلات. ولا يفوت كل متتبع لتقارير الحفريات أن يلاحظ منذ الوهلة الأولى غياب أعلى هضبة بيرصا من قائمة المواضع التي قدّمت شواهد عن حضور سكاني عتيق وهو ما يتنافى ظاهريا على الأقل مع ما تحمّلنا بعض المصادر الأدبية على القبول به حيث تجعل من بيرصا مركز الاستقرار الفينيقي الأول (نص يوستينوس بالخصوص بالرغم من طابعه الأسطوري) غير أنه يمكننا اليوم القول دون خشية مجانبة الصواب أنه من المستحيل اليوم أن يقدم هذا الفضاء أدلة مماثلة لتلك التي قدّمها بسبب ما أصابه من تغيير خلال الفترة الرومانية خاصة.

بالرغم من هذه النقص فإننا نستطيع أن نسوق بعض الملاحظات الأساسية المتعلقة بما تعودت الأبحاث تسميته بالنواة العمرانية الأولى بقرطاج.

تشكل المقبرة العتيقة الممتدة على ما يرجح بين هضبة يونس وحمامات انطونيوس الحد الشمالي لهذه النواة وتمثل شواهد نهج سوفونيسب والتي ترقى إلى القرن السادس قبل الميلاد أقرب الشواهد إلى هذه المقبرة.

في الاتجاه المقابل أي نحو الجنوب يمثل الخط الذي يمرّ على مسافة 35 مترا شمال الديكومانوس الرابع الروماني الحدّ الجنوبي للنواة السكنية القرطاجية العتيقة كما أثبت ذلك السبران المنجزان تحت مستوى الكاردو الثالث الروماني حيث تمّ العثور على آثار أفران لصنع الخزف تعود إلى أواسط القرن السابع والقرن السادس قبل الميلاد (أنشطة "ملوثة" توجد عادة على أطراف النواتات السكنية).

قدمت مجموعة الأسار المنجزة غرب نهج سبتيموس سيويروس بين الكاردو XV والكاردو XVI أدلة لا تدع مجالا للشك عن حضور حرفي تعود بداياته إلى القرن الثامن (خبث معادن، أفران، مستويات حرق عميقة بالإضافة إلى مخازن للمريق المفتت) وهو ما يجعلنا نقبل فرضية وجود حرفي وقع إنشاءه منذ البداية على مقربة من ساحل الفترة العتيقة على هامش النواة العمرانية الأولى.

لابدّ لنا في هذا الموضوع من الدراسة أن نذكر بأنّ أقدم اللقى الفخارية قد تمّ الكشف عنها في هذه النقطة بالذات وتتمثل بالأساس في مجموعة من الأكواب الأوبيّة تثبت وجود مبادلات تجارية بين قرطاج والمدن الايجية تعود إلى الربع الثالث من القرن الثامن وربما إلى الربع الثاني من نفس هذا القرن وتعتبر الباحثة م. فيقاس (M.Vegas) أنه من الطبيعي أن تبلغ هذه المنتوجات أرض قرطاج نظرا لاتساع انتشارها في حوض البحر الأبيض المتوسط (صقلية، منطقة كمبانيا، روما، أترو ريا، ووالبة بإسبانيا) ولذلك تقرّ نفس الباحثة بأن لا شيء يدعونا للشك في أن تكون نفس السفن التي بلغت جزيرة صقلية قد ربطت أيضا علاقات تجارية مع قرطاج. ومن جهة أخرى وبالعودة إلى تقارير الحفريات يمكن لنا اليوم نتبع شواهد عن المدينة

العتيقة على مسافة لا تقل عن 400 متر تقريبا أي من الخط الساحلي العتيق إلى السفوح المتوسطة لهضبة بيرصا حيث أمكن للمختصين أن يلاحظوا أن التنظيم العمراني اعتمد تخطيطا على شكل مروحي يراعي خصوصيات هذه الناحية من موقع قرطاج وحسب ف. راكوب سيظل نفس هذا التصور المروحي أو الشعاعي معتمدا خلال الفترات اللاحقة. أما بالنسبة إلى السهل الساحلي فقد أبرزت الأسبار المنجزة على ملكية بن عياد وشرق هذه النقطة أن القرطاجيين اعتمدوا تخطيطا متعامدا وهو تصور اعتمده المهندسون الرومان فيما بعد كما سنبرز ذلك لاحقا.

كيف تطورت هذه النواة الأولى خلال الفترة الموالية؟

التمدين القرطاجي : القرن الخامس أواسط القرن الثالث قبل الميلاد

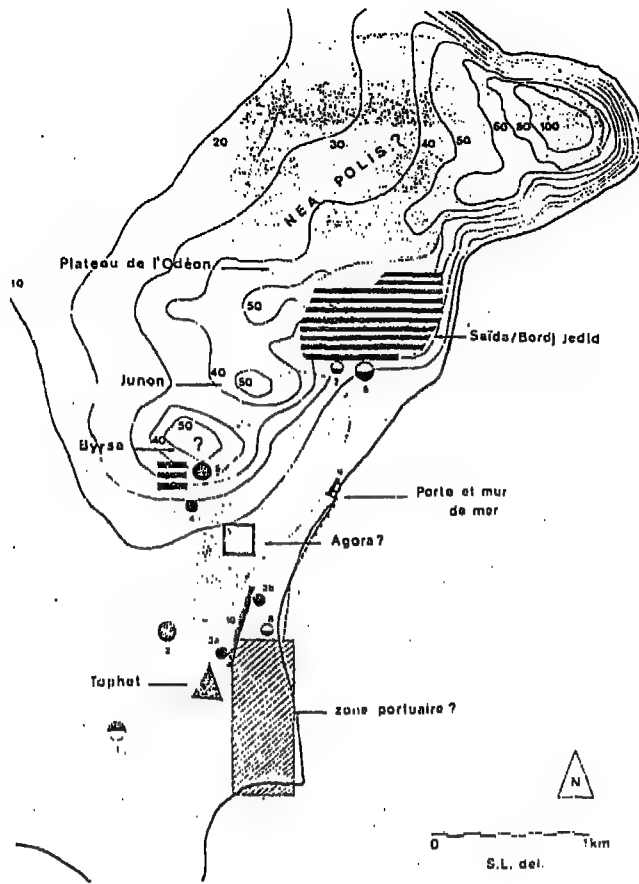
سمحت الأسبار المنجزة بين هضبة بيرصا والخط الساحلي بتتبع تطور التمددين القرطاجي في مراحل الكبرى على الأقلّ يضاف إلى ذلك ما يمكن استقراؤه من مجموعة المقاييس المساعدة على ضبط حدود امتداد المدينة خلال الفترة الموالية مقارنة بالفترة السابقة. لذلك يمكن الجزم أن التمددين بقرطاج عرف وبشهادة كلّ الدلائل الأثرية تطورا هاما خلال القرون الخامس ويعتبر امتداد النواة السكنية أبرز تجليات هذا التحول وقد أمكن رصد هذا الامتداد باعتماد سلسلة من المقاييس أهمها:

- التعرف على المواضع الجديدة للورشات الحرفية خلال هذه الفترة وخاصة منها تلك التي لا تتلاءم والأحياء السكنية. ومن هنا نشأت ضرورة إبعادها نحو الأطراف. ويعي القارئ أن مثل هذه النوعية من الاكتشافات الأثرية تساعد على ضبط حدود المدينة خلال الفترة التي تعيننا بالدرس.

نفس هذه الملاحظات يمكن أن تنطبق على المقابر المستعملة خلال نفس هذه الحقبة (مع ضرورة الحذر عند استعمال هذا المقياس نظرا لإمكانية استعمال نفس القبور على امتداد فترات مختلفة). هذا طبعا بالإضافة لما قمت به مجموعة

الأسباب المنجزة في مواضع شتى وسمحت بتأكيد نفس النتائج حول امتداد المدينة وحودها الجديدة وهي أولى النقاط التي نتاولها بالدرس في عرضنا.

لم تعرف المدينة العتيقة على ما يبدو امتدادا كبيرا نحو الشمال ونحو الغرب باستثناء المنطقة المحاذية لهضبة يونو وذلك ربّما بسبب وجود عدد من الورشات التي تمّ تركيزها على أطراف المقبرة العتيقة وكانت على ما يبدو تعرقل امتداد المدينة في هذا الاتجاه ويستدلّ من النسل على ذلك بوجود أفران للخزافين على السفوح الأولى لهضبتي درمش والدويماس (= نحو الشمال) أما في اتجاه الغرب فقد كشفت الحفريات الفرنسية عن وجود مجموعة من ورشات التعدين على هضبة بيرصا تعود إلى الفترة الممتدة بين أواخر القرن الخامس وأواخر القرن الثالث قبل الميلاد ويتطابق ذلك تقريبا مع الفترة التي تهماها في هذا الموضع من الدراسة. لذلك يجوز لنا القول أن التمدن القرطاجي لم يعرف امتداداً في هذا الاتجاه أيضا. نحو الجنوب تصبح الوضعية أكثر تعقيدا ولا بدّ من الاعتراف أنه من غير اليسير اليوم تقديم رؤية واضحة للمسألة وكلّ ما يمكن ملاحظته هو أن ف.راكوب يشير إلى توقّف الأنشطة الحرفيّة الواقعة جنوب النواة العتيقة (ضاحيتي صلابو والكرم اليوم). وكنا بيّنا في ما سبق أنها مثلت حدودا للمدينة العتيقة في هذا الاتجاه. ويعتبر الباحث الألماني ذلك دليلا على امتداد التمدن إلى ما وراء خط الديكومانوس الروماني الرابع بدابة من النصف الثاني من القرن الخامس وأوائل القرن الرابع. لكن وبالرغم من هذا الامتداد يرجح أن المدينة لم تبلغ جنوبا معبد التوفات بدليل ما تمّ الكشف عنه من فضاءات حرفيّة في هذه الناحية من موضع قرطاج من قبل ف.شليبي وكذلك من قبل أعضاء البعثتين الأمريكية والبريطانية (بمحاذاة ما سيصبح في الفترة اللاحقة الميناء التجاري ودخل جزيرة الأميرال). ويتعلّق الأمر بورشات تعدين تظل مستعملة حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد. (انظر وثيقة قرطاج أواخر القرن الخامس بداية القرن الثالث ق.م.).



قريطاج . أواخر القرن الخامس بداية القرن الثالث قبل الميلاد

المصدر: LANCEL (S), CRAI, 1985; p.737.

- في الوسط وبمحاذاة الساحل نجد الأحياء السكنية تحدها شمالا مقبرة السيدة/ البرج الجديد. أما في اتجاه الجنوب فتحدها المقبرة التي توجد على السفح الغربي لهضبة بيرصا.
- تم الرمز إلى الأنشطة الحرفية كالتالي:

● ورشات تعدين

● ورشات فخار

● ورشات ديك

- نحو الشمال موضع للدينة الجديدة التي أشار إليها ديودوروس الصقلي عند تعرضه لحفلة أغاثوكلاس على إفريقيا XX، 44، 1 (على سبيل الافتراض).

يرى س. لنسال أن هذه الاكتشافات تدعّم ما وقع العثور عليه من آثار لورشات خزف منذ فترة طويلة من قبل ل. بوانسو (L. Poinssot) ور. لنتي (R. Lantier) لذلك يخلص للقول أن ضبط حدود دقيقة للمدينة جنوبا خلال هذه الفترة يظل أمرا غير هيّن. وتزداد القضية تعقيدا بالنسبة للجهة الجنوبية الشرقية وتحديدا ما يعرف بمنطقة المواني حيث تُجمّع تقارير الحفريات على القول بأن طوبوغرافية هذه المنطقة قبل القرن الثالث قبل الميلاد تبقى مجهولة حتى الآن. فخلال ما كان منتظرا أثبتت الحفريات الأمريكية والبريطانية أن إنشاء المواني القرطاجية الشهيرة لا يمكن أن يعود إلى تاريخ أقدم من النصف الأول من القرن الثالث (بالنسبة للشروع في تهيئة الميناء التجاري). أما أقدم ما عثر عليه فيتمثل في قنال يبلغ طوله حوالي 300 متر ويتراوح عرضه بين 15 و20 متر ويصل عمقه إلى حوالي مترين يخترق فضاء المواني في اتجاه شمالي - شمالي شرقي بموازية الساحل الحالي تقريبا. ولم تتوصل الحفريات إلى تحديد فترة إنشائه بدقة والتي قد ترتبط بحركة الامتداد العمراني التي عرفتها قرطاج خلال القرن الخامس. وهي تعكس بالتالي رغبة الإدارة القرطاجية في استغلال هذه المنطقة التي تحتلّها المستنقعات بتجفيفها مستخدمة في ذلك القنال المذكور الذي قد يكون لعب دور قناة لصرف المياه. لكن هذا الاستعمال لا ينفي إمكانية استغلاله أيضا للملاحة. ولئن عجزت الحفريات عن تحديد تاريخ الإنشاء بدقة فإنها تجمع على أن تاريخ ردم هذا القنال والتخلي عنه يوافق أواسط القرن الرابع تقريبا.

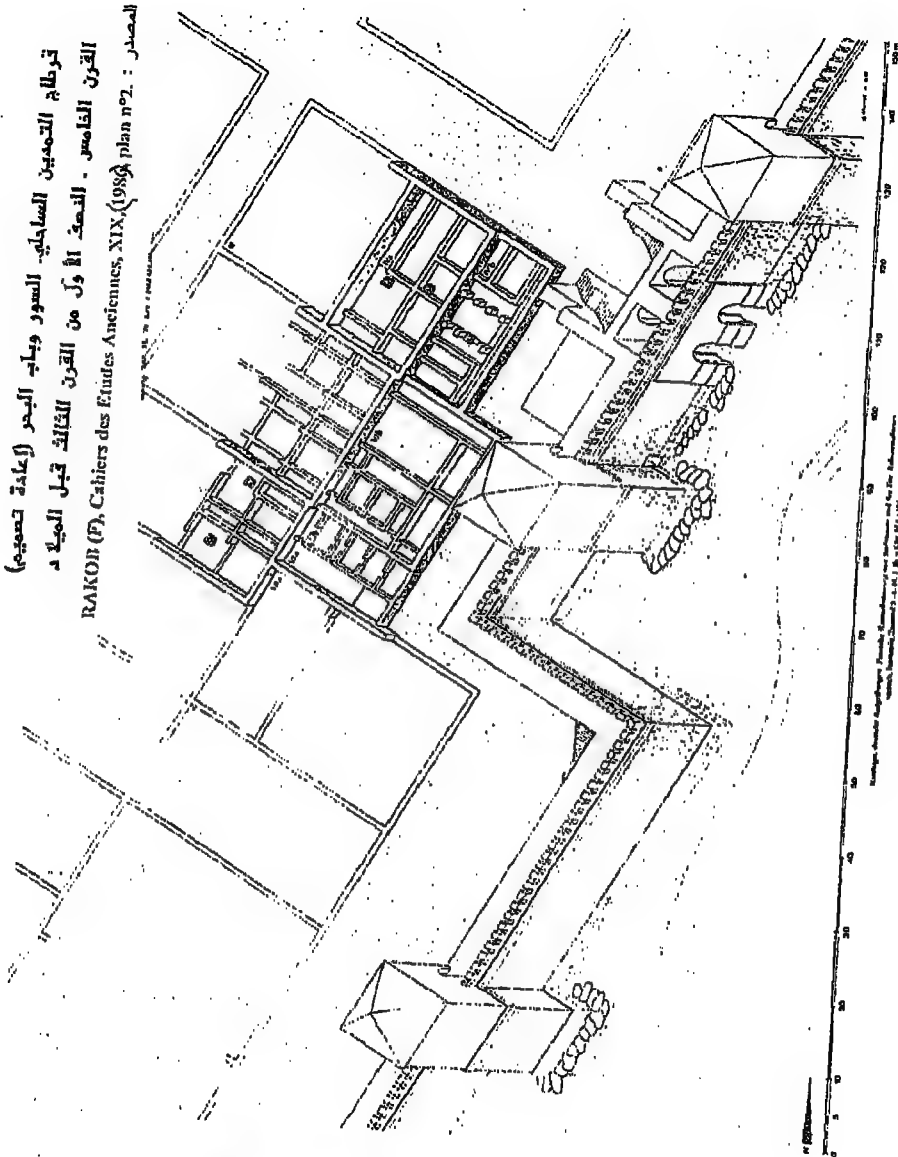
لئن وضعت الحفريات البريطانية والأمريكية حدا لجدل طال كثيرا حول المواني القرطاجية بالنسبة للقرون الأخيرة من تاريخ هذه الحضارة فإن السؤال يظل مطروحا بالنسبة للفترة السابقة وهنا لابدّ لنا من الاعتراف بأننا نجهل كلّ شيء تقريبا حول مكان إرساء السفن التجارية والعسكرية البونية خلال القرون الأولى والوسطى من تاريخ قرطاج.

على النقيض من ذلك أمكن لأفراد البعثة الألمانية رصد امتداد النواة السكنية الأولى في اتجاه الساحل بفضل سلسلة الأسبار المنجزة. ولا تتردد تقارير الحفريات في الحديث عن تحولات عميقة شهدتها حركة التمدن القرطاجي على امتداد القرنين الخامس والرابع. ويبرز ذلك من خلال عملية الترفيع الملحوظة

على مستوى الأرض وهي عملية ارتبطت دون شك بإقامة وحدات سكنية جديدة أثبتت الحفريات تواضع أحجامها وتنوع تخطيطاتها تنوعا كبيرا. لكن تبقى إقامة تحصينات دفاعية لحماية المدينة أبرز هذه التحولات التي شهدها مدينة قرطاج ذلك أن البعثة الألمانية تمكنت من التعرف على أسس سور بحري اتخذ شكل حائط مستقيم تتخلله مجموعة من الأبراج وتخرقه بوابة كبيرة ينتهي إليها شارع بلغ قدرا كبيرا من الأهمية (انظر وثيقة قرطاج التمددين الساحلي - السور وباب البحر القرن الخامس النصف الأول من القرن الثالث ق.م). ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد سعت الإدارة القرطاجية إلى حماية ما وقع إجزاه بواسطة قوالب ضخمة من الحجر الرملي لعبت دور كاسرات أمواج. وستشهد هذه المنطقة تحولات هامة خاصة وأن السور المشيد ترك مساحة تقارب الستين ذراعا (النراع - 51.87 صم) تفصله عن الأحياء السكنية المقامة خلال هذه الفترة.

بقي لنا أن نشير إلى احتمال أن تكون النواة العتيقة قد امتدت بداية من القرن الخامس قبل الميلاد إلى ما وراء الربوات (ربوة يونو وهضبة الاوديون) بحكم تولد المقابر التي شكلت حاجزا وقف أمام امتداد المدينة نحو الشمال والشمال الشرقي. لكن لا بد من التذكير أن عمدة الدراسات حول هذه النقطة يبقى كما أوضح ذلك س. لنسال نص الكاتب اليوناني ديودوروس الصقلي وهو يفكر إلى الدقة المطلوبة أورده عند حديثه عن الظروف التي ألمت بقرطاج إبان تدخل طاغية سرقوسة اغاثوكلاس (Agathocles) ومحاولة بوملقرت استغلال هذا الظرف للانفراد بالسلطة حيث يذكر تمكن هذا القائد من تجميع قواته في ما يطلق عليه تسمية "المدينة الجديدة" قبل التوجه للزحف على "المدينة القديمة" وبالرغم من اختلاف المحققين حول تحديد موقع هذه المدينة الجديدة يميل س. لنسال إلى الاعتقاد متبعا في ذلك س. قزال أن هذه للتسمية تغطي أحياء ضحوية ذات سكن متفرق توجد خارج حزام التمددين القديم معتمدا في تأويله هذا على سببين اثنين أولهما أن قراءة متمعنة في النص المذكور توحي بأن عملية تجميع الأنصار المشار إليها سابقا تمت في مكان يتميز ببعض الارتفاع مقارنة بالمنطقة الساحلية المنخفضة وثانيهما أن تحركا من هذا القبيل يتطلب بالضرورة فضاء رحبا نسبيا لا تتوفر عليه المدينة القديمة.

تخطيط التجهيز الساجي- السور وبيات البحر (إعادة تصميم)
القرن الخامس - النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد
RAKOB (F), Cahiers des Études Anciennes, XIX, (1988) plan n°2.
المصدر :



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية
147

الإطار الحضري القرطاجي من القرن الثالث إلى سنة 146 ق.م.

أول ما يستوقف المتأمل في تاريخ المدينة خلال القرنين الثالث والثاني هو إجماع كل المصادر بمختلف أصنافها (أدبية ونقائشية وأثرية) على القول بأن قرطاج شهدت خلال فترة الحروب البونية - الرومانية نموا كبيرا وهو ما يتنافى ظاهريا على الأقل مع ما يتوقعه كل عارف بقسوة ما تكبته من خسائر سواء بسبب المعارك التي خاضتها أو نتيجة ما آلت إليه الحربان الأولى والثانية من معاهدات مجحفة فرضت على دولة قرطاج. وقبل البدء في استعراض أبرز مظاهر هذا النمو يتحتم علينا التذكير بوفرة المصادر المعتمدة لدراسة تاريخ تمدن العاصمة البونية خلال هذه الفترة الأخيرة مقارنة بالفترتين السابقتين وهو ما يسر مهمة علماء الآثار نسبيا ومكن من مقارنة ما وقع العثور عليه من شواهد أثرية بالنصوص الأدبية في محاولة لمد المهتمين بتاريخ قرطاج بصورة أقرب ما تكون لواقع الفترة المدروسة.

لكن قبل الخوض في أبرز الأدلة الأثرية وما يمكن استقراؤه من نتائج تاريخية نرى أنه من الواجب علينا أن لا نغفل النص النقائشي الوحيد الذي يمكن استثماره عند الحديث عن حركة التمدن القرطاجي خلال هذه الفترة بالرغم من الإشكاليات التي لازال يطرحها حتى الآن ويتعلق الأمر بنص وقع الكشف عنه منذ سنة 1964 من قبل عمّار المحجوبي عند إنجاز هذا الباحث لسبر بمحاذاة شارع الجمهورية (في قرطاج) وتولى فك رموزه ونشره لأول مرة بالاشتراك مع م.ح. فنطر ويعد النص سبعة أسطر تفتقد لسوء الحظ إلى الأحرف الأخيرة منها. وبحكم أهميتها، سرعان ما استأثرت "نقيشة التمدن" باهتمام الدارسين وتضاربت التأويلات المقدمة خاصة في ما يتعلق بمعنى ما ورد في السطر الأول حيث يذكر النص إنجازا سعى القرطاجيون إلى تخليده ويمكن في اختصار شديد حصر الآراء المقترحة في

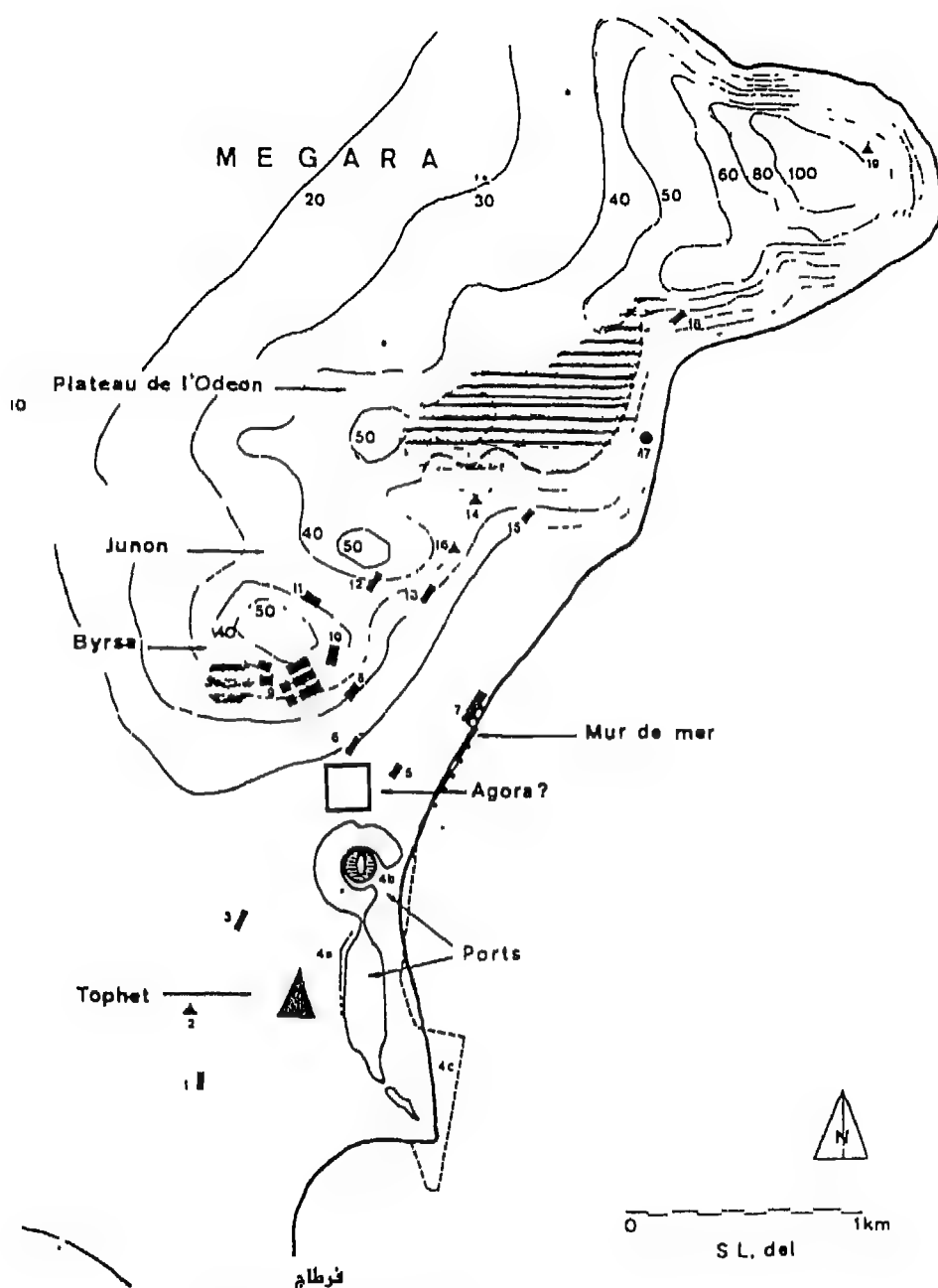
- فرضية أولى ترى أن الإنجاز يتعلق بحفر حوض.

- فرضية ثانية يرى متبّوها أن الأمر يتعلق بفتح نهج.

- الفرضية الأخيرة يعتقد صاحبها أن المقصود هو فتح باب في الأسوار.

يجب التذكير في هذا الإطار أن النص المذكور قد اكتشف في غير موضعه الأصلي (طبقة ردم) لذلك يؤرخ عادة باعتماد مقياس الباليوغرافيا بالقرن الثالث قبل الميلاد. وبالرغم من هذا الاختلاف وأيا كانت طبيعة الإنجاز الذي أراد القرطاجيون تخليده فإن كل الدارسين يتفقون على أهمية هذا العمل بدليل ثقل الغرامة المقررة والمضبوطة في آخر النص في حق كل من يلحق الضرر بهذه النقيشة التخليدية. وهو ما يقودنا مرة أخرى للقبول بفكرة وجود نهضة عمرانية في قرطاج خلال هذه الفترة وهو حكم تدعمه كما سنرى الآن الشواهد الأثرية وخاصة المكتشفة منها جنوب المدينة ولقد عينا بالتأكيد منطقة المواني.

كنا أسلفنا القول أن أقدم ما عثر عليه في هذه المنطقة يتمثل في قنال يبلغ طوله حوالي 300م ويتراوح عرضه بين 15 و20 م بينما يصل عمقه إلى حوالي مترين وهو يخترق فضاء المواني في اتجاه مواز للساحل الحالي تقريبا. وكنا أشرنا إلى أن تاريخ حفر هذا القنال يظل غير معروف فيما تجمع تقارير البعثتين البريطانية والأمريكية على القول بأن تاريخ ردمه يعود إلى أواسط القرن الرابع قبل الميلاد تقريبا ثم وخلال النصف الأول من القرن الثالث تمّ الشروع في تهيئة الحوض المستطيل أو ما يعرف بالميناء التجاري كما تدلّ على ذلك بقايا الرصيف المكتشفة والتي تتبع اتجاهها مستقيما شمال جنوب. ويفترض أن شكل الحوض تغير في المرحلة اللاحقة من حوض مستطيل إلى حوض مثنى المضلاع. (الظر وثيقة قرطاج بداية القرن الثاني ق.م.)



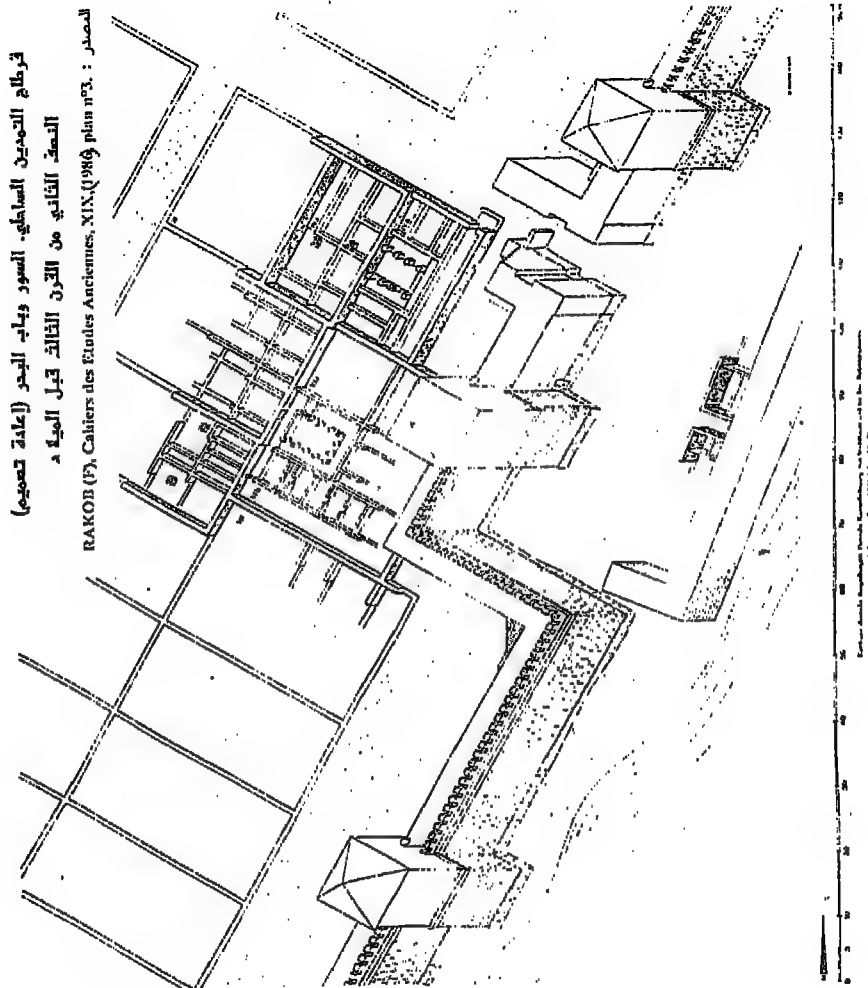
خرطاج
مدابذ القرن الثاني قبل الميلاد

المصدر LANCFL (5), III, CRAI, (1985) p 744

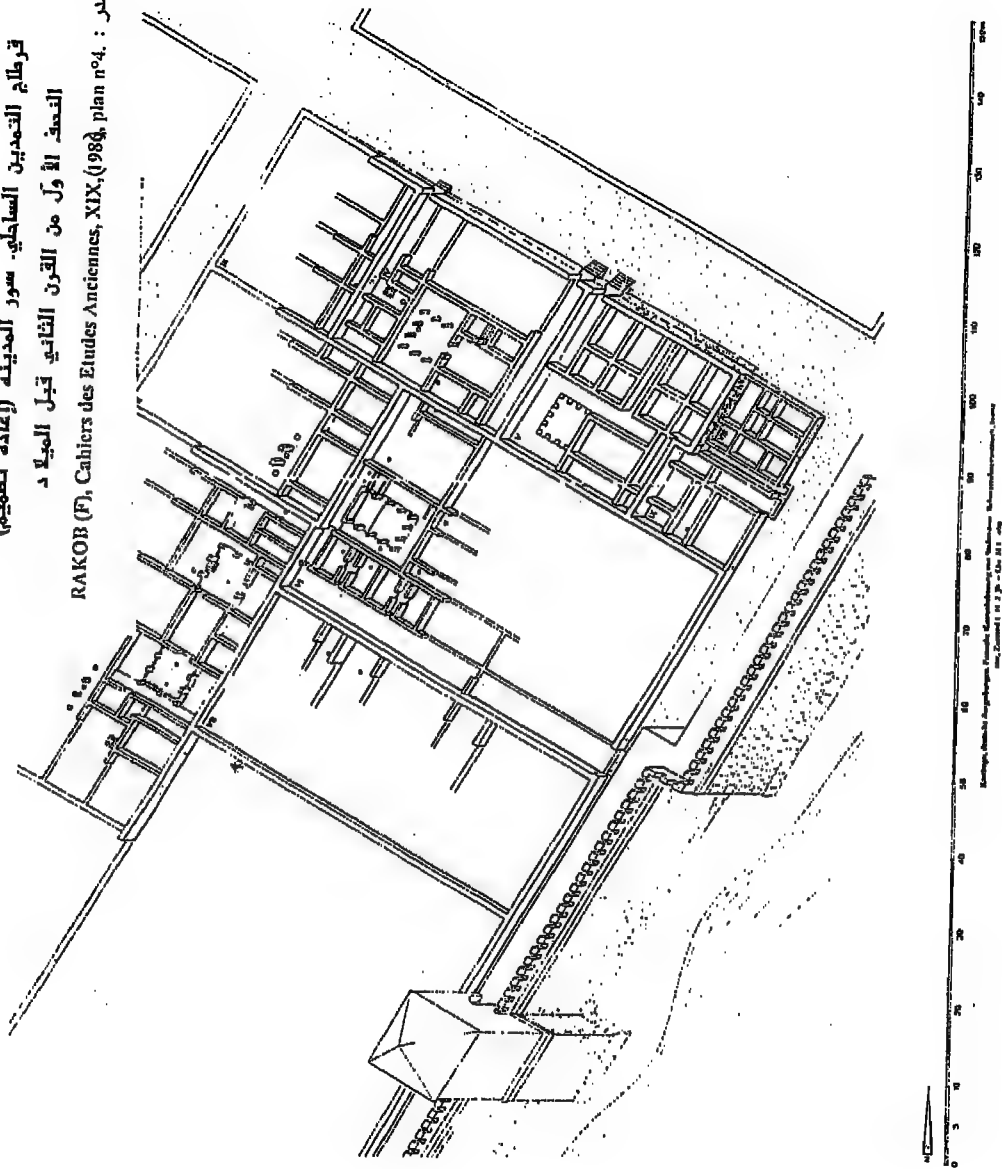
حوالي سنة 200 ق.م أو بعد ذلك بقليل أي في بداية القرن الثاني قبل الميلاد وقع تحويل رسم الرصيف المشار إليه بإضافة حائط نحو الشمال العربي تبلغ درجة انحنائه 120 درجة. ويرجح أن يكون لهذا التحويل علاقة بما وقع إنجازَه في نفس هذه الفترة ونعلي بذلك حفر الميناء المستدير (الميناء العسكري) وإحداث ما يعرف بجزيرة الأميرال في وسطه إلى جانب تشييد الأرصفة الحجرية وهكذا تتخذ المواني القرطاجية شكلها النهائي الذي ستشتهر به خاصة من خلال الوصف الدقيق الوارد لدى الكاتب أبينوس عند تعرضه لأحداث الحرب الثالثة بين روما وقرطاج وهو مأخوذ عن المؤرخ بوليبيوس.

يمكن تبين ملامح هذه الانتعاشة الواضحة في موضع آخر من السهل الساحلي وبالتحديد شرق ما نطلق عليه اصطلاحاً تسمية "حي ماغون". وكلما تعرضنا في ما سبق إلى هذه الناحية عند حديثنا عن إقامة القرطاجيين لسور بحري مع نهاية القرن الخامس وبداية القرن الرابع. ويميز ف. راكوب بين مرحلتين أساسيتين في ما تبقى من حياة هذا الحي خلال الفترة البونية:

تؤرخ المرحلة الأولى بالنصف الثاني من القرن الثالث وتتميز بتحويل طفيف على مستوى الوحدات السكنية التي أقيمت على أنقاض المساكن السابقة. ويتجلى ذلك أساساً على مستوى الجهة الغربية من مكان إقامة الحفريات الألمانية. وقد اتبعت الوحدات الجديدة تخطيطاً متعامداً تاركة مساحة شاغرة تقارب 60 ذراعاً تفصلها عن السور المقام منذ بداية القرن الرابع. من جهة ثانية شملت التحويلات التحصينات الدفاعية وكناً أشرنا في ما تقدّم إلى قوالب الحجر الرملي الضخمة التي لعبت دور كاسرات أمواج لحماية السور والأبراج وهي حماية سيقع تعزيزها بإقامة حائط مائل الاتجاه تمّ تعويضه خلال الفترة الموالية بحائط جديد بعد أن تقرّر التخلي عن البوابة وهو ما يقودنا إلى الحديث عن المرحلة الثانية. (انظر وثيقة قرطاج التمددين الساحلي - السور وباب البحر النصف الثاني من القرن الثالث ق.م ووثيقة قرطاج التمددين الساحلي - سور المدينة النصف الأول من القرن الثاني ق.م).



قِرطام التمددين الساحلي. سور المدينة (إعادة تصميم)
 التحف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد
 RAKOB (F), Cahiers des Etudes Anciennes, XIX, (1988), plan n°4.
 المصدر :



- المرحلة الثانية تمتد من بداية القرن الثاني ق.م. إلى نهاية تاريخ المدينة: كنا أشرنا في ما سبق إلى التخلي عن السور السابق وتعويضه بآخر حديث أكثر تقدماً نحو الساحل وهو ما سمح لحركة التمدين القرطاجي بربح مساحة أكبر لإقامة أحياء سكنية كبرى وتتميز الدور المقامة خلال هذه الفترة بانساع مساحتها وترفها الواضح.

في موضع ثالث من موقع قرطاج وبالتحديد على سفوح هضبة بيرصا أمكن للبعثة الفرنسية تقديم دليل إضافي على هذه النهضة العمرانية التي شهدتها المدينة على امتداد الخمسين سنة الأخيرة من حياتها وهي الفترة الممتدة من 196 ق.م تاريخ تولي حنبعل لخطبة سبط حتى 146 ق.م تاريخ تحطيم المدينة من قبل الرومان. وقد أمكن للفريق الفرنسي أن يكشف عن حي سكني بولي يعود زمنياً إلى هذه الفترة المتأخرة من تاريخ المدينة وقد أثبتت الحفريات أن هذا الحي أقيم على أنقاض ورشات تعدين تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد. ويحتوي هذا الحي على مجموعة وحدات سكنية أطلق عليها الباحثون الفرنسيون تسمية رمزية "ABCDE" وتفصل بينها ألحج يتراوح معدل عرضها بين 6 و7 أمتار تتقاطع حسب زوايا قائمة. ويشير س. لنسال إلى أن هذه الألحج لئن تماثلت من حيث قياس عرضها مع ما كان معهوداً في كل المدن الكبرى خلال الفترة الهيلينستية، فإنها كانت تتفرد بكونها غير مبأطة وهو ما كان يتطلب تدخلاً بين الفينة والأخرى خاصة بسبب ما كان يصيبها من تآكل عند نزول الأمطار وكان ذلك يتم بإلقاء طبقة من الرمل على السطح يضاف إلى ذلك غياب قنوات لتصريف المياه المستعملة وهي ظاهرة سعى القرطاجيون إلى معالجتها باعتماد الآبار المحفورة للتخلص من هذه المياه. وقد ربطت هذه الآبار بمجاري معدة للصرف توجد في الممرات داخل الوحدات السكنية بواسطة قنوات بسيطة تمت تهيئتها بواسطة مجموعة من الجرار المتداخلة.

من جهة أخرى أثبتت الحفريات الفرنسية أن هذه الألحج كانت لا تستعمل إلا من قبل المترجلين ولم يكن بإمكان العربات المجرورة ارتدادها بسبب وجود

مجموعة من المدرجات وقعت تهيئتها خصيصا للتكيف مع ظاهرة اختلاف الارتفاع من نقطة إلى أخرى إذ يبلغ معدل انحدار النهج حي حنبل 15 درجة. ويمكن أن نستدل في هذا السياق بمدرجين A و B كشفت عنها الحفريات بين الودعتين السكيتين D و E. من الناحية الكرونولوجية مرت تهيئة حي حنبل بأربع مراحل كبرى. (انظر وثيقة حي حنبل: السكن والورشات الحرفية والمتاجر).

- تؤرخ المرحلة الأولى زمنيا بداية القرن الثاني قبل الميلاد وقد شهدت إقامة الوحدات A و C و E التي تفصل بينها الأنهج I و III و V.

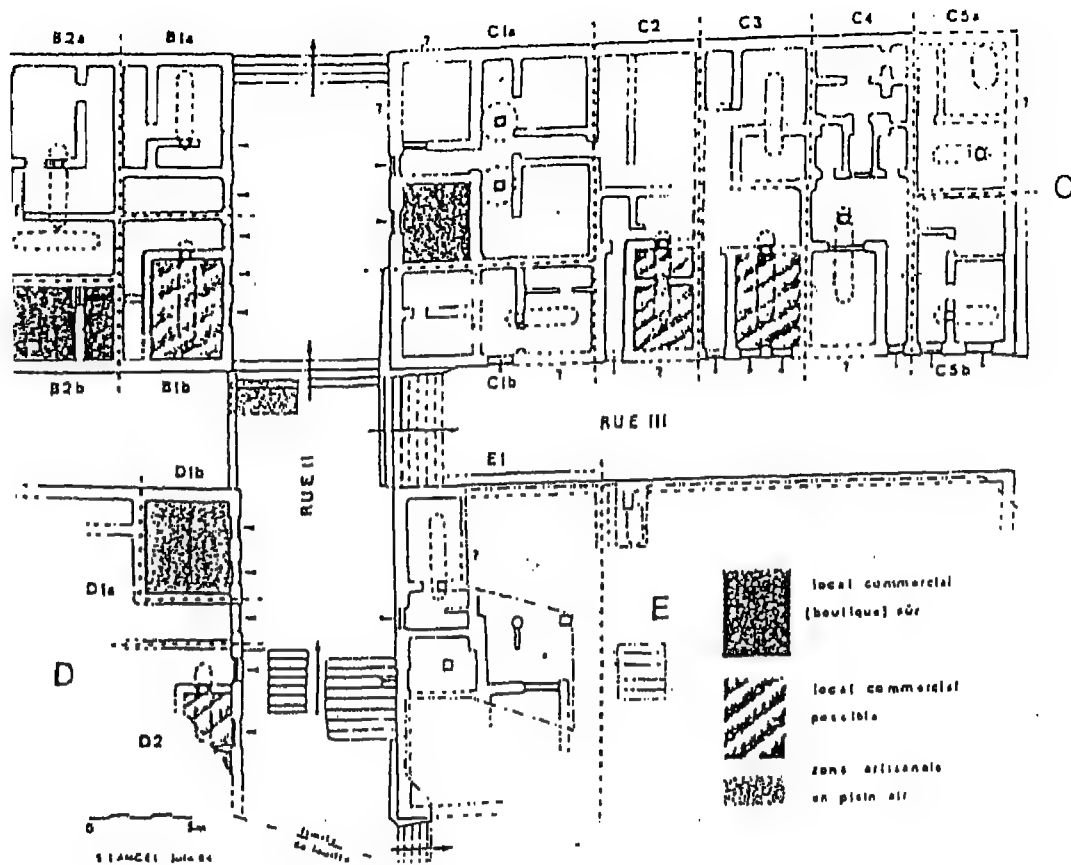
المرحلتان الثانية والثالثة: لم تشهد المرحلتان حسب س. لنسال إقامة مباني جديدة وتكمن الإضافة على مستوى تنظيم المسالك (الأنهج) ونهضة المدرجات وخاصة المدرج A.

- المرحلة الرابعة والأخيرة عرفت إقامة الودعتين السكيتين B و D مما ترتب عنه تهيئة أهم مسلك في هذا الحي وهو الذي يحمل رقم II وهو في اتجاه متعامد مع بقية الأنهج السابقة.

خضعت عديد الدور المشيدة في "حي حنبل" إلى نفس التخطيط تقريبا وقد أورد الباحث س. لنسال وصفا دقيقا لإحداها نقدّمه كما أورده هذا الباحث في كتابه « La colline de Byrsa à l'époque punique » ويتعلق بالمنزل C4 (المنزل عدد4 الوحدة C).

تبلغ أبعاد المنزل 15.65 مترا بالنسبة للطول و5.20 مترا بالنسبة للعرض مما يوفر مساحة تقارب 75 متر مربعا وهي مساحة متواضعة جدًا.

يوجد مدخل هذا المنزل على مستوى النهج رقم III وأول ما يعترض الدالف بهو يبلغ طوله 6 أمتار وعرضه 0.90 مترا يقوده إلى ساحة وقد تمّ الفصل بين هذا البهو والساحة المذكورة بواسطة باب.



حي حنبعل: السكن والورشات الحرفية والمناجر

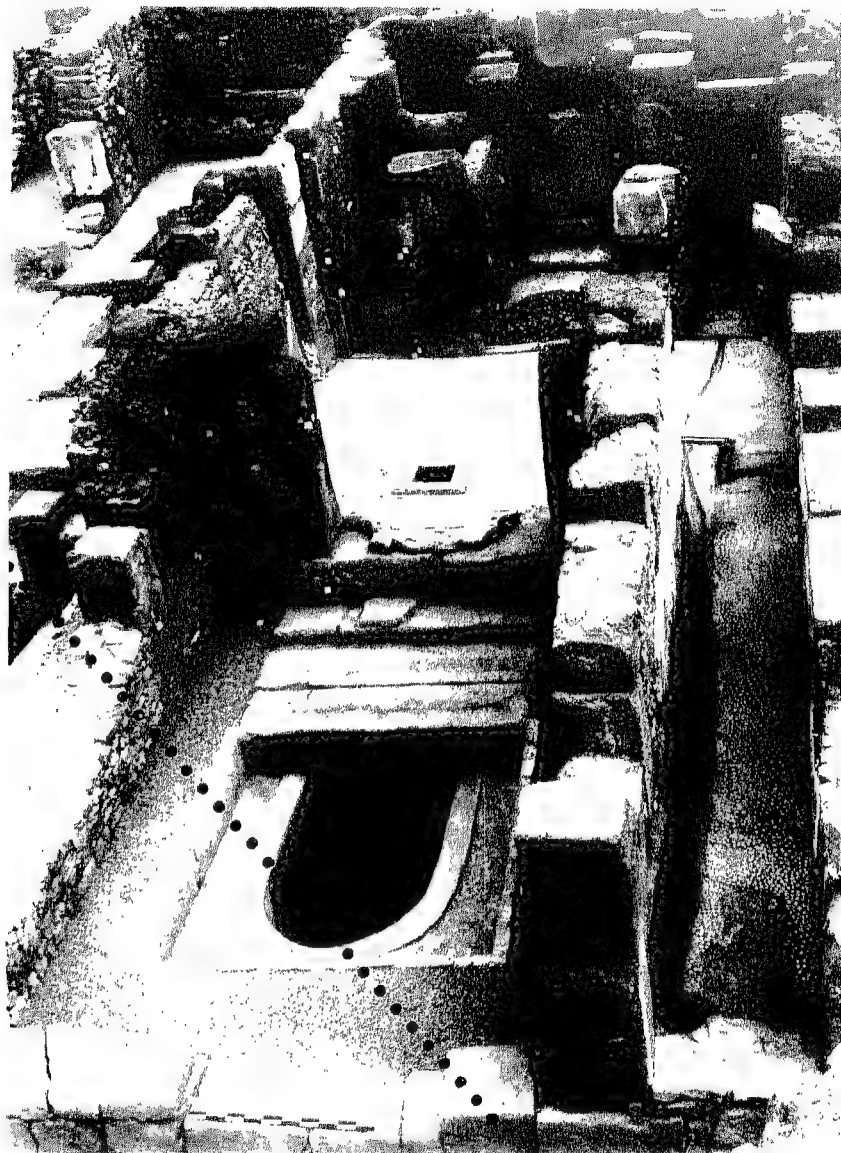
LANCEL (S), MOREL (J.P.), La colline de Byrsa: Les vestiges puniques, المصدر
in, pour sauver Carthage. ENNAÛBLI (A), ed, Paris - Tunis 1995 p.52.

داخل البهو وبمحاذاة الحائط وقعت تهيئة مجرى صغير لتصريف المياه المستعملة نحو بئر صغيرة موجودة على مستوى النهج.

على مستوى الساحة نلاحظ وجود بئر ترتبط بصهريج للمياه. وفي الناحية المواجهة للمدخل نجد مجموعة من الغرف الصغيرة (كانت إحداها دورة مياه) تفصل بينها حيطان مبنية بالطوب وتتميز إحدى غرف هذا البيت باتساعها النسبي مقارنة بالمساحة الجمالية (4.5 متر و 3.30 متر) وهو ما دفع س. لنسال للاعتقاد بأنها الغرفة المخصصة للاستقبال. ومما يلفت الانتباه تواصل امتداد الصهريج الذي كنا تعرضنا له في بداية هذا الوصف تحت مستوى هذه الغرفة وبالتالي فإن جزءا من الصهريج المذكور يمتد على مستوى ساحة المنزل فيما يمتد الجزء المتبقي تحت أرضية غرفة الاستقبال. (انظر لوحة رقم 1)

أشار س. لنسال إلى أن هذا التخطيط الذي تلعب فيه الساحة دورا محوريا يتكرر على مستوى الدارين 2 و 3 الموجودتين داخل نفس الوحدة C. لكن هذا لا يمنع وجود تخطيطات مغايرة أخرى تماما كذلك التي يمكن ملاحظتها على مستوى القطعة C1 والتي قسمت إلى جزئين C1b أقيم عليه منزل صغير يحوي صهريجا ممتدا وأربع غرف شيدت على جانبي ممر يطل على النهج III و C1a وهو جزء أكبر يمكن الولوج إليه انطلاقا من النهج II بواسطة بهو توجد على جانبيه غرفتان تطلان بدورهما على نفس النهج ولكن دون علاقة مع بقية المنزل وهو ما جعل نفس الباحث يعتقد أن الأمر يتعلق بدكانين.

باعتقاد الوصف الوارد لدى أبيانوس عند تعرضه لوقائع الحرب البونية - الرومانية الثالثة وبالتحديد عند حديثه عن آخر معاقل صمود البونيين نرجّح أن الدور القرطاجية المشيدة في هذه الجهة بالذات كانت قد شهدت امتدادا عموديا وبالتالي نميل إلى الاعتقاد أنها كانت تعدّ مجموعة طوابق استخدمها سكان قرطاج للصمود أمام تقدم الجيش الروماني في محاولة يائسة للدفاع عما تبقى من مدينتهم وهو ما نجد نظيرا له بموتبي في صقلية من خلال الوصف الوارد لدى ديودوروس الصقلي عند استعراضه للمواجهات العنيفة التي حققت باستيلاء ديونيزوس الأكبر على المدينة سنة 397 / 396 ق.م.



المنزل 4، الوحدة C

المصدر : LANCEL S., MOREL J.P., La colline de Byrsa: Les vestiges puniques, in, Pour sauver Carthage. Exploration et conservation de la cité punique, romaine et byzantine. ENNABLI A., ed, UNESCO/INAA, 1992. p.51.

أثبتت الحفريات المفامة على أرض العاصمة البونية على امتداد الفترة الأخيرة أن تحطيم المدينة من قبل الرومان سنة 146 قبل الميلاد لم يضع حداً نهائياً لتصورات النمدن التي وضعها القرطاجيون ذلك أن قرطاج الأغسطية استمدت تخطيطها المتعامد في خطوطه الكبرى من التخطيط الذي أقره أسلاف الرومان وهي ظاهرة أجمعت على القبول بها كل الأبحاث الأخيرة على الأقل بالنسبة إلى السهل الساحلى فيما ظلت القضية موضوع اختلاف بين الباحثين س. لانسال وف. راكوب بالنسبة للتخطيط الشعاعي المعتمد على الهضاب المجاورة وخاصة هضبة بيرصا. ومهما يكن من أمر هذا الجدل القائم في شأن هذه النقطة فإن ذلك لا ينقص في شيء من أهمية النتائج التي توصل إليها البحث الأثري والتي يمكن اختزالها في خاتمة هذا الفصل في جملة من الملاحظات نقدمها كما وردت على لسان الباحث الألماني نيمابر.

- ما كشف عنه حتى الآن من آثار مدينة قرطاج العتيقة يدفعنا إلى القبول بوجود هيكلة حضرية كثيفة عند تأسيس المدينة.

- أقيمت النواة العتيقة للمدينة على السهل الساحلي الواقع أسفل السفح الجنوبي الشرقي لهضبة بيرصا.

- بالتمعن في امتداد الموقع وقدرته على التوسع منذ البداية وعلى امتداد الحقب الموالية تترأى لنا عملية تأسيس قرطاج بمظهر يختلف تماماً عن تأسيس محرد محطة تجارية على طول الخط التجاري الرابط بين حوضي المتوسط إذ خضع إحداثها خلافاً لبقية المستوطنات الفينيقية إلى مقاييس إحداث المدن يضاف إلى ذلك أن قرطاج هي المستوطنة الفينيقية الوحيدة التي حفت بإنشائها ظروف استثنائية (أشرفت على تأسيسها أميرة فينيقية ثم وحوود أسطورة بلغت مسامعنا عن طريق المصادر الكلاسيكية).

مصادر الفصل الرابع ومراجعته

لا نعتزم مدّ القارئ بكل ما كتب حول الإطار الحضري لمدينة قرطاج ولكننا سنكتفي بمدّه بسلسلة من العناوين يمكن له اعتمادها لمزيد الاطلاع والحصول على إحالات أخرى أكثر إسهاباً. وقد ركزنا إحالاتنا الببليوغرافية على العناوين الحديثة وخاصة تلك التي صدرت بعد انطلاق الحملة العالمية لإنقاذ موقع قرطاج على وجه الخصوص.

يمكن للقارئ أن يجد جرداً مفصلاً بكل العناوين الصادرة في آخر صفحات نشرية مركز الدراسات والوثائق الأثرية للمحافظة على آثار قرطاج (CEDAC) الأعداد 1 (1978) و 2 (1979) و 3 (1980) وخاصة 4 (1981) بداية من الصفحة 56 وهو جرد مفصّل أعده W.A.Graham غطى كل العناوين الصادرة في ما بين سنتي 1975 و 1981.

خصّصت نفس النشرة على امتداد الأعداد 1 و 2 و 3 و 4 و 5 و 6 و 7 و 8 و 10 و 12 و 13 صفحات لتقديم تقارير موجزة عن الحفريات التي أنجزتها مختلف البعثات.

- يمكن أيضاً العودة إلى مجلة *Cahiers des Etudes Anciennes* (CEA) وهي من نشر L'université du Québec à Trois-Rivières

وللحصول على تقييم عام لأعمال مختلف البعثات بالإمكان التحويل على مقالات محافظ موقع قرطاج ع. النابلي ونذكر من بينها

- « La campagne internationale de fouilles archéologiques à Carthage (1973-1979) », in, *Karthago*, XIX, 1977-1978, (1980), pp. 107-119.
- « La campagne internationale de sauvegarde de Carthage (1973-1984): Resultats et enseignements », in, *CEA*, XVI, (1984), pp. 21-35

- « La campagne internationale de sauvegarde de Carthage. Fouilles et recherches archéologiques 1973-1987: premiers bilans », in, *CRAI*, (1987), pp. 407-438.

كما صدر تحت إشراف نفس الباحث مؤلف جماعي يحمل عنوان

Pour sauver Carthage Exploration et conservation de la cité punique, romaine et Byzantine. Directeur de la publication A. Ennabli. UNESCO. (INAA 1992)

- ويتضمن مجموعات مقالات بأقلام ق. راكوب وهـ - ج -
نيمايروس - لنسال و ج - ب تويلي وف - شلبي ول - ستيجر وهـ -
هورست.

نضع الآن على ذمة القارئ أبرز العناوين مبوبة حسب جنسيات مختلف البعثات المشاركة في حفريات اليونسكو.

البعثة الألمانية: إضافة إلى ما صدر في نشرية CEDAC يمكن الاعتماد على التقارير الصادرة في *MDAI*.

كما يمكن الاستعانة أيضا بمقالات ف. راكوب

- « Carthage punique: Fouilles et prospections archéologiques de la Mission allemande », in, *REPPAL*, I (1985), pp. 7-69
- « Les fouilles allemandes de Carthage », in, *Cahiers des Etudes Anciennes*, XIX, (1986), pp. 6-67.
- « La Carthage archaïque », in, *Actes de la 113ème congrès international des sociétés savantes*, Strasbourg (1988), IVème colloque sur l'Histoire et l'Achéologie de l'Afrique du Nord Tome I, Paris (1990), pp. 31-43.

خصّصت مجلة CEDAC العدد 16-17 (جوان 1997) لترجمة سلسلة من مقالات ف. راكوب من الألمانية إلى الفرنسية.

- « Fouilles allemandes à Carthage », pp. 7-15.

- « Topographie urbaine de la Carthage punique. Recherche stratigraphique sur la rue punique de la porte de la mer ». pp. 15-25.
- « Carthage. La ville archaïque. Nouvelle recherches », pp. 25-53.
- « Un temple punique à Carthage et l'édifice qui lui succède à l'époque romaine », pp. 53-82.
- « Recherche dans le centre de la ville de Carthage. Second rapport préliminaire », pp. 83-110.

البعثة الفرنسية

نشرت هذه البعثة أعمالها تحت إشراف س. لنسال ضمن مؤلف في جزئين يحمل عنوان:

- *Byrsa I, Rapports preliminaires des fouilles (1974-1976)* Rome, 1979.
- *Byrsa II. Rapports préliminaires sur les fouilles (1977-1978): niveaux et vestiges puniques*, Rome, 1982.

بالإضافة إلى هذا المرجع الأساسي من المفيد جدًا الرجوع إلى العناوين التالية لنفس الباحث.

- « Nouvelles fouilles de la mission archéologique », in, *CRAI*, (1976), pp. 60-78.
- « Fouilles de Carthage 1976-77. La colline de Byrsa et l'occupation punique », in, *CRAI*, (1978), pp. 300-331.
- « Fouille française à Carthage et l'occupation punique (VI^{ème} siècle - 146 av. J.C). Bilan de Sept années de fouilles », in, *CRAI*, (1981), pp. 156-193.
- *La colline de Byrsa à l'époque punique: introduction à la connaissance de Carthage*, Paris, 1983.
- « La renaissance de la Carthage punique. Reflexions sur quelques enseignements de la campagne internationale patronée par l'UNESCO », in *CRAI*, nov-déc, (1985), pp. 727-751.

- « Problèmes d'urbanisme de la Carthage punique à la lumière des fouilles anciennes et récentes », in, *Actes du IV^{em} colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord réuni dans le cadre de la 113^{ème} congrès national des sociétés savantes Strasbourg* (1988), Paris (1990), pp. 9-35.

البعثة البريطانية

من أهم ما يمكن الاعتماد عليه يمكن أن نشدد على أعمال هـ - هورست

التالية:

- HURST (H), *Excavations at Carthage 1974. First interim report. The Antiquaries Journal*, Vol. LV, 1975, p. 11-40.
- *Excavations at Carthage 1975 - second interim report. The Antiquaries Journal*, vol LVI, (1977), pp. 177-197
- *Excavations at Carthage 1976, Third interim report. The Antiquaries Journal*, Vol LVII, (1977), pp. 232-261.
- *Excavations at Carthage 1977-78- Fourth interim report. The Antiquaries Journal*, Vol LIX, (1980), pp. 19-49.
- HURST (H), STAGER (L.E), « a metropolitan Landscape: the late Punic port at Carthage », in, *World Archaeology* 9 (1978), pp 334-346.
- HURST (H), « The war harbour of Carthage », in, *Atti del I congresso di studi fenici e punici*, Rome, 1983, pp. 603-610.

مجموعة البحث التونسية يمكن العودة إلى

- ANNABI (M.K), BEN ABDELLAH (Z), CHELBI (F), « Quartier punique au Kram », in, *CEDAC*, 3, (1980), p. 17-18.
- CHELBI (F), « Découvertes d'un habitat punique sur le flanc Sud-Est de la colline de Byrsa », in, *CEDAC*, 3, (1980), pp. 29-39.
- « Quelques aspects de la civilisation carthaginoise à l'époque hellénistique », in, *CEA*, XVI, (1984), pp 78-87

بالنسبة للنص النقائشي ننصح بالعودة إلى

- MAHJOUBI (A), FANTAR (MH), «une nouvelle inscription carthaginoise », in, *Rendiconte dell' Accademia Nazionale dei Lincei*, ser VIII, 21, Fasc. 7-12 Juillet - decembre (1966), pp. 201-210.
- DUPONT-SOMMER (A), « une nouvelle inscription de Carthage », in, *CRAI*, janvier -mars (1968), pp 116-133
- GARBINI (G) « note di epigrafia punica III, su una nuova iscrizione cartaginese », in, *Rivista degli Studi Orientali*, 43, (1968), p. 11 et suiv.
- SZNYCER (M), « sur une nouvelle inscription punique de Carthage », in, *Comptes Rendus du Groupe Linguistique d'Etudes Chamito - Sémitiques*, 12, (1967-68), pp. 5-6.

الفصل الخامس

المؤسسات السياسية القرطاجية

احتلت المؤسسات السياسية القرطاجية حيزاً من اهتمامات المؤلفين القدامى. وتسمح الآراء والمعطيات التي أوردوها بتشخيص هياكل النظام السياسي في قرطاج وطبيعته على الأقل خلال مراحل محدّدة من تاريخها. وتتسم المعطيات المصدرية بالتفاوت من حيث الكمّ والدقة. ويكاد أن يكون القاسم المشترك بينها اعتماد اصطلاحات إغريقية أو رومانية للدلالة على مؤسسات قرطاج مما يتطلّب حذراً منهجياً في تحليل طبيعة مختلف المؤسسات ووظائفها. كما تقتصر مادة المصادر غالباً على إبراز واقع مؤسسات قرطاج خلال مراحل محدّدة قامت بدراساتها بصفة موازية للتاريخ السياسي - العسكري وهو ما يقتضي نقادي تعميم الاستنتاجات ومراعاة تاريخيتها.

ويمكن تبويب المصادر وفق منطلقات مختلفة، فإذا اعتبرنا شمولية معطياتها فإن كتاب السياسة لأرسطو يتضمّن تعداداً لأغلب المؤسسات رغم أنه لم يدرس دستور قرطاج ومؤسساتها لذاتها بل في سياق المقارنة بينها وبين مؤسسات إسبرطة وكريت. والملاحظ أن غرض أرسطو كان متّصلاً بالفلسفة السياسية والقانون الدستوري أكثر منه بتاريخ النظام السياسي القرطاجي.

أمّا بوليبيوس فقد تعرّض في كتابه "التاريخ" لتطور مؤسسات قرطاج من منطلق البحث في الأسباب المؤسساتية والدستورية لتفوق روما وهيمنتها على البحر المتوسط وانحدار خصومها بما في ذلك قرطاج. وقد دفعه ذلك إلى البحث في التطور التاريخي لدستور قرطاج ومؤسساتها.

أمّا لدى بقية المؤلفين، وأبرزهم يوستيلوس وتيتيوس ليوبيوس وديودوروس الصقلي وئليبوس نيبوس فإننا نلاحظ تلازم ذكر المؤسسات والتاريخ

العسكري - السياسي لقرطاج ومع ذلك فهي مصادر أساسية في إبراز إطار نشأة المؤسسات أو في انتباهها للتسميات البونية لبعض الوظائف السياسية.

ونجد صنفا ثالثا من المعطيات تتخذ صيغة إشارات وجيزة أو تقمّ تقييما لدستور قرطاج ولنظامها وقد أتت على لسان مؤلفيها أو في شكل إحالات على مصادر اندثرت، ويكتسي البعض منها تدقيقا ذا قيمة مؤكدة في ما يتعلّق بتشخيص آلية بعض المؤسسات وطبيعة الوظائف السياسية.

وتبقى مسألة المصادر المباشرة مرّة أخرى قائمة الذات. وإذا استثنينا الإشارات المحدودة التي يمكن توظيفها انطلاقا من نصّي "رحلة حنون" ومعاهدة حنبعل مع فليب المقدوني اللّذين بقيا في صيغة إغريقية فإنّ مجمل مصادرنا الأدبية غير مباشرة. وهذا يدعّم أهميّة المعلومات المستقاة من النقائش القليلة التي نذكر خططا سياسية أو مؤسسات بونية ومهما كان هامش الخطأ في تأريخها فهي المصدر المباشر الوحيد في مقارنة المصادر الأدبية وهو ما يدعو إلى اعتماد النقائش البونية الحديثة واللاتينية التي تنصّ على وظائف إدارية محلية ذات تقليد بوني تواصل وجودها خلال المرحلة الرومانية.

أمّا المقاربات الممكنة بين مؤسسات قرطاج والمؤسسات المميّزة للحضارات السامية وخاصة المدن - الدول الفينيقية فإنّها تطرح للبحث في عناصر التّواصل والتّفرد بين الحضارة البونية وأصولها الشرقية.

فكيف يبدو التقييم العام للدستور القرطاجي؟ وماهي امكانيات وحدود تبيين واقع المؤسسات القرطاجية اعتمادا على الوثائق المذكورة؟.

يقارن الخطيب الإغريقي إيزوقراتس (Isocrate) للمعاصر لأفلاطون ولأرسطو القرطاجيين بالإغريق من وجهة تميّز أنظمتهم السياسية.

ويصدر أرسطو حكما إيجابيا مماثلا لكن في إطار دراسة شاملة: "يُعرف القرطاجيون بأنهم محكومون بصفة جيّدة ودستورهم - في جوانب عديدة منه - أفضل مما لدى غيرهم..."

يحيينا سترابو (الجغرافيا I ، 4 ، 9) إلى رأي مماثل لإراتوستينيس (Eratosthène) أحد أبرز علماء مدرسة الاسكندرية والمُشرف على مكتبها خلال القرن الثالث ق.م فينسب إليه رفض التقسيم السائد بين الإغريق و"البرابرة" ويحتكم لمبدأ الفضيلة ونزعة الشرّ التي تنطبق على الإغريق أنفسهم ويبرّر رأيه بذكر "البرابرة" الذين لهم حضارة متقدمة مثل الهند والشعوب الإيرانية ثم أيضا "الرومان والقرطاجيين الذين يعرفون بمؤسساتهم السياسية ذات التنظيم المحكم".

وفي سياق الإحالات العامة لمصادر مفقودة تجدر الإشارة إلى كتاب هيباقوراس (Hippagoras) الإغريقي الذي خصّصه "لدستور قرطاج" لكن المؤلف والأثر نكرا في مصدر وحيد ودون تفاصيل وهو "مأدبة السقسطائيين" (Deipnosophistes) للخطيب والنحوي الإغريقي أثينيوس أصبل نوكراتيس بمصر السفلى (Athénée de Naucratis) الذي كتب في بداية القرن الثالث ق.م وتولّى في الكتاب المذكور تجميع مقتطفات لمؤلفين وكتابات صالحة لأدب المجالس ويندولها العلماء في مأدبهم.

ويمتد نفس التقييم خلال القرن الثاني ق.م لدى بوليبيوس : "تعرف بعض الدساتير بإحكامها ونجد صدى ذلك لدى أغلب المؤرخين: دستور اللاسيديمونيين والمانتيين والقرطاجيين" كما يعتبر أنّ "المؤسسات السياسية لدولة قرطاج - بناء على خصائصها الرئيسية -، تستجيب لتصور جيّد".

فهذه النظرة الإيجابية لمؤسسات قرطاج ودستورها نجدها إذا نتوزع على الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى القرن الثاني ق.م. ومهما كانت نسبة الأحكام التي قدمها هؤلاء المؤلفون الإغريق فإنّ قرطاج لا تصنّف من منظور الإغريقي ضمن "البرابرة" المختلفين عنهم أو ممن هم دونهم تنظيما فقرطاج مدينة - دولة أقرب الى المدن التول الإغريقية أو هي على الأقل ذات دستور ومؤسسات جيّدة.

على أن دراسة المؤسسات في حدّ ذاتها تستوجب تجاوز هذه الأحكام العامة والبحث في التفاصيل التطبيقية لمنطلقات الدستور ومبادئه. فما هي هياكل النظام السياسي القرطاجي وطرق عملها؟

يحتّم علينا صمت المصادر بالنسبة للمرحلة الفاصلة بين تأسيس قرطاج وأواسط القرن السادس ق.م. اعتبار هذه المرحلة خارجة تقريبا عن إطار البحث إذا استثنينا المعلومات المحدودة لرواية التأسيس أو محاولة تبيين وضع قرطاج السياسي من خلال علاقاتها بصور.

أمّا سحب معطيات المراحل اللاحقة على الفترة المشار إليها بناء على "التصور الثابت" لمؤسسات قرطاج منذ نشأتها واستمرارية بعض الوظائف فيصعب دعمه اعتمادا على المصادر تماما مثل النظرة التطوريّة التي ترى في قرطاج نموذجا مماثلا للمدن - التول الإغريقية، انتقلت من ملكيّة الحق الإلهي إلى الديمقراطية وتوازن السلط. وقد استند الرأي المذكور إلى تطوّر السلطة التنفيذية من الملكيّة إلى الحكم الثنائي للـسبطين* المنتخبين وتطوّر السلطة التشريعية إلى توازن بين تمثيلية الأرسنقراطية في مجلس الشيوخ والعامة في

* - فضلنا استعمال مصطلح سبط وأسباط عوضا عن تطويع الأصل الفينيقي - البويى شفت وشعطبم، الذي نفل في اللّغة اللاتينية بمفرد سوفاس (*suffes*) وجمع سوفتاس (*suffites*) ومرجعنا في ذلك التسمية العربيّة لهذه الوظيفة المميزة للمجتمعات السّامية القديمة، فإلى جانب فنيبيا كان الأسباط يمثلون السلطة المدنيّة العليا لقدرالبه القبائل اليهوديّة قبل عهد الملكيّة. وقد تم ذكرهم في الفرآن بمعاني مختلفة منها: (وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، - البقرة 136)؛ (وقطعناهم إثنتي عشر أسباطا أمما. - الأعراف 160). واعتبر المفسّرون الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب كما رأوا فيهم أحيانا أحفاد يعقوب عامّة.

واستعمل العرب السبط والسبطين والأسباط بمفهوم خاصة الأولاد وبغلب في ذلك ولد البنت مقابل الحفيد لذلك أطلق نعت سبطا رسول الله على الحسن والحسن في الحديث والسيرة. (انظر لفظ سبط في القاموس المحيط لمحمد الدين العيروز آسادي وفي لسان العرب لابن منظور. انظر أيضا محمد إسماعيل إبراهيم. معجم الألفاظ والأعلام الفرآنية - القاهرة 1969).

مجلس الشعب. ثم نشأت محكمة المائة والأربعة التي أفرزها مجلس الشيوخ واعتبرت دعماً لصلاحيات الأرستقراطية تجاه القادة العسكريين.

تمثل مجمل هذه المؤسسات أهم ما عرف به النظام القرطاجي إضافة إلى التنظيم الداخلي لبعض المجالس التي أفرزت مجالس مضيقة ولجانا ذكرت في المصادر.

ولئن كانت تاريخية هذه المؤسسات مثبتة أحياناً عبر المصادر الأدبية والنقاش فإن الاستثناء الوحيد يهتم الملكية خاصة إذا حاولنا سحبها على المرحلة العتيقة من تاريخ قرطاج، وقد درست الملكية في سياق جدل حول تأويل المصطلحات الإغريقية - اللاتينية مقابل الغياب الكلي لمصادر مباشرة؛ فالنقاش ذكرت مؤسسة الأسباط التي تقوم مقام السلطة التنفيذية دون أن تتعرض للملكية. ورغم ذلك فقد أرست الدراسات المعاصرة جدلاً حول وجود أو انعدام الملكية في قرطاج. وتبقى الفرضيات المميزة لهذا الجدل مفيدة في الوقوف على اختلاف المصادر والمنطقات في مقاربة طبيعة السلطة التنفيذية في قرطاج.

1 - إشكالية الملكية في قرطاج

يقوم الافتراض القائل بأن قرطاج شهدت سلطة ملكية على تاريخية هذا النظام السياسي في الحضارات السامية وتحديدًا في المدن - الدول الفينيقية - كصور وصيدا وجبيل وإمكانية امتداده إلى الغرب الفينيقي إضافة إلى تشخيص المصادر الإغريقية - اللاتينية لمن يشغلون القيادة السياسية في قرطاج باعتبارهم ملوكاً، فالمؤلفون الإغريق أشاروا إلى سلطة الملك "بازيلوس" (*basileus*) والملوك "بازيلايس" (*basileis*) في قرطاج تماماً مثل المؤلفين اللاتينيين الذين ذكروا (*rex*) و(*reges*).

كما اعتمد هذا الافتراض على انحصار القيادة العسكرية داخل عائلة الماجونيين من منتصف القرن السادس ق.م إلى بداية القرن الرابع ق.م. واعتبر ذلك من قبيل الجمع بين السلطتين العسكرية والسياسية في إطار ملكية وراثية.

إن امتداد الملكية الفينيقية إلى قرطاج لا تستند إلى قرائن مقنعة فليس لرواية عليسة أو ما ورد في شأن القائد ملكوس في أواسط القرن الخامس ق.م. قيمة تاريخية مُجمع حولها. فعلاقة قرطاج بصور إلى حدود القرن الخامس ق.م. على الأقل قائمة على «مؤسسة العشر». وقد نفيد هذه العلاقة أن قرطاج كانت مستوطنة تجارية عند تأسيسها ولم تكن مملكة. وتمثل المستوطنات الفينيقية في قبرص استثناء حيث ذكرت النقائش ملوك كيتيون (Kition). وورد في رواية فلافيوس جوزاف (التاريخ اليهودي IX، 284) أن لولي (Luli) ملك صيدا قام بحملة لإعادة بسط نفوذه على هذه المدينة دون أن يبرّر طبيعة السلطة المتمردة بها. أمّا نقائش قرطاج في قبرص فبيّنت أن إدارتها موكولة لممثل لسلطة حيرام II ملك صور ذكر بوظيفة (س ك ن) ورأى البعض في ذلك مرادفاً لـ «ملك تابع» ونصّت نقائش سرجون II (Sargon II) (705-721 ق.م) بصفة صريحة على المدن الدول الملكية بقبرص والملاحظ أن م.سنيسار يشدد على استحالة امتداد هذه الظاهرة إلى الغرب الفينيقي.

وقد ساد استعمال المصطلحات الإغريقية - اللاتينية الدالة على الملكية لعدم معرفة التسمية البونّية للوظيفة التنفيذية العليا. إن الانتباه إلى سياق استعمال هذه المصطلحات والبحث في أقربها إلى واقع المؤسسات البونّية يبيّن شيئاً من غموضها. فأرسطو يستعمل صيغة الملوك (*basileis*) من خلال مقارنته بين الملكية الاسبرطية والملكية القرطاجية والمقارنة مبنية عنده على عنصر تماثل عدديّ وهو ثنائية السلطة الملكية فالنظام الاسبرطي قائم على تمثيلية الأجياد (*Agiades*) والأوروبونتيدي (*Eurypontides*)، القبيلتين الرئيسيتين ومن المرجّح أن أرسطو كان على بيّنة من ثنائية السلطة التنفيذية بقرطاج أي سلطة السبطين ومصطلح (*basileis*) في اسبرطا كما في قرطاج يعني لديه المثلي لا الجمع، سيما وأن أرسطو أشار إلى الطابع الوراثي للملكية الإسبرطية التي تمارس مدى الحياة واختلافها مع الملكية للقرطاجية الانتخابية والمحدودة في الزمن. وهكذا

يتضح أن سياق تناول أرسطو للمسألة كفيل بإبراز المحتوى الضمني لمؤسسة السبطين رغم استعماله مصطلح الملوك والملكية.

أما المصادر اللاتينية فقد استعملت بصفة واسعة الإصطلاح اللاتيني الدال على الملكية في صيغة المفرد والجمع: (*reges-rer*) وعلى غرار نصّ أرسطو الذي يسمح باستجلاء مدلول ضمني وعدم التوقف عند المدلول الحرفي لـ (*basileis*) فإنّ ترجمة حنبل في مؤلف كرنيوس نيبوس تطوي على تدقيق يفيد ثنائية القيادة التنفيذية في قرطاج: "تقرّر قرطاج ملكين ذوي سلطات سنوية على غرار القنصلين في روما..."

وتبدو المسألة أقلّ تعقيدا لدى تيتيوس لبيوس الذي يتعرّض للوظيفة السياسية بالصيغة البونية: (*sufetes, sufes*) أي السبط ثم في صيغة الجمع الذي قد يعني أيضا المثلى. وتجدر الإشارة إلى أنّ فلافيوس جوزاف ذكر في مؤلفه "ضدّ آبيون I، 156-158" الأسباط الذين حكموا صور بعد الحصار البابلي للمدينة واعتمد في تسمية خطتهم المصطلح الإغريقي "ديكستاس" (*dikastes*). ولا يفوتنا التذكير بمناقشة س. قزال للدراسات التي أعطت مفهوما ضيقا لمعنى "بزلوس" أو "بزيلايس" في المصادر الإغريقية إذ يرى أنها لا تدلّ بالضرورة على الملكية بل الأرجح أنّ الإغريق أطلقوا هذه الصفة على الماجونيين الذين استمرت في صفوفهم القيادة العسكرية باعتماد إعادة الانتخاب وهو ما فهم خطأ بوجود ملكية داخل نفس الأسرة. وهكذا فإنّ المرادفة بين الملكية بمعناها الإغريقي - اللاتيني: (*rex = reges / basileis = basileus*) والسبط = السبطين والأسباط. تبقى قائمة الذات أو على الأقلّ ممكنة. ولما كانت النقاش هي مصدرها المباشر الوحيد في خصوص هذا الموضوع فهي لا تذكر الملكية في حين نجد فيها تنصيحا على مؤسسة الأسباط.

لما الانقلاب العسكرية التي تضفيها المصادر اللاتينية على القادة القرطاجيين من قبيل "إمبيراطور" (*imperator*) و"دكتاتور" (*dictator*) فإن مدلولها الأصلي لا يسمح بإعطائها بعد القيادة السياسية أو الملكية.

فلقب "إمبيراطور" الذي يعني في بعض معانيه القيادة العليا للجيش بضيفه الجيش المنتصر على قائدة في حين يمثل الدكتاتور في روما أثناء العهد الجمهوري السلطة العليا في ظروف استثنائية لمدة محدّدة دستوريا لا تتجاوز عادة ستة أشهر ويعيّنه أحد القنصلين بقرار من مجلس الشيوخ. ولم تتخذ هذه الوظيفة بعدا استبداديا إلا في مرحلة متأخرة أثناء أزمة الجمهورية الرومانية خلال النصف الأول من القرن الأول ق.م. وقد قام م. سليسار بمراجعة عميقة لهذه الاسقاطات الإغريقية - اللاتينية في مقال نشره سنة 1988 وتولّى فيه دراسة تسميات الوظائف العسكرية في النقائش البونية والبنوية الجديدة فأبرز أن وظيفة "ربّ م خ ن ت" تعني قائد الجيش أو الجنرال. وقد استعملت في ترجمة وظيفة عسكرية رومانية في النقيشة المزدوجة النص (بونوية جديدة - لاتينية) التي عثر عليها في بلدة سنة 1929 والمؤرخة بالسنة الثامنة ق.م حسب الإشارات التي تهم أغسطس، فترجمت رتبة قنصل في النص البوني الجديد بـ"ربّ م خ ن ت" أي قائد الجيش.

أما النقيشة الثانية فنصّت على (ربّ. ت ح ت. ربّ. م خ ن ت) ومعناها الحرفي "القائد الذي تحت قائد الجيش" واعتبرها كلارمون قانّو (Clermont - Ganneau) ترجمة بونية لوظيفة "بروقنصل". وعلاوة على الوظائف العسكرية العليا أبرزت النقائش الفينيقية والبنوية خططا دنيا مثل "ربّ س ن ي" أي القائد الثاني و"ربّ. ش ل ش"، القائد الثالث أو "ربّ م أ ت" أي قائد "كتيبة" المائة.

وتبدو في ضوء ما سبق حدود تأويل ما أورده يوسيبينوس في تقديمه للعائلة الماجونية. فأول أفرادها ماجون "إمبيراطور" (*imperator*) بمعنى قائد عسكري. ويضيف أنه تولى هذه الخطة اعتبارا لخصاله بمعنى أن ذلك نمّ إنسر

اختيار وليس اعتمادا على حق وراثي. وصيغة "إمبراطور" لا تتضمن الجمع بين القيادة العسكرية والسياسية. أما ابنه عزريعل فقد تولى القيادة بصفة "ديكتاتور" (*dictator*) إحدى عشر مرة قاد خلالها حملات عسكرية خارج قرطاج دون أن يعني ذلك الأفراد بالسلطة السياسية داخل قرطاج. فسلطة الماجونيين هي سلطة قادة عسكريين مكّنوا قرطاج من أهم عمليات التوسع سواء في صقلية وسردينيا أو في المجال الإفريقي.

وقد بدأت مناقشة الملكية في الدراسات المعاصرة في نطاق المدرسة الألمانية منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث أثارها الباحث أ.ملتزار (O.Meltzer) في "تاريخ قرطاج" الذي أصدره سنة 1896 واستبعد أن تكون قرطاج قد شهدت نظاما ملكيا لكن ج.بلوك (J.Beloch) طرح المسألة من وجهة نظر مناقضة في مقال أصدره سنة 1907، بناء على قراءة لنص أرسطو وحاول فيه إثبات تاريخية الملكية في قرطاج.

وتناول ستيفان فزال المسألة بالتحليل والنقد في الجزء الثاني من "التاريخ القديم لشمال إفريقيا" الذي أصدره سنة 1918 وعبر عن تحفظات عديدة متفاديا الجزم في الاستنتاج. ويمكن نَقَم هذا الحذر في مرحلة لم تبلغ خلالها دراسة النقائش النتائج الحاسمة التي تبلورت لاحقا والتي جعلت أبرز المهتمين بالمؤسسات القرطاجية مثل س.موسكاتي وم.سليسيار وم.ح.فطر يجمعون بين مناقشة المصادر الأدبية والاستنتاجات التي توفرها النقائش.

أما جبار ش.بيكار (G.Ch.Picard) فإنه يدافع عن أطروحة وجود ملكية في قرطاج بناء على تأويل النصوص المصدريّة والتّحفظ من النقائش ويرى أنّها لا تكتسي طابعا سياسيا. ووفقا لتصور تطوري للنظام السياسي القرطاجي يعتبر أنّه شهد على غرار المدن - الدول الإغريقية وروما انتقالا من ملكية الحق الإلهي إلى الديمقراطية. ومن هذا المنطلق يؤول مكانة عبسة في نصّ يوستينوس كانعكاس لذكريات تاريخية وأساطير تفسّر الوظيفة الدينية للملكية فانتحارها هو تعبير عن التزام ملوك قرطاج بحماية المدينة من الأخطار أو إعلانا لمسؤوليتهم

في وقوعها كما هو الحال بالنسبة إلى عبد ملقرت الماجونى إثر هزيمة هيمراس سنة 480 ق.م. وتقوم قراءة بيكار لنص هيرودوت - الذي استعرض الحدث - على البحث في الوظيفة الدينية لعبد ملقرت فقد كان هذا الأخير إلى جانب وظيفته العسكرية بمثابة ملك - كاهن إذ بقي أثناء المعركة يقدّم الأضاحي للآلهة التي لم تبارك حملته وهذا مبرر انتحاره. والملك الذي يختار هذا المال يقع تأليهه. ويؤكد بيكار أيضا امتداد الملكية العسكرية للقادة الماجونيين واختيار الملك بناء على خصاله الحربية داخل نفس العائلة ويتساعل عن دور الكهنة والجيش في عملية التعيين مفترضا أن تكون النخبة العسكرية مرتبطة بالملك عن طريق ولاءات شخصية. أما إشارة ديودوروس الصقلي الصريحة "تقيّد سلطة الملك بالدستور" فيرى فيها بيكار وجه تشابه بين الملكية القرطاجية والملكيات الشرقية المرتبطة بالهيكليين التشريعيين مجلس الشيوخ ومجلس الشعب وتطورهما في قرطاج إلى جانب محكمة المائة والأربعة مما أدى إلى تراجع الملكية الماجونية.

إن نقد وجهة نظر بيكار يقوم على تجنب استقراء مصدر أدبي كمنطلق أساسي للتأويل خاصة إذا تسرب النقد لمدى تاريخية ما يقدمه وهو ما ينطبق على العناصر الأسطورية في رواية عليسة ورواية هيرودوت. وتبقى مقاربة مجمل المصادر واستنتاجات النقائش منسجمة في محض وجود ملكية في قرطاج.

2 - سلطة السبطين ومؤسسة الأسباط

عرفت وظيفة الأسباط في الحضارات السامية وقد وردت في النصوص الأوغاريتية للألف الثانية قبل الميلاد وفي سفر القضاة وفي نقائش المدن - الدول الفينيقية وفي النقائش البونية. وعبارة "سبط" لها مدلول القاضي وأيضا القيادة والحكم وهي أيضا مؤسسة إدارة محلية أو بلدية في المدن البونية.

ولئن ارتبط الأسباط بسلطة ملكية في المدن الدول الفينيقية فيبدو وضعهم مختلفا في قرطاج حيث تذكر النقائش النذرية أسباطا في شجرة

نسب الناذرين إذ يتّضح أنّ لقب سبط يصبح علماً على من شغل هذا المنصب (fonction éponyme). كما ورد ذكرهم في تأريخ نصوص النقائش. فالمعروف أن اسمي السبطين يقتربان بسنة حكمهما. ويذكر م.سنيسار نقيشة « تنص على سنة انتقال الحكم من سبطين إلى خلفهما». ويجدر التساؤل حول إمكانية وجود قائمة رسمية للأسباط فهي السند المادي الذي يمكن أن يمثل الحوليات الرسمية المعتمدة للتأريخ بقرطاج.

واعتماداً على النقائش يُرجّح م.سنيسر وجود هذه المؤسسة قبل 400 ق.م. بناء على إمكانية تأريخ إحدى النقائش بأسلوب كتابتها على الأقلّ بالنصف الثاني للقرن الخامس ق.م والتي تذكر "...سنة السبطين في قرطاج". كما تظهر هذه المؤسسة في إطار الإدارة البلدية لمدن دقة، مكتر والتيبروس (المدينة) وذلك في نقائش مؤرخة بالقرن الثالث ق.م.

أمّا في المصادر الأدبية فإننا نلمس إشارة ضمنية لوظيفة الأسباط في مؤلف "القوانين" لأفلاطون (427-346 ق.م)، فقد ورد في خاتمة الكتاب الثاني على لسان الأثيني الذي كان يحاور كلينياس (Clinias) حول الخمر ما يلي: "إنّي أفضل على ما يمارس في كريت ولسمونيا قانون القرطاجيين الذي يمنع على كلّ حامل السلاح شرب الخمر خلال كامل مدّة الحرب. وينطبق الملع في المدينة [قرطاج] على العبيد من الجنسين وعلى الحكام خلال سنة حكمهم وعلى القضاة عند القيام بمهامهم وعلى كلّ أعضاء المجالس عند التفاوض والتصويت على مسائل هامة...".

يمكن أن نرى في الحكام ذوي السلطة السنوية مرادفاً للأسباط لدى أفلاطون الذي سبق أرسطو في المقارنة بين كريت ولا سيدمونيا من جهة وقرطاج من جهة ثانية. ولعلّ رحلات أفلاطون الثلاث إلى سرقوسة وإقامته بها دفعته إلى الاهتمام بالقرطاجيين ونجد أثراً لهذا الاهتمام في "رسائله" (Lettres) إلى قادة سرقوسة.

وكنا أشرنا الى الطابع الانتخابي للسبطين وقد ذكره كرنيليوس نيبوس حيث تعرض تحديدًا لانتخاب حنبعل سبطا سنة 196 ق.م وقام بمبادرات إصلاحية -مثل انتخاب مراقب المالية- لا يمكن أن يتولاها إلا ممثل السلطة التنفيذية العليا المدعم بتمثيليته لقاعدة انتخابية وهي على الأرجح المواطنون أو مجلس الشعب.

لما تيتيوس ليوبيوس الذي كتب بعد موطنه كرنيليوس نيبوس فإنه يبيدي فهما أعمق للمسألة. ففي روايته لأحداث الحرب الثانية في غادس سنة 206 ق.م يذكر أسباط هذه المدينة مفسّرا وظيفتهم بأنها "تعنى الحكام لدى القرطاجيين". ولما استعرض أحداث سنة 203 ق.م وتحديدًا مهاجمة الرومان لمعسكر عزربعل وسيفاكس التي بعثت التخوف من مهاجمة سيبيو لقرطاج، فإن "الأسباط [السبطين؟]. الذين تشبه سلطتهم سلطة القناصل [القنصلين؟] تولّوا دعوة مجلس الشيوخ للإجتماع...".

وتتمثل صلاحيات السبطين في رئاسة مجلس الشيوخ ومدة بجدول أعمال جلساته أو المسائل المبرمجة للمداولة وبين ارسطو لجوءهما إلى مجلس الشعب في حال انعدام اتفاق بينهما وبين مجلس الشيوخ. وثمة مسائل يحيلها على مجلس الشعب لإبداء رأيه فيها.

أما قيادة الحملات العسكرية التي يذكرها ايزوقراتاس فهي أقرب إلى واقع اسرطا حيث يقود أحد الملكين الحملات العسكرية. ولا نملك باستثناء هذه الإشارة الوجيزة معطيات تسمح بإثبات التطابق بين القيادة العسكرية التي يشغلها ملكوك اسبرطا وأسباط قرطاج دون أن نستبعد توليها للقيادة العسكرية خلال المرحلة العتيقة من تاريخ قرطاج أو في ظروف استثنائية لما تكون العاصمة البونية مهددة ويرجح ج.ش.بيكار أن المهام العسكرية لم تعد تسند للسبطين منذ نهاية القرن الرابع ق.م. وإلى جانب هذا الغموض فنحن نفكر للمستندات التي تدعم افتراض وجود توزيع للمهام بينهما أو قيامهما بوظيفة دينية.

أما ممارسة القضاء بمساعدة هيئة أو قضاة آخرين فهي رهينة تأويل المجلس القضائي (*ordo iudicum*) الذي يذكره تيتيوس ليويوس إن لم يكن مرادفا للهيئة القضائية العليا أو محكمة المائة والأربعة.

تلك هي محدودية ما يمكن استنقاؤه من المصادر رغم أن سنكا (*Sénèque*) (4 ق.م - 65 م.) يذكر بإيجاز سعة مشمولات السبطين في «إدارة الشؤون العامة».

3 - مجلس الشيوخ

ذكر هذا المجلس في قرطاج منذ أواسط القرن السادس ق.م إلا أن تجذره في الشرق الفينيقي وذكر الشيوخ في رواية تأسيس قرطاج يسمح بترجيح وجوده في قرطاج قبل القرن السادس ق.م. فمفهوم المجلس أو الهيئة التشريعية جوهرية في كل الحضارات السامية حيث يعرف بـ "مجلس كبار المدينة" وذكره المؤلفون الإغريق بتسميات بعض مجالسهم. فلدی أرسطو نجد تسميتين موحدين لكل من شيوخ قرطاج واسبرطا لمجلسيهما: "جيروزيا" و"جرونتس" (*gerousia* و *gerontes*). ولدى بوليبيوس يرد مجلس شيوخ قرطاج وفق ثلاث تسميات اغريقية: بولي، "سندريون" و"سونكلتس" (*boulé* و *synkletos*). أما النصوص اللاتينية فجمعت بين عبارة "سيناتوس" (*senatus*) المنطبقة على مجلس الشيوخ الروماني والمصطلح الأقرب للتسمية الفينيقية بمعنى "كبار" أو "شيوخ قرطاج" وهو "سنيراس" (*seniores*).

وخلافا للأسباط فإن النقاش تذكر أشخاصا ذوي مراتب رفيعة لكنها لا تذكر الشيوخ ومجلسهم الذي يبقى معروفا من خلال النصوص الأدبية فحسب.

أما شروط الانتماء للمجلس والمدة النيابية للشيوخ وعددهم فهي أسئلة تصعب الإجابة عليها في غياب نصوص صريحة أو قابلة للتأويل. واقترح أ.ملنزر عدد ثلاثة مائة بناء على عدد الأسرى من أبناء الشيوخ الذي اشترطه

الرومان سنة 149 ق.م. إلا أن الانتماء الارستقراطي للشيوخ يعكسه تصور بوليبيوس لمجلس شيوخ قرطاج كطرف ارستقراطي في مؤسساتها، مقابل تمثيل السبطين للعنصر الملكي ومجلس العامة للعنصر الديمقراطي وهي الأبعاد الثلاثة لدستور قرطاج وتوازن مؤسساتها في تصور المؤلف المذكور.

وقد قارن أرسطو بين شيوخ كل من إسبرطا وقرطاج من حيث طريقة اختيارهم ويرى أن "اختيار شيوخ قرطاج أفضل من الطريقة المعتمدة في إسبرطا حيث لا يُنظر في اختيار الشيوخ لمقياس السن بل الفضيلة فالشيوخ قائمون على أمور هامة فإذا كانوا غير أكفاء أضروا بالدولة كما أضرت شيوخ لاسيديمونيا بدولتهم".

ويمكن تفسير رأي أرسطو بناء على مقاييس اختيار شيوخ إسبرطا وهي بلوغ ستين سنة والتركيز عن طريق التصفيق ويعتبر أرسطو طريقة الاختيار هذه صبيانية لكن هذه المفاضلة لفائدة طريقة اختيار شيوخ قرطاج لا نجعلنا نستبعد وجود حد أدنى عمري لدخول المجلس أو وجود مقاييس كفاءة معتمدة كأساس لاختيار. كما تعرض أرسطو إلى سعة الصلاحيات التشريعية التي يتمتع بها مجلس الشيوخ في حال اتفاقه مع السبطين ولعلم أيضا صلاحياته في اتخاذ قرارات الحرب والسلم وإدارة السياسة الخارجية لقرطاج. ومن أمثلة ذلك رفض مقترحات السلم التي قدمها القائد الروماني ريجولوس سنة 255 ق.م. أثناء الحرب الأولى ضد روما أو قبول خيار الحرب ضد روما سنة 218 ق.م. إثر المفاوضات مع الوفد الروماني إضافة إلى إصدار القرارات لتكوين الجيوش وانتداب لمرتزقة. ويمكن أن يتولى ممثلون عن مجلس الشيوخ هذه العملية مثل انتداب مرتزقة من جزر الباليار وإيبيريا للمشاركة في الحرب الأولى. وتنص معاهدة حنبعل مع فيليبوس المقدوني سنة 215 ق.م على وجود شيوخ إلى جانب القائد القرطاجي. والملاحظ التأكيد على صفتهم في الصيغة التمهيدية للمعاهدة وفي خاتمتها.

تذكر المصادر الأدبية عدّة مجالس ولجان ويقطع النظر عن التقديرات العددية لمجلس الشيوخ سواء ثلاثمائة أو تجاوز عددهم ذلك فمن المرجح أن يكون ثمة مجلس قارّ مضيق إضافة إلى لجان وهيئات ذات صلاحيات محدّدة. وقد أورد أرسطو دون غيره اللّجان الخماسيّة (*pentarchies*) مبرزاً اتساع صلاحيتها وأهمها اختيار الحكّام المائة.

والتفسير الأوّل يدفع إلى اعتبارها لجانا مكونة من خمسة أعضاء لكنه يدعو بناء على استعمال صيغة الجمع إلى التساؤل عن عددها فأرسطو يقدمها بصفة إقرارية ووجيزة لا تيسّر الوصول إلى استنتاجات أكيدة. فهي مبدئياً نابعة عن مجلس الشيوخ، ذلك أنّ اختيار أعضاء هذه اللّجان يتم حسب أرسطو من منطلق الاصطفاء (*cooptation*). وقد كانوا يمارسون سلطتهم مدى الحياة ولهم دور في تعيين قضاة محكمة المائة. وظاهرة توظيف الثروة في تولّي المناصب مجسّمة للبعد الأوليغارشى (حكم الأقلية من الأغنياء والأعيان) في النظام السياسي القرطاجي.

ومما يمكن تصنيفه في إطار المجالس - مجلس القادة - (*consilium principum*) حسب رواية تيتيوس ليوبيوس. لقد كان هذا المجلس يجتمع سنة 172 ق.م. بصفة سرّية داخل معبد اسكلابيوس (أسمون) وذلك خلال فترة الخلافات بين قرطاج ولوميديا والالتزامات المتشدّدة التي فرضتها روما على قرطاج بمقتضى اتفاقية 201 ق.م التي أنهت الحرب النائية بينهما. كما تعرّض نفس المؤلّف للقادة الثلاثين من بين شيوخ قرطاج (*triginta seniorum principes*) الذي تفاوضوا سنة 203 ق.م. مع سيقبيو الإفريقي حول شروط السلم الممكنة وتولّت لجنة بنفس العدد من بين الشيوخ في ظروف حرب المرتزقة (241-238 ق.م) السعي للمصالحة بين القلتدين العسكريين عبد ملقرت البرقي وحنون.

تختصر هذه الإشارات أبرز ما تقدمه المصادر في شأن المجالس المضيقّة واللّجان. وبحكم الإيجاز والتعميم الذي يطغى عليها تتضح صعوبة الاستنتاج

بكونها مجالس قارّة أو مجرد لجان مكونة لإنجاز مهام محدّدة أو الرّبط بينها وبين اللّجان الخماسيّة. ووردت في النقائش "لجنة العشرة" التي تتولى الأشرفاء على المعابد ولجنة الثلاثين المشرفة على الضرائب ومن المرجح أن تكون لها علاقة بالسبطين والهيكل التشريعي الرئيسي أي مجلس الشيوخ.

4 - مجلس الشعب

يمثل هذا المجلس على غرار مجلس الشيوخ مؤسسة معروفة في الحضارات السّامية القديمة تتخذ تسمية "شعب المدينة" مثل "شعب صور" وهي أيضا مؤسسة إداريّة محليّة تذكرها النقائش في العديد من المدن البونية أو ذات التقليد الإداري القرطاجي.

والملاحظ أن مصطلح "شعب" يعكس نفس هامش التعميم أو الدّقة لمرادفه اللّاتيني (*populus*) فالسياق يمكن أن يعطي للعبارة معنى "شعب المدينة" أو "السلطة النّابعة عن الشعب" أو "الهيكل الرّسمي الممثل لهذه السلطة".

ويُجمع المؤلفون القدامى على أهميّة مجلس الشعب في الحياة العامّة بقرطاج وعلى دوره في تغيير التوازن المؤسساتي لفائنته على الأقل انطلاقا من النّسب الأخير للقرن الثالث ق.م.

ويؤرّخ ظهور مجلس الشعب بمنتصف القرن السادس ق.م. وفقا لأقدم الإشارات المصدريّة وهي تخصّ اعتزال القائد العسكري مالكوس (Malchus) الأفراد بالسلطة وتوجّه إلى مجلس الشعب ليعلمه بخياره يحاول كسب تأييده.

ويحدّد نص أرسطو صلاحيّاته كما يلي: "ومن صلاحيّات الملوك= [السبطان؟] بالاتفاق مع الشيوخ إذا أجمعوا على الأمر ألاّ يعرضوه على [مجلس] الشعب وفي غياب الإجماع يحتكم للشعب الذي يحسم الأمر. أمّا تدابير السلطة التي يعرضها [السبطين؟] والشيوخ على الشعب فلا يكتفون بأن يحملوها إليّ مسامحه فقط، بل من صلاحيّاته أن يبدي حكمه فيها كما أنّه متاح لأيّ -

مواطن - ممّن تولوا التداول في شأنها أن يعارضها وهو ما لا أنز له في بقية
الساتير».

ويبدو من خلال نص أرسطو أن مجلس العامة خلال القرن الرابع ق.م
على الأقل يتمتع بسلطات تشريعية فعلية ويلعب دورا في التوازن المؤسسي
بقرطاج لما يتم اللجوء إليه، فلا شيء يجبر السبطين أو مجلس الشيوخ إذا لم
يكن ثمة خلاف بينهما على الاستئناس برأي مجلس الشعب أو تصويته. فسلطته
تختلف عن نموذج الديمقراطية المباشرة التي أبدى أرسطو تجاهها موقفا نقديا
عندما تنقلب إلى ديماغوجية وتملق ومحدودية الكفاءة في إدارة الشؤون العامة.
ويؤثر عليها التوازن الجمهوري من خلال مساهمة مختلف الفئات الاجتماعية
للمواطنين في سياسة المدينة الدولة من ذلك مساهمة الشعب الممثل في المنتجين
والفئات الاجتماعية الوسطى إلى جانب الأرستقراطية ذات المثل أو المرجعية
الأخلاقية والملزمة بالدستور وهي نقض حكم الأوليغارشية الذي يتطور بتركز
واحتكار الثروة إلى المونارشية أو الملكية حسب تصور أرسطو.

ومن صلاحيات مجلس الشعب القرطاجي أيضا انتخاب القادة
العسكريين. ومن المرجح أن ذلك يرقى إذا اعتمدنا رواية ديودوروس
الصفلي إلى القرن الخامس ق.م وانتخاب القادة العسكريين الذين خاضوا
مجاهدات ضد الإغريق. وهو ما نجده لدى بوليبيوس بشأن انتخاب عبد
ملقرط البرقي الذي عهد له الشعب قيادة الحملات العسكرية ضد المرتزقة
واللوبيين بالمال الإفرقي ثم قيادة عمليات التوسع بإيبيريا سنة 237 ق.م.
وقد أقر مجلس الشعب القيادة العسكرية لحنبعل سنة 221 ق.م.

وتماما مثل انتخاب السبطين فإن انتخاب القادة العسكريين من طرف
مجلس الشعب من المرجح أن يتم بعد عملية اختيار أولى لهؤلاء من قبل مجلس
الشيوخ. إلا أننا نلاحظ تدعيم وزن مجلس الشعب إثر المصاعب التي جابهتها
قرطاج بعد الحرب الأولى ضد روما وحرب المرتزقة التي أثرت بدون شك
على مصالح الأرستقراطية القرطاجية ويتناول بوليبيوس تحليل النظام -

السياسي- القرطاجي لهذه المرحلة من منطلق التغير في توازنه التقليدي حيث "أصبح صوت الشعب مهيمنًا في المداولات وكان رأي الأغلبية هو المرجح في قرطاج" ومن منظور المؤلف يمثل هذا الوضع اختلالًا في التوازن الثلاثي للدستور القرطاجي حيث أصبح العنصر الديمقراطي (مجلس الشعب). يتمتع بأولوية على حساب العنصرين الأرستقراطي (مجلس الشيوخ) والملكي (سلطة السبطين).

وتجدر الإشارة إلى أهمية هذه المؤسسة أيضا في المدن البوليتية حيث تذكرها اللقائش بصيغة "عم" أي شعب المدينة. والملاحظ أن ستيفان قرال يرجح إمكانية وجود شروط للانتماء إلى هذه المؤسسة أساسها المواطنة وبلوغ سن محددة وتوفر حد أدنى من الدخل.

كما يشير م.ح. فنطر إلى إمكانية وجود مجالس أو لجان مضيقية في صلب مجلس الشعب مثل اللجنة التي تمسك دفاتر العبيد الذين يتم عتقهم. وهو ما يحيلنا إلى إمكانيات إسناد المواطنة القرطاجية ويطرح افتراضا بخصوص اللوبي- فينيقيين. وذكر كل من نيكيتوس ليويوس وأبيانوس إسناد المواطنة في ظروف استثنائية حيث عرض حنبعل قبيل معركة كانّي (Cannes) سنة 216 ق.م على جنوده من الحلفاء مكافآت عديدة في صورة الانتصار ومنها أن يصبحوا مواطنين قرطاجيين إن رضوا في ذلك.

هل كان مجلس الشعب القرطاجي موزعا إلى خلايا أو وحدات انتخابية؟

طرح هذا التساؤل في علاقة بمقارنة أرسطو لأوجه التشابه بين لسبرطا وقرطاج المتمثلة في "المتدب الجماعية لأعضاء الهيئيريات (hétairies) التي تشبه الفيديتيات (Phidities). وقد كانت هذه المقارنة محل تأويلات مختلفة، ذلك أن الهيئيريات الإغريقية مختلفة في حد ذاتها من حيث تركيبها وأغراضها. فهي تجمع في لسبرطا "المتساويين" من العسكريين في حين كانت في أثينا بمثابة جمعيات سياسية ذات نزعة أوليغارشية مناهضة للديمقراطية وتتسامح المدينة-

الدولة مع نشاطها. أما في جزيرة كريت فإن الهيتيريات تجمع المواطنين وتلعب دور التعاونيات التي تتولى خدمة أعضائها. وتجدر الإشارة إلى أن أرسطو أبرز العلاقة التقليدية بين قادة الأوليغارشية الذين يطمحون إلى الحكم وأعضاء الهيتيريات (13 v, 6,6): مما يضيف دورا سياسيا على هذه الجمعيات. وفي هذا السياق فقد كان يطلق اسم الهيتيريين (*hétaires*) على مساعدي وأعوان الاسكندر المقدوني. وهكذا فقد اتخذت هذه المقارنة معنا واسعا فاعتبرت الهيتيريات القرطاجية مجرد مجموعات حرفية أو خلايا اجتماعية ودينية يرجح أنها ذكرت في النقائش البونية باسم "مزارح" كما هو الحال في نقشة الأضاحي المعروفة "تعريفة مرسيليا" أو في نقشة مكثر. وافترض ف.س. موفرز (*F.C. Movers*) مقابل ذلك أنها وحدات ممثلة للعائلات الارستقراطية القرطاجية تشبه الفراتري (*phratrie*) الاغريقية والقروريا (*curia. curiae*) الرومانية التي كانت تمثل خلايا انتخابية. ويأخذ س. اقزال بهذا الرأي مضيفا أن كل المواطنين لا الارستقراطية فحسب كانوا موزعين على الهيتيريات التي كونت وحدات انتخابية، تحتسب نتيجة اقتراع المواطنين في كل منها صوتا عند تجميع اقتراع مختلف الوحدات لمعرفة نتيجة التصويت العام.

تدعم هذا الرأي بناء على ازدياد عدد النقائش اللاتينية التي تذكر الوحدات الانتخابية (*curiae*) لمواطني المدن الافريقية خلال العهد الروماني. ويرى ت. كوتولا (*T. Kotula*) في تركيبة الكوراي - الموزعة في إطار وحدات انتخابية لمجلس الشعب - امتدادا للخصائص المحلية للهيتيريات القرطاجية معتبرا أن معرفتنا الغامضة بتنظيم وطرق عمل هذه الأخيرة اعتمادا على نص أرسطو بقابلها وضوح آليات عملها خاصة في المدن البونية النومدية اعتمادا على النقائش اللاتينية.

لكن تجدر الإشارة إلى أبرز النقائش اللاتينية التي تمت دراستها في علاقة بالمؤسسات القرطاجية وهي نقشة دقة والمؤرخة بسنة 48 م. فقد مثلت دقة نموذجا فريدا لتواصلي المؤسسات البونية في إدارتها المحلية إلى حدود

حصولها سنة 205 ق.م على رتبة "مونيقيوم" (*municipium*). لذلك حاول و.سسنون (W.Seston) في دراسته للنقشة المذكورة البحث فيما يساعد على فهم أعمق للمؤسسات القرطاجية. تذكر النقشة السبطين الحاكمين ومجلس وشعب مدينة دقة ثم "حامي المدينة" يوليوس فنستوس (Julius Venustus) الذي ينتمى إلى المجموعة الرومانية. أما محتوى النقشة الذي يعنينا فهو اختيار السبطين باتفاق "كل أبواب المدينة: *Omnium portarum sententiis*". اقترح و.سسنون مقارنة "الأبواب" (*portae*) بالوحدات الانتخابية الرومانية "قوراي"، ثم أيضا بالهيتيريات الواردة في نص أرسطو كما قارن الأبواب المذكورة في نقشة دقة بمنافذ (*ovilia*) الساحة العمومية (*forum*) ووظيفتها كفضاءات انتخابية في المدن الرومانية تماما مثل "لقطاعات العشرة" بالأغورا (*Agora*) الأثينية حيث يدلي المواطنون بأصواتهم في قضايا الإقصاء (*ostracisme*).

إلا أن ج.قاسكو (J.Gascou) عبّر عن موقف نقدي تجاه هذه الفرضيات التي يصعب البرهنة عليها معتبرا أن الوحدات الانتخابية الرومانية تطورت بالمدن الأفريقية خلال العهد الروماني بفضل ما عرفته من حيوية استثنائية للنشاط البلدي سواء خلال العهد الإمبراطوري المنقسم أو المتأخر منه. وفي هذا السياق نشير إلى أن مختلف الفرضيات التي قُدمت كتفسير لنص أرسطو المذكور لا تجد سندا في المصادر الأدبية التي أبرزت عائلات كبرى ذات نفوذ فعلي ولها قدرة التأثير على مجلس الشيوخ والسبطين، فلا حاجة لتنظيم الشعب في خلايا انتخابية مادام اللجوء إليه يتم بصفة استثنائية. لكن المشاركة الواسعة للشعب أو العامة تأكدت خلال المرحلة الأخيرة من تاريخ قرطاج وتحديدا فيما بين نهاية الحرب الأولى حتى سقوط المدينة (241-146) والملاحظ أن كتاب السياسة يغطي في أحسن الحالات واقع المؤسسات القرطاجية خلال منتصف القرن الرابع ق.م. وما سبقه.

5 - محكمة المائة والأربعة

تعتبر محكمة المائة والأربعة أبرز الهيئات القضائية المعروفة في قرطاج وبيّن يوستينوس ظروف نشأتها وفسّر ذلك "بتنامي نفوذ العائلة الماجونية التي أصبحت تضغط بتقلها على الحريات العامة وتجمع بين السلطة السياسية والقضاء فأُنشئت هيئة القضاة المائة الذين اختيروا من بين الشيوخ ويلتزم القادة العسكريون تجاهها بتقديم تقارير عن حملاتهم إثر كلّ حرب حتّى تلهمهم هيئة القوانين والأحكام التي يمكن أن تُنزل بهم في قرطاج الالتزام باحترام سلطة القولة أثناء قيادتهم". ويؤرخ س. قرال نشأة هذه المحكمة بمنصف القرن الخامس ق.م مبرزاً تطور نفوذ العائلة الماجونية وقادتها من جهة وتحكّم الأرستقراطية في مؤسسات الدولة من جهة ثانية.

يمثّلنا أرسطو بالإطار الدستوري لتكوينها حيث يقارن سلطة الحكام المائة والأربعة بسلطة "مجلس القضاة" أو "الرقباء الخمسة" (Les Ephores) في اسبرطا مبرزاً الاختلاف بينهما ففي اسبرطا ينتخبون من طرف مجلس العامة (apella) في حين تختار اللجان الخماسية من بين الارستقراطية الحكام المائة الذين يمثلون أهم سلطة في قرطاج. ويبدو أساس المقارنة لدى أرسطو الصلاحيات القضائية الواسعة للرقباء الخمسة والقضاة المائة في كلّ من اسبرطا وقرطاج وتحديدًا مراقبة قادة الجيش علماً بأن أحد الملكين يتولّى هذه الخطة في اسبرطا. أمّا المفاضلة التي يبيدها لفائدة النموذج القرطاجي فهي تقوم على تحفّظه تجاه انتخاب القضاة الاسبرطيين من بين العامة في حين يقع اختيارهم في قرطاج من بين الارستقراطية والملاحظ أن الارستقراطية تتخذ عند أرسطو مفهوماً قيمياً أكثر منه طبقياً.

ولئن لم يذكر بوليبيوس هذا الهيكل القضائي تماماً مثل ثيتيوس ليويوس فإنّ هذا الأخير تعرّض للمجلس القضائي (ordo Judicum) مؤكداً على سلطاته الواسعة والسلطة المطلقة للقضاة في قرطاج لكننا لا نملك الجزم باعتباره مرادفاً لمحكمة المائة والأربعة أو مجرد لجنة من لجان مجلس الشيوخ. ويعتقد س. قرال

في هذا السياق أن المؤسسات السياسية القرطاجية تطوّرت منذ منتصف القرن الخامس حتى بداية القرن الثاني ق.م. ممّا يسمح بافتراض تتطوّر صلاحيات محكمة المائة والأربعة وتنامي دور قضائتها وذلك من محكمة عليا إلى النظر في مختلف القضايا في إطار المحاكم المدنية.

سجّلت خلال القرنين الرابع والثالث أهمّ تدخلات محكمة المائة والأربعة ضدّ القادة العسكريين وأبرزهم حنّون الأكبر الذي ينكر أرسطو محاولة اغتياله بالسلطة ويقارن بينه وبين بوزانياس (Pausanias) الأسبرطي المنتصر ضدّ الفرس في واقعة "بلاتي" سنة 479 ق.م (Platée) والذي سعى إلى نفس الغاية أو وجهت له نفس التهمة. وتورّخ فترة قيادة حنّون بأواسط القرن الرابع ق.م. سعى إلى تركيز الملكية (regnum) حسب رواية يوستينيوس وذلك اعتمادا على عشرين ألفا من العبيد وعلى الآفارقة (Afri) وعلى ملك ماوري (rex Maurorum). لكن، محاولته فشلت فأعدم وطالت العقوبات الجماعية أفراد عائلته باستثناء ابنه جرسكون الذي عاش في المنفى بصقلية إلى حدود سنة 342 ق.م.

عيّنت قرطاج قائدين للجيش للتصدي لحملة حاكم سرقوسة أغاثكلاس على قرطاج سنة 310 ق.م. وهما حنّون وبملقرت وقد هزما في مواجهة أولى قتل خلالها حنّون. أما بملقرت فقد كان آنذاك حسب رواية ديودوروس الصقلي متواطئا مع أغاثكلاس بهدف الانفراد بالسلطة. وتأكّد الأمر سنة 308 ق.م. وبمجرد فشل في محاولته تمت إدانته بتهمة الخيانة وعمل مناهض للدولة حسب رواية ديودوروس الصقلي ويوستينيوس اللذين يشيران في نفس الوقت إلى أن بملقرت كان يذكّر مواطنيه بالأحكام الجائرة التي سلّطت على حنّون وابنه جرسكون. ومن المرجّح أن هذا التبرير يعكس دور محكمة المائة والأربعة وتوظيفها في الصراع بين العائلات الأرستقراطية في قرطاج. ونجد أثرا لتدخل هذا الهيكل القضائي ضدّ القادة العسكريين خلال الحرب القرطاجية-الرومانية الأولى. ومن مظاهره إعدام الأميرال حنّون قائد الحامية القرطاجية بـ "مسينا"

سنة 264 ق.م. بتهمة التقصير في الدفاع عن المدينة التي أُرست بها الحملة الرومانية. وأُقرّ نفس الحكم ضد حنون المنهزم في آخر وقائع هذه الحرب بـ"إغانس" ضدّ القنصل الروماني "لوتاتئوس" سنة 241 ق.م. والمرجّح أن "الإجماع" الذي حصل حول الفادة البرقيين منذ حرب المرتزقة حتى نهاية الحرب الثانية ثم تطور مشاركة الشعب في الحياة السياسية إلى حدود سقوط قرطاج خلق توازنا جديدا للمؤسسات السياسية.

يتفق أغلب دارسي ومحقّقي كتاب السياسة أنّ هذا الأثر هو إلى حدّ ما خلاصة دروس دولّها أحد تلامذة أرسطو، فاحتفظ المخطوط بالإلقاء والكلام الحرّ المليء بالتكرار والاستدراك والتراجع أو التلميح إلى تفسير ما. ويعتقد أ.ريفو (A.Rivaud) أن أرسطو كان يوزّع على تلامذته قبل كلّ درس ملخصات تبرز العناصر الرئيسية للمحور المدروس وكانوا يجيبون عليها أثناء الدرس وتمّ تداول نفس المسائل خلال سنوات وجمّعت إثر ذلك من طرف أرسطو أو أحد تلامذته في محاور متجانسة.

ولعلّ هذه الملاحظات تساعدنا على فهم الصيغ المختلفة التي ذكر بها النظام السياسي القرطاجي وقرطاج عامة فقد تراوحت بين الأوليغارشية والأرستقراطية والديمقراطية خاصة وأنّ غرض أرسطو هو تصنيف لا تحليل النظام السياسي القرطاجي. أمّا الاستدراك الرئيسي الذي نلاحظه والمتعلّق بحصول محاولة تركيز نظام فردي في قرطاج فإنّه يندرج في إطار بعد أساسي في فلسفة أرسطو السياسية القائمة على تطور الدساتير والنظم السياسية وتغيّرها الدائم.

أمّا قراءة بوليبيوس للدستور والنظام السياسي القرطاجيين فقد خضعت لنظرية التاريخ الدائري -الأنكوكليس- (anacyclosis) التي تجعل من أفول قرطاج وبروز روما حركة طبيعية. وخصّ بوليبيوس النظام السياسي الروماني بامتياز التواصل باعتباره "نظاما مختلطا" يمزج العناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية مما يعني امتزاج سلطة الفرد والأقلية والأغلبية. ويبدو تصوّر

بوليبوس منسجما مع المدرسة الرواقية الوسطى التي أثّرت في أسرة سقبيو. وقد كان بنيتيوس (حوالي 185-112 ق.م.) (Panétius) في روما إلى جانب سقبيو الاميلي من 146 إلى 129 ق.م. تاريخ تولّيه إدارة المدرسة الرواقية الوسطى في أثينا. وقد صاحب بوليبيوس سنة 146 ق.م. في الرحلة الاستكشافية على طول شاطئ شمال وغربي إفريقيا. وهكذا فإنّ تأثير المفاهيم الرواقية على بوليبيوس يبدو مؤكّداً وتتّخصّ منطلقات الرواقيين السياسية في مبدأ التّوازن في الحكم والالتزم بمرجعية أخلاقية في ممارسة السلطة وتتّبى أيضاً مفهوم الكسموبوليتية و"المجتمع العالمي" وإتمام التاريخ في دولة عالمية وهي نظرية الحكم التي أثّرت بصفة عميقة في الأوساط الحاكمة الرومانية وخاصة في عائلة سقبيو التي ارتبط بها بوليبيوس. لذلك فإنّنا لا نجانب الصّواب إذا اعتبرنا قراعتّه للمؤسسات السياسية القرطاجية قد قامت على نوع من المراوحة بين التّصور الدائري للتاريخ وبين تثمين النموذج الروماني وهو ما يعكس التّجاذب بين مهمّة المؤرخ وبين دور منظر الدولة الرومانية.

إن هذه الملاحظات حول المصدرين الرئيسيين لدراسة المؤسسات القرطاجية، تبرز صعوبة الإستفادة من معلومات وردت في سياق المقارنة واتسمت بالإيجاز والغموض أحيانا. وتفسر هذه الحقيقة إلى حد ما الحذر الذي ميز استنتاجات الدراسات الأكاديمية لكنها أدت أيضا إلى التردد في إدراج النموذج القرطاجي ضمن مرجعية النظم السياسية للمجتمعات القديمة، من ذلك مثلا صورة قرطاج لدى منتسكيو في كتابه "التأملات حول أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم" الذي صدر سنة 1734، فقد خصص حيزا في الفصل الرابع منه للمقارنة بين قرطاج وروما. والملفت للنظر أن مؤلف "روح القوانين" اقتصر في هذه المقارنة على إبراز ظاهرة شراء الوظائف وسيادة مبدأ الثروة في قرطاج مقابل مبادئ الفضيلة واحترام القوانين التي تسود في روما. وقد وردت هذه الأحكام في المصادر القديمة، لكننا لا نجد صدى يذكر لدى منتسكيو لأرسطو أو بوليبيوس اللذين بينا دعائم النظام

القرطاجي. ولعل هذا التوجه يعكس مركزية أثينا وروما في المرجعية الرمزية والسياسية لفكر النهضة وفلسفة الأنوار.

ونجد مؤثرات هذا التوجه لدى الفراد كروازي (A. Croiset) مؤلف "الديمقراطيات القديمة" الذي صدر سنة 1911 وخصص فيه ثلاث صفحات لقرطاج تسأل فيها عن "طبيعة هذه الديمقراطية السامية المعزولة في العالم القديم خارج المجال الإغريقي-الروماني؟".

ولعل هذا التساؤل يلخص المنطلقات الإيديولوجية التي أثرت في دراسة المؤسسات القرطاجية وغذت إلى حد ما أطروحة الملكية على حساب السلطة التنفيذية المنتخبة.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى غياب قرطاج في أغلب الدراسات القانونية للنظم السياسية القديمة (أنظر مثلا دراستي ج. قودمي J. Gaudemet وج. إلول J. Ellul).

وإجمالا فإن التناول الإيجابي لمؤسسات قرطاج ونظامها السياسي يكاد يكون القاسم المشترك للمصادر الإغريقية ولا يبرر القول بعزلة أو هامشية "ديمقراطية سامية" مقابل المركزية الإغريقية الرومانية، ذلك أن قرطاج أرست حضارة ونظاما ومؤسسات مدنية متوازنة في الفضاء الرحب للمتوسط القديم أثرت بصفة خاصة في الضفة الجنوبية منه وقد أدرجها أرسطو في إهتماماته وفي دروس "المعهد" بناء على قواسمها المشتركة مع المدن - الدول الإغريقية وعلى تفرداها في الآن نفسه.

مصادر الفصل الخامس ومراجعته

المصادر

- ARISTOTE., - *Politique*, - II, 11, 1 à 16, III, 1, 11, 9, 6; IV, 7, 4; V, 7, 4, 12, 12; 14; VII, 2, 10.
- ATHENNEE., - XIV, 27.
- CORNELIUS NEPOS -XXIII.
- DIODORE DE SICILE. - XIII, XX, 43, 1; 44; 6.
- FLAVIUS JOSEPH., Contre Apion., I, 156-158.
- HERODOTE - VII, 165-166.
- ISOCRATE. - *Nicocles*, 24.
- JUSTIN, XVIII, 7, XIX, 5, 13; XXI, 4, 3; 7; XXII, 7, 7-14.
- PLATON. - *Lois*, II, 6, 74 a
- POLYBE. - I, 31, 8; 82, 12, III, 33, 4, VI, 43-51, XIV, 61.
- SENEQUE. - *De la tranquillité de l'âme*, IV, 5.
- STRABON, *Géographie*, I, 4, 9
- TITE LIVE - XX, 7, 5; XXVIII, 37, 2; XXX, 10, 24, XXXIII, 46, 5-7; XXXIV, 61, 15

المراجع

- CHEVALIER (J.J), *Histoire de la pensée politique TI de la Cité-Etat à l'apogée de l'Etat-nation monarchique*, Paris 1979.
- CROISSET (A), *Les démocraties antiques*, Paris, 1911.
- ELLUL (J), *Histoire des institutions de l'Antiquité*, Paris,
- FANTAR (M.H), "Que savons-nous des institutions municipales dans le monde de Carthage", in, *Revue des Etudes phéniciennes puniques et d'Antiquités Libyques*, IV, (1988). pp. 205-214.
- *Carthage. Approche d'une civilisation*. T1, Tunis, 1993.
- FEVRIER (J.G), "La constitution municipale de Dougga à l'époque numide, in, *Cahiers de Byrsa*", 10, (1964 - 1965), pp. 85-91.
- GASCOU (J), "Les curies africaines: origine punique ou italienne?", in, *Antiquités Africaines n°10*, (1976) pp 33-48.

- GAUDEMET (J), *Les institutions de l'Antiquité*, Paris, 1984
- GSELL (S), *H.A.A.N.*, 1972. TII, Livre 2: Le gouvernement de Carthage... pp. 183-248.
- HUMBERT (M), *Institutions politiques et sociales de l'Antiquité*. 2ème édition, Paris, 1986.
- KRAHMALKHOV (C), "Notes on the rule of the sofetim in carthage", in, *Rivista di Studi Fenici*, IV, (1976), pp.153-157.
- MAURIN (L), "Himilcon le magonide, crises et mutations à Carthage", in, *Semitica*, XII, (1962) pp. 5-43.
- MONTESQUIEU, *Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence*. Chronologie et préface par J.EHRARD, Paris, Garnier-Flammarion 1968
- MOSCATI (S), "Il popolo di Bithia", in, *Rivista degli studi orientali*, 43, (1968), pp. 1-4.
- PICARD (G Ch) et Colette, *vie et mort de Carthage*, Paris, 1970.
- PICARD (G.Ch), "Les sufètes de Carthage dans Tite Live et Cornelius Nepos", in, *Revue des Etudes Latines*, 41, (1964), pp 269-281.
- "L'administration territoriale de Carthage", in, *Mélanges A. Piganiol*, II, (1966), pp. 1257-1265.
- "La révolution démocratique à Carthage" in *Latomus*, 62, (1968), pp.113-130.
- "De la fondation de Carthage à la révolution barcide", in, *Archéologie vivante*, 1-2, (1968-1969), pp. 149-153.
- RIVAUD (A), *Histoire de la philosophie T1: des origines à la scolastique*, Paris, 1960
- ROUSSEL (P), *Sparte*, Paris, 1960
- SESTON (W), "Des portes de Dougga à la constitution de Carthage", in, *Revue Historique*, T.237, (1968), pp. 277-294.
- SZNYCER (M), "L'Assemblée du peuple dans les cités puniques d'après les témoignages épigraphiques", in, *Semitica*, XXV, (1975), pp. 47-68.
- "Carthage et la civilisation punique", in, *Rome et la Conquête du monde méditerranéen*. sous la direction de Claude Nicolet. T2, *Genèse d'un empire*, Paris, (1978), pp 545-593.

- "Le problème de la royauté dans le monde punique", in, *Bulletin du Comité des Travaux Historiques. nouv. Ser., Fasc. 17 B*, (1984), pp. 291-301.
- "Les titres puniques des fonctions militaires à Carthage", in, *113. congrès national des sociétés Savantes. Strasbourg*, (1988), - IV colloque d'histoire et d'archéologie d'Afrique du Nord. T1. pp.113-121.
- WEIL (R), *Aristote et l'histoire* - Paris, 1960.

الفصل السادس

الحضور القرطاجي في المجال الإفريقي

اقتربت صورة قرطاج بالبحر وذلك منذ تأسيسها إلى حدود سقوطها، واعتبر شرط الرومان في مفاوضاتهم مع القرطاجيين قبيل الحرب الثالثة بنقل عاصمتهم إلى موقع قاريّ أمرا يصعب قبوله من طرف شعب أرتبط دوما بالتجارة البحرية. كما سادت صفة الإمبراطورية البحرية في المصادر والقرارات المعاصرة فأول حدث نعرفه عن قرطاج بعد تأسيسها يتمثل في إنشائها لمستعمرة إيبزا (إشيم في الأصل الفينيقي) (Ibiza) سنة 654 ق.م ولعلّ القدرة على تأسيس مستوطنات دون اللجوء لصور تفسّر بروز قرطاج خلال النصف الثاني من القرن السادس ق.م على الأقلّ كقوة عسكريّة هدفها حماية المرافئ والمستوطنات الفينيقية من حركة الاسيطان والقرصنة الإغريقية التي اتخذت بعدا جديّا بعد تأسيس "الفوقيين" لمستاليا (Massalia) سنة 600 ق.م ولعلّ التحالف القرطاجي الأترسكي يمثل البعد الدبلوماسي - العسكري لحماية مناطق نفوذ تجارية أصبحت محلّ منافسة.

إنّ النشاط المتوسطي وصورة الإمبراطورية البحرية التجارية القرطاجيّة الحريصة على تأمين حركة الملاحة ومناطق نفوذها، بدت أيضا من خلال تنظيمها للرحلات البحرية الكبرى وأبرزها رحلة حنون ورحلة خميك، لكن ذلك لم يمنع تطوّر قرطاج في محيطها الإفريقي الذي يمثل عمقا قاريّا مختلفا عن الظهير الزراعي المحدود للمدن-الدول الفينيقية سواء من حيث إمكاناتها الطبيعية أو تركيبها السكانية. والبحث في هذه المسألة كفيل بتقدير أهميّة الحضور القاريّ لقرطاج وتحديد مراحل تطوره وطبيعة العلاقة بالأهالي والانعكاسات الاقتصادية والحضارية لهذا الارتباط الذي ساد على امتداد تاريخ قرطاج خلافا للمقاطعة الترابية في إسبانيا التي تحكمت فيها قرطاج لمدة محدودة.

1 - القرطاجيون والأهالي الأفارقة من تأسيس قرطاج إلى

منتصف القرن الخامس ق.م.

يتوقف البحث في هذه المرحلة على روايات تاريخية وجيزة يطرح بعضها صعوبات في هامش التأويل الممكن. ومن ذلك رواية تأسيس قرطاج التي أشرنا لعناصرها في الفصل الثالث. ويعنينا هنا ما تذكره الرواية عن الأهالي "الماكسيتاني" وملكهم "هيارباس" الذين تعاقدت معهم المجموعة المؤسسة لقرطاج على دفع ضريبة سنوية. لكن معرفتنا بطبيعة التنظيم السياسي للأهالي المذكورين ومدى قدرتهم على فرض التزام ضريبي على قرطاج تبقى محدودة جداً ولا تتجاوز إمكانية مقارنة اسم الشعب المذكور في رواية يوستينيوس ماكسيتاني (*Maxitani*) مع مقاطعة موكسي (*Muxi*) التي تذكرها نقشة لاتينية عثر عليها بأوتريكا والمؤرخة بسنة 60 ق.م والتي غدت الافتراض بأن يكون اسم المقاطعة في علاقة باسم متساكني منطقة غرب قرطاج وتحديدا سهل مجردة الأسفل وظهير أوتريكا. وكنا أشرنا إلى أهمية الخزف المحلي المقولب في قرطاج خلال القرن السابع ق.م وهي مؤشرات لارتباط مبكر بين الطرفين. ومن مؤشرات ذلك أيضا استغلال مقاطع الهوارية وربما التحكم فيها منذ القرن السابع ق.م. وقد اتخذت علاقة قرطاج بالأهالي خلال القرن السادس ق.م. منعرجا جديدا وفقا لما يذكره يوستينيوس من عمليات عسكرية قادها مالكوس (*Malchus*) ضد الأفارقة في منتصف القرن السادس ق.م في محاولة لوضع حد للالتزام للضريبي المفروض على قرطاج. وتواصل ذكر هذه الحملات خلال الربع الأخير من نفس القرن من خلال حملة عزربل الماجوني ضد الأفارقة. وتتصّ المصادر على فشل هذه الحملات الأولى في المجال الإفريقي. وإذا سلّمنا بتاريخية الحملات المذكورة فإننا نلاحظ تزامنها مع نجاح قرطاج في التحكم في سردينيا وكورسيكا والتصدي للقرصنة الإغريقية في البحر التريني تماما مثلما نجحت في التصدي لمحاولة استيطان إسبرطية في ساحل خليج سرت شرق لبدة حيث أنشأ دوربوس (*Dorieus*) الإسبرطي مستوطنة وتمكّنت قرطاج من وضع حد لها

وطرد الإغريق بمساعدة قبائل المكاس (*Maces*) من الأهالي حوالي 510 ق.م. ولا نرى تناقصا بين محاولة السيطرة على المجال القاري للأفارقة المحيطين بقرطاج وتحالف أهالي منطقة لبدة معها ضد الإغريق. يرى أ.دي فيتا (A. Di Vita) إن قرطاج تحكمت في لبدة وصبراتة وأويا (طرابلس) منذ نشأتها. واستبعد إنشاء مستوطنات فينيقية بصفة مستقلة عن قرطاج خلال القرن الخامس. وإذا اعتمدنا رواية نيتيوس لويوس (XXXIV,62,3) فقد كانت لبدة عاصمة "الأمبوريات" التي تؤلف وحدة إدارية. والمقصود بالأمبوريات (*Emporia*) المرفأ والمدن التي تمتد بمنطقة سرت الصغرى وسرت الكبرى. ولئن كانت هذه المقاطعة خارجة المنطقة الخاضعة مباشرة لقرطاج فقد كانت تابعة ضريبيا. ولعل وطأة هذه التبعية لقرطاج تتضح بصفة غير مباشرة من خلال التطور الملحوظ لكل من لبدة وصبراتة وأويا خلال القرن الثاني ق.م. بعد أن أصبحت مستقلة بمواردها.

يمكن دراسة العلاقات السياسية والإدارية بين قرطاج من جهة واللوبيين والنوميديين من جهة ثانية من خلال أحداث المرحلة الممتدة من القرن الخامس ق.م. إلى حدود حرب المرتزقة والأفارقة إثر الحرب الأولى. ومقابل حالات الاندماج المذكورة بين الفينيقيين والأهالي واقتصار بعض المدن الفينيقية البونية بشمال إفريقيا على ظهير زراعي محدود، تمكنت قرطاج من اكتساب مجال زراعي والتحكم في منطقة قارية هامة اقتصاديا وعسكريا. ومثلت واحد من أهم مجالات تأثير الحضارة البونية.

2 - المجال الإفريقي لقرطاج

يلخص يوستينوس (*XIX*، 2-4) البعد الجديد لعلاقة قرطاج بالأفارقة والذي تأكد بعد أن "أجبر القرطاجيون - غداة هزيمة هيمراس - اللوبيين المجاورين لهم على التنازل عن الضريبة التي التزمت قرطاج بدفعها لهم بدون انقطاع تقريبا منذ تأسيس المدينة، وحاربوا النوميديين وبلغت المجابهات

المأوربين". ويؤرخ المؤلف لهذه الأحداث بعد واقعة هيمراس التي جدت سنة 480 ق.م وقد هزم فيها الإغريق بقيادة حيلون (Gélon) حاكم سرقوسة وتيرون (Théron) حاكم أكرقاس (Acragas) جيش قرطاج مما أدى إلى تراجع نفوذها في صقلية. ونظرا للانعكاسات المستقبلية العميقة لهذا الحدث فإن ج.ش.بيكار يعتبره منعرجا محددًا في تاريخ قرطاج! فالتراجع الظرفي لنفوذها في الجزيرة كان حافزا لانشأة مجال حربي جديد على حساب اللوبيين المجاورين لقرطاج والنوميديين وهو ما يمكن أن نورخه بين 480 و450 ق.م.

أمّا عن تفاصيل هذه الأحداث والمدى الجغرافي لعمليات التوسع خلال القرن الخامس ق.م. فمعرفةنا بها تبقى محدودة أمام اختصار أو صمت المصادر. ومن الإشارات الوجيزة في هذا الصدد رواية ديون كريسستوموس (Dion Chrysostomos) ومفادها أن حنون ابن عبد ملقرت "حول القرطاجيين من صورانيين - كانوا - يعيشون في لوبيا، وبفضله استوطنوها بدل فينيقيا وغموا ثروات طائلة وأسواقا كثيرة وموانئ وسفنا وسيطروا بحرا وبرّا".

إن تأويل هذه الرواية يفترض الإلمام بمصدرها، فنحن بصدد رواية وجيزة لخطيب إغريقي من بيثينيا (Bithynie) عاش في ما بين 40 و111م. وكانت خطبه سياسية وفلسفية غرضها إفادة مثقفين من أوساط متنوعة عبر ثقافته ببلاد الإغريق وآسيا الصغرى. وقد اضطرتّه معارضته للإمبراطور دوميسيانوس (T.F.Domitianus) (81-96م) لمغادرة روما لكس الإمبراطور ترائانوس (M.U.Trajanus) أعاد له الاعتبار والمعروف أن هذا الإمبراطور أشرف على أهم حركات التوسع وبلغت في عهده الإمبراطورية الرومانية أوج امتدادها في العديد من نواحيها. ولعلنا نجد في هذه الظرفية مبررا لنص خطابي يبرز فيه ديون كريسستوموس ثنائية الاستيطان والإثراء.

وهكذا فإن السياق الخطابي وإطار هذه الرواية يفسران غرضها ولكن ذلك لا ينزع عنها قيمتها التاريخية، فالمصادر التاريخية تتفق في تواصل الفباد العسكرية خلال القرن الخامس ق.م. داخل العائلة الماجونية. ووفقا للرواية

المذكورة يمكن اعتبار حنون بن عبد ملقرت الماجوني الذي قاد عمليات التوسّع في المجال الأفريقي هو نفسه قائد الرحلة البحرية التوطينية والتجارية التي انطلقت من قرطاج عبر ساحل شمال إفريقيا ثم تواصلت حتى خليج غينيا. لكن شدة اختصار نص ديون كريزستوموس اعتُبرت مصدر غموض ومبرراً لتأويلات مختلفة ومنها ما يعتبر دور حنون في تحرير القرطاجيين من المدينة - الأم صور لكتنا نرجح أن رمزية هذه الرواية في أوج مراحل التوسع الروماني تؤكد على امتيازات الاستيطان والارتباط بمجالات جغرافية جديدة خاصة إذا اعتبرنا إمام المؤلف المذكور بالمرجعية الإغريقية التي تولي قيمة قصوى للتأصل في المدينة - الدولة والمجال التابع لها وهو مفهوم تجاوزته النظرة الكسموبوليتية للإمبراطورية الرومانية. فإلى أي مدى يمكن القبول بمصداقية المثال القرطاجي الذي يبدو أن كريزستوموس ديون اعتمده لمجرد التفسير والبرهنة؟

ويقيم ق. بوننس (G.Bunnens) مقارنة تاريخية لهذه الرواية مفادها أن قرطاج أصبحت "ملزمة في أواسط القرن الخامس ق.م. على القطع مع سياسة انتظارية للتحكم في مجالها القاري المباشر".

أستعرض أرسطو في ثانيا كتاب "السياسة"، صيانة الديمقراطية (9، 5، VI) فأشار إلى آليات استفادة عامة المواطنين من موارد المدينة الدولة ومساهمة الأثرياء في خلق توازن اجتماعي داخلها ثم يخلص إلى أن "القرطاجيين بتوخيهم هذا الأسلوب في الحكم كسبوا ودّ العامة، فهم يوفدون بدون انقطاع إلى المدن الخاضعة لهم أناسا من العامة ويسهمون بذلك في رفاههم".

يبدو هذا الإجراء من ثوابت سياسة قرطاج، أي تخفيف العبء الديمغرافي بها عن طريق الاستيطان. وليس من المبالغة أن نرجح مطابقة هذه الإستارة لعمليات التوسع خلال القرن الخامس ق.م. خاصة إذا اعتبرنا إمكانية استقبال قرطاج لمهاجرين من الشرق الفينيقي خلال القرن السادس ق.م ووجود صعوبات ظرفية بعد سنة 480 ق.م وإن لم تقض إلى انقطاع المبادلات وانطواء قرطاج

في محيطها الإفريقي كما يبدو من خلال الصورة التي سادت لمدة معينة في الدراسات المعاصرة والتي أمكن مراجعتها اعتمادا على أهمية الخزف الإغريقي الأثيني المؤرخ بالقرن الخامس ق.م في قرطاج والمدن البوننية. وفي هذا ما يدعم مبدئيا القراءات التي ترى في تواصل المبادلات استقرارا لموارد قرطاج ولاستثمار الارستقراطية في المجال الزراعي المكتسب ولتنويع موارد الدولة سواء اعتمادا على المناطق التي تملكها القرطاجيون بالوطن القبلي وسهلي وادي ملين ومجردة الأسفلين أو مناطق السهول الكبرى التي أخضعتها قرطاج لعلاقات ضريبية وألزم أهاليها بالتجنيد في جيش قرطاج.

إنّ التغيرات المشار إليها تقوم على مقارنة منطقية يمكن تدعيمها بناء على أحداث أواخر القرن الخامس ق.م، ففي سنة 410 ق.م أمكن لقرطاج تجهيز حملة عسكرية باتجاه صقلية بقيادة حنبعل الماجوني تواصلت مع خلفه في القيادة العسكرية خميناك ابتداء من سنة 406 ق.م. إلى حدود سنة 396 ق.م. وقد اضطرّ خميناك إثر فشل حصار سرقوسة ونقشّي الوباء في جيوشه إلى مغادرة الجزيرة ويذكر ديودوروس الصقلي (XIV، 77) أنّه أنشغل بمصير العسكريين من المواطنين القرطاجيين فقط وتخلّى عن فيالق الأهالي والمرترقة. وتؤكد هذه الرواية أهمية عنصر الأهالي الأفارقة في جيش قرطاج كمجنّدين وليس كحلفاء وكان هذا الحدث منطلقا لأولى انتفاضات الأفارقة ضدّ قرطاج سنة 396 ق.م. وكان المنتفضون في عداد مائتي ألف حسب نفس المؤلف. فهل هو تضخيم عددي متعارف عليه لدى ديودوروس الصقلي أم أن الأمر يتعلّق برّد فعل الأهالي اللوبيين والنوميديين ضدّ علاقات هيمنة اقتصادية وضغط الإدارة العسكرية القرطاجية؟

إنّ استحالة ضبط مجال التوسّع القرطاجي وتقدير أهميّته الاقتصادية خلال القرن الخامس ق.م يحيلنا إلى البحث في علاقات قرطاج بالمدن والمرافئ الفينيقية. فاعتمادا على نصّ رحلة سيلاكس المنحول (Pseudo-Scylax) المؤرخ بالقرن الرابع ق.م يذكر المؤلف المرافئ والمستوطنات من سرت الكبرى إلى

مضيق أعمدة هرقل معتبرا أن "مجل هذه المدن والمرافئ تابعة للقرطاجيين". ولا نملك معطيات واضحة عن آليات هذه التبعية سوى ما يذكره آبيانوس إثر هيمنة نوميديا على مدن سرت الصغرى والكبرى بأنّها التزمت بأن تدفع للنوميديين الضريبة التي كانت تدفعها لقرطاج والمؤكد أنّها كانت تتمتع في نفس الوقت بهامش استقلالية في إدارة شؤونها المحلية أو البلدية تماما مثل هدرمتوم ومدن البيزكيوم ومدن الساحل النوميدي.

يستبعد ق.كامبس (G.Camps) سيطرة قرطاج المطلقة على المدن الموجودة بسواحل نوميديا. ويرى عوضا عن ذلك نسيج علاقات هشة ومتغيرة بين المرافئ التي تحكمت فيها قرطاج ثم قبائل أو ممالك الأهالي النوميديين والماوريين ثم العاصمة البونية. ويعتبر أن هذه الأخيرة لم تفرض هيمنة أو نفوذا على المنطقة المذكورة، لكن أحداث سنة 213 ق.م. تدعو إلى مراجعة هذا الرأي، فالنزاع الذي نشب بين قرطاج وحليفها قايا ملك نوميديا الشرقية من جهة وسيفاكس ملك نوميديا الغربية من جهة ثانية كان مداره على الأرجح السيطرة على المدن الساحلية التي كانت ذات وزن استراتيجي من حيث علاقتها بساحل المقاطعة القرطاجية في ايبيريا التي كانت آنذاك إحدى أهم جبهات الحرب الثانية.

3 - الإدارة القرطاجية للمجال الإفريقي

تتبنى معرفتنا بهذه المسألة على إشارات محدودة في المصادر الأدبية وتأويل نقاش بونية أو مزدوجة النص أي بونية - لونية إضافة إلى نقاش لاتينية من المرحلة الجمهورية أي أنّها تعود إلى الطور الأول من تاريخ المقاطعة الرومانية - الإفريقية. وتسمح هذه المصادر بالبحث في الوضع القانوني والإداري لمجالين ارتبط أولهما مباشرة بقرطاج أي امتدت به ملكيات القرطاجيين ويمكن اعتبار ثانيهما مجال نفوذ بوني يلعب دور المموّن بالحبوب ويخضع رعاياه للتجنيد في الجيش البوني.

وتُعتمد النقائش والمعطيات الأثرية وتحديدًا الخزف والمعالم الجائزية اللّويّة والنوميديّة في محاولة لبلوغ الإمام المقبول بمسألة تبدي بعض المفارقات: فالمجال الإفريقي الذي ضمته قرطاج احتفظ بمعالم الحضارة البونية بعد سقوط قرطاج. وهذا المعطى لوحده يدعونا إلى مراجعة القراءات القائمة على ثبات علاقات الهيمنة والصراع بين الطرفين وهي التي تبدو خاصة من خلال المصادر الأدبية. على أنّنا نجد نقبضها بصفة محدودة في نفس المصادر. وتساعد المعطيات الأثرية والنقائش على مقاربة المسألة بصفة شاملة أي في جوانبها السياسيّة والاقتصاديّة والحضاريّة.

إنّ الترتيب الزمّني للمصادر الأدبية التي تستعرض امتداد الحضور القاري لقرطاج بصفة صريحة أو ضمنية يبيّن أن بداية هذا الحضور تعود إلى أواخر القرن الخامس ق.م حيث يتضح من خلال تركيبة الجيش القرطاجي الذي وجه إلى صقلية سنة 410 ق.م حضور الأهالي الأفارقة كمجنّدين.

على أنّنا لا نستبعد وجود نوميديين أو ماوريين مرتزقة أو حلفاء. وتهمنا الفئة الأولى التي تعبّر عن الارتباط القانوني الذي أرسّته قرطاج مع المجال المكتسب بفضل توسعات أواسط القرن الخامس. وكنا قد أشرنا إلى ردّ فعل هؤلاء الأفارقة الذين تخلى عنهم خمليك قائد آخر حملة سنة 396 ق.م لما انسحب بمعية المواطنين القرطاجيين إثر انتهاء حصار سرقوسة. ويذكر ديودوروس الصقلي حيثيات ردّ فعل الأفارقة و"امتعاض رعايا قرطاج المنهكين من ثقل إدارة استبدادية وانضمت مجموعات من العبيد المنتفضين الذين هاجموا قرطاج عددهم في عداد مائتي ألف".

والملاحظ تواصل ردود فعل الأفارقة إثر مصاعب مرت بها العاصمة البونية بسبب نقشي أوبئة خلال سنوات 378 و365 و367 ق.م. واقتترنت محاولة حنّون الأكبر الانفراد بالسلطة في قرطاج في أواسط القرن الرابع ق.م بالاعتماد على العبيد وعلى ملك ماوري وضع على نمته جيوشه وهي إشارة صريحة لوجود كيان سياسي منظم لا يحدد يوستينوس منطقته الجغرافية وهي مبدئيا

غرب المناطق النوميدية المتعارف عليها خلال القرن الثالث ق.م وهو مؤسّر لعلمق الحضور القاريّ لقرطاج الذي نبتّته في أواخر القرن الرابع ق.م اعنادا على نصّ ديودروس الصقلي المتعلّق بحملة أغاتوكلاس التي بدأت سنة 310 ق.م. فبعد اكتساح الوطن القبلي ومهاجمة منطقة هدرتموم، قام أحد مساعديه أوماكوس (Eumakos) بالتوغل داخل البلاد فاستولى على دقة (Tocai) وهي "مدينة ذات امتداد بديع" فيما يذكر ديودروس الصقلي مشيراً إلى أنّه كسب تحالف عديد النوميديين الذين يعيشون في ضواحيها نم أيليماس (Ailymas) ملك اللوبيين الذي حالف الإغريق ثم انقلب ضدّهم لفائدة قرطاج.

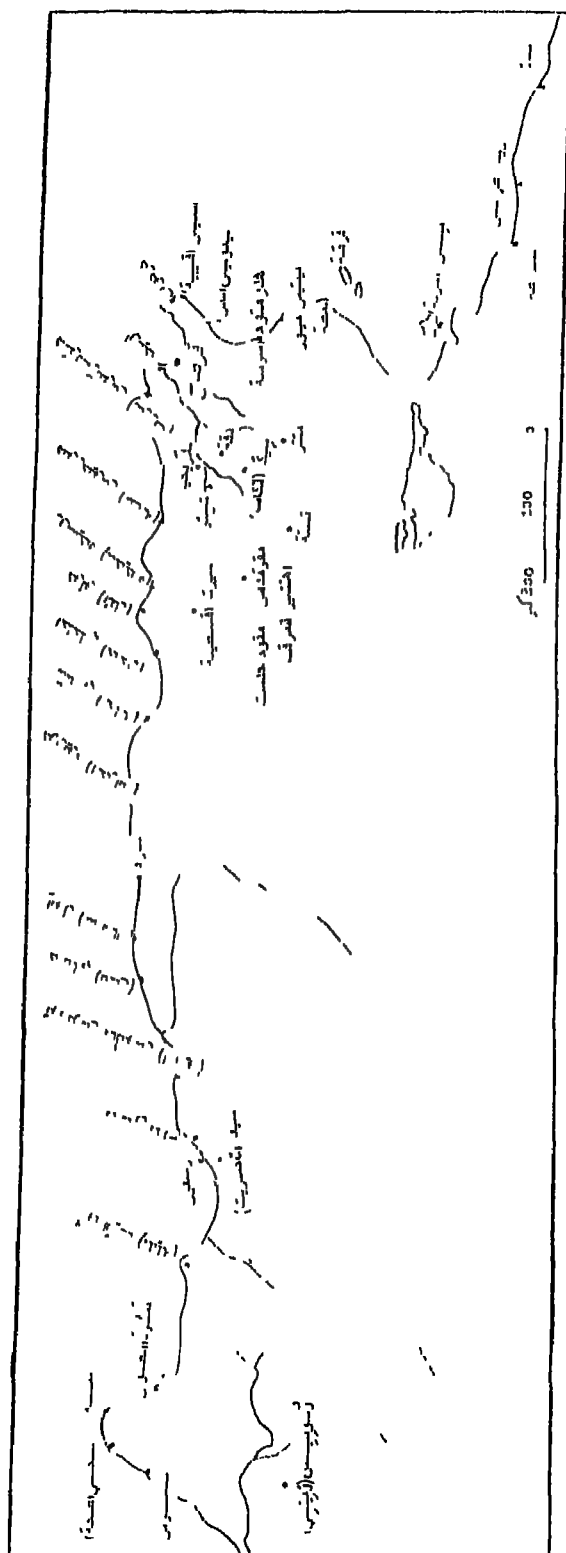
وتجاوز الشهادات المتعلقة بأحداث منتصف القرن الثالث ق.م منطقة دقة باتجاه المناطق الجنوبية الغربية، فقد قام الأفارقة بنهب المجال الزراعي القرطاجي في ظروف حملة للفصل الروماني ريجولوس سنة 256 ق.م على قرطاج أثناء الحرب الأولى ويشير بوليبيوس إلى ردّ فعل قرطاج من خلال حملة حنّون سنة 254 ق.م التي بلغت مدينة إفريقية كبيرة وهي (Hecatompylos) التي اعتبرت مدينة تبسة. وإذا كان الحضور القرطاجي بتبسة محلّ نقاش سواء اعتبرناها منطقة دفاعية منقّمة أو تابعة فإن سيكا (Sicca) - الكاف - تجسّد هذه العلاقة القانونية حيث نُقل إليها مرتزقة الحرب الأولى من العاصمة البونية سنة 241 ق.م. أمّا إذا اعتمدنا دلالات أسماء الأماكن فإننا نلاحظ غرب سيكا بين تبسة وسرتا (Cirta) - قسنطينة - موقع مكومداس (Macomades) (هنشير المرقب) وهي صياغة لاتينية لاسم مكان بوني شائع الاستعمال: مقوم حدشت (Maqôm hadasht) أي "المركز الجديد". والملاحظ أنّ أوريليوس (Aurelius) أسقف هذه المدينة كان في بداية القرن الخامس ممن يتقنون اللغة البونية حسب ما ورد في إحدى رسائل القنيس أوغسطينوس.

لكن هل يمكننا اعتماد أسماء الأماكن أو مؤشّرات التأثير الإداري واللغوي والديني لضبط حدود النفوذ القرطاجي؟ يشكّ س. قزال في مصداقية المقياس الأوّل فيمكن أن يكون مصدر سوء تقدير لفرضية إضفاء القرطاجيين لتسميات

فينيقية على مواقع أهلية معروفة أو تبنى الأهالي لهذه التسميات من منطلق تلأثرهم بالحضارة اليونانية فالأسماء الفينيقية القليلة للمواقع الداخلية لا تكفي لتأكيد تبعيتها لقرطاج. (أنظر الخريطة رقم 1).

وتؤكد المصادر الأدبية حقيقة التحكم في مواقع ومدن حصينة مثل تبسة وسيكا لكن تقديراتها لا امتداد المجال القرطاجي تبدو تقريبية. يذكر آبيانوس أن "قرطاج تحكمت في نصف لوبيا" بعد أن بين "استيطان القرطاجيين لمدن معزولة في ما وراء الخندق الحدودي وفرضهم لنظام استخلاص ضرائب وتجنيد الرعايا". أما سترابو فيشير إلى "ضم الفينيقيين [القرطاجيين] لكل المناطق التي لا يسود فيها الترحال". فهل يعني ذلك سيطرة قرطاج على الأراضي الخصبة التي يعيش فيها اللوبيون أو اللومبيون المستقرون؟. فقد بين بوليبيوس اعتماد قرطاج على موارد لوبيا، أي المجال الإفريقي في كل ما يتجاوز احتياجاتها اليومية. ويمكننا اعتبار لوبيا مجالا مموّنا خاضعا إداريا لقرطاج دون أن يكون بالضرورة مجال استيطان.

ذكر بوليبيوس حنون -الذي بلغ تبسة سنة 254 ق.م- وهو الذي بادر بمفاوضة المرتزقة في سكا سنة 241-240 ق.م- باعتباره القائد العسكري للمقاطعة القرطاجية ولعله مدلول وظيفة بويتاركوس (boétharque) التي يستعملها نفس المؤلف لما تعرض للحملة العسكرية التي وجهتها قرطاج سنة 238 ق.م لوضع حد لتمرّد مرتزقة سردينيا وكان قائد الحملة البويتاركوس حنون، ولا يمكن اعتباره بالضرورة نفس القائد المذكور سابقا نظرا لتطابق أسماء العديد من القادة العسكريين. يحذر التساؤل عن المكانة الإدارية أو العسكرية للمنطقة المتقدمة في المجال الإفريقي والتي لعبت فيها تبسة وسيكا (الكاف) دور مركز الحامية القرطاجية أو المعسكر. يحاول بوليبيوس تبرير الخراط الأهالي وحاسمهم في ثورة المرتزقة بإدارة حنون المتشددة مشيرا إلى أن "الولاة الذين يحضون بالتقدير والتكريم أكثر من غيرهم هم أولئك الذين يمتون قرطاج بأوفر العائدات والمؤمن لا أولئك الذين يعاملون رعاياهم بلين وإنسانية...".



المراكز التقليدية - تارخية شمن إفريقيا و من الأهلي المنتشرة بالحضرة الوبية

كما يذكر أبيانوس "البونتيار" كرتالون (Carthalon) القائد العسكري للمقاطعة البونتيّة الذي اكتسح الأراضي التي سيطرت عليها نوميديا في عهد ماسينيسا وأخذ غنائم وحرّض اللّوبيين ضدّ النّوميديين".

إنّ المعلومات المذكورة التي نهّم قادة أو ولاية المقاطعات الإفريقيّة تفترض وجود هيكلّة إداريّة، لا نجد لها سندا في المصادر الأدبيّة باستثناء ما ذكره أرسطو بشأن "المواطنين القرطاجيين الذين يتولّون وظائف ضريبية تجاه الرعايا".

إلى أي مدى تمكّنا النقائش من مراجعة الإدارة الترابيّة القرطاجيّة ومعرفة مقاطعاتها؟

نعمد في هذا الصّدّد على أربعة نصوص وهي:

- النقيشة البونتيّة المعروفة باسم الملك النوميدي مكبسا (Micipsa) والمؤرّخة بالسنة الحادية والعشرين من حكمه أي سنة 127-128 ق.م وقد عثر عليها بجبل المسوّج سنة 1940 على بعد 25 كيلومترا شمال مكتر. وهي بمثابة العلامة الحدوديّة ويذكر النصّ "المسؤول عن منطقة تشقت" أي هضاب مكتر وهي المنطقة التي امتدّ فيها نفوذ نوميديا بعد أن فقدتها قرطاج حوالي سنة 152 ق.م حسب شهادة أبيانوس الذي قدّمها كمقاطعة إداريّة بونتيّة. وتدعمت مناقشة هذه المسألة بعد اكتشاف نقيشة لاتينيّة بالسّاحة العموميّة - فوروم - لمدينة مكتر (Mactaris) سنة 1963 وهي تنكّر مقاطعة توسكا وقونزوزي (Pagus Tuscae et Gunzuzi) وهذه النقيشة مؤرّخة بفترة حكم الأمبراطور تراجانوس (Trajanus) - (96-117م) وتحتيدا سنة 113م وقد مكّنت من معاينة اسمي "تشقت" و"توسكا" (Tusca) في النصّين ومقاربة مدلول المقاطعة الترابيّة أو الإداريّة "أرس" (أرض - أراضي) في النقيشة البونتيّة وبقوس (pa gus) في النقيشة اللاتينيّة. ولهذا المصطلح مفهوم الأول يعنى المجال الترابي للمستوطنات أو جزء منه وهو المحتوى الذي اتخذته في مختلف مناطق

الإمبراطورية الرومانية. أمّا المفهوم الثاني فينطبق على مقاطعة ترابيية تضمّ العديد من المدن وهو ما انفردت به المقاطعة الإفريقية وتحديدًا المجال التابع لقرطاج البونية قبل سقوطها، مما دفع إلى اعتبار المقاطعات الترابية المذكورة في النقائش اللاتينية وريثة مقاطعات إدارية قرطاجية وهذا الاستنتاج محلّ إجماع على الأقلّ بالنسبة لمقاطعة مكثّر أو توسكا التي قُدرت مساحتها بين 2500 و3500 كلم² وتضمّ حسب أبيانوس خمسين مدينة وهو تعداد للمدن والتّجمعات القروية. وبهنا هذا التواصل في طبيعة المنطقة كمقاطعة إداريّة من المرحلة القرطاجية إلى المرحلة النوميديّة فالرومانيّة. ويرجّح ج.ش.بيكار أن هيملة قرطاج على المنطقة المذكورة تعود إلى أواسط القرن الرابع ق.م. بفضل حملات حنّون I الأكبر ضدّ الأفارقة.

بقيت منطقة توسكا تحت السيادة النوميديّة إلى حدود 46 ق.م حيث أنشأ يوليوس قيصر ولاية إفريقية الجديدة (*Africa Nova*) التي امتدت على جزء هامّ من مملكة يوبا الأوّل (*Juba Ier*). وأدى إدماج ولايتي إفريقية القديمة (*Africa Vetus*) وإفريقية الجديدة في إطار البروقنصليّة (*Africa Proconsularis*) إلى الرّبط بين المنطقة التي اكتسبتها روما على حساب قرطاج سنة 146 ق.م والمجال المكتسب حديثاً وهو ما يساعدنا على تفسير اتّساع مقاطعة توسكا خلال الفترة الرومانيّة لتضمّ مقاطعة تابعة لقرطاج إلى حدود سنة 146 ق.م وهي قونزوزي (*Gunzuzi*) وتقع شمال - شرق توسكا، وكان يفصلهما الرّسم الحدودي المعروف "بالخندق الملكي" (*Fossa Regia*). ويفترض ج.ش.بيكار أنها كانت تمتدّ على المنخفض الأوسط لوادي الكبير ومليان وسهل الفحص وتضمّ 14 مدينة. ويرجّح أيضاً أنها تمتدّ على منخفض الوادي الكبير. ويفترض أن تكون هذه المقاطعة قائمة الذات قبل ضمها إلى توسكا بناء على محتوى النقيشة الإهدائية التي عثر عليها بأوتيكا والمؤرّخة بسنة 60 ق.م وهي موجّهة لمراقب الضّرائب في ولاية إفريقية نوماريوس روفوس (*Numerius Rufus*) من طرف الرّعايا الأفارقة اثلاث مقاطعات: موكّسي، قوزوزي

وزوقايي" (*Stipendiarii pagorum Muxi, Guzuzi, Zeugei*). تتفق مختلف التراسات في التطابق المُمكن بين قونزوزي (*Gunzuzi*) المدمجة في مقاطعة توسكا وفوزوزي (*Guzuzi*) المذكورة في نقيشة أونيكَا كمقاطعة قائمة الذات. وتدعم هذه النقيشة معرفتنا بمقاطعتين إداريتين وهما مقاطعة موكسي (*Muxi*) المذكورة في المقام الأول ومن المحتمل أن تكون الأقرب للموقع الذي أُقيمت به النقيشة أونيكَا، عاصمة المقاطعة الإفريقية الرومانية آنذاك. ومما يدعم تحديد الإطار الجغرافي لهذه المقاطعة في ظهور أونيكَا وحوض مجردة الأسفل التشابه الجلي بين تسميتها (*Muxi*) وشعب الماكسيتاني (*Maxitani*) الذي يذكره يوستينوس في رواية تأسيس قرطاج والتي تغيد ضمناً أنه كان مُحكماً في الظهور للقاري القريب من قرطاج. وتجدر الإشارة إلى أن اسم هذا الشعب يمكن أن يتخذ مفهوماً وامتداداً واسعين في حال مقارنته مع "مزياس" (*Mazies*) الذي يخفي تحريفاً لاتينيا لاسم أمازيغ الاسم المتعارف عليه للأهالي.

أما مقاطعة زوقايي (*Zeugei*) فهي في تقدير أ.مرلان (A.Merlin) توافق المناطق القريبة من قرطاج التي تمتد بين وادي مليان ومجردة. وربما تكون مطابقة - حسب جلبار بيكار - للمنطقة الزراعية لقرطاج التي يذكرها بوليبيوس بصيغة كُورا (*chōra*) أي المقاطعة القريبة من قرطاج دون أن ينقل اسمها البوني. وتمتد هذه المقاطعة على الأرجح على منطقة واسعة بين وادي مجردة ومليان. وقد تمت مقاربة اسم هذه المقاطعة مع اسم زوجتانيا (*Zeugitane*) الذي أطلق على المقاطعة البروقنصلية بعد إصلاحات ديوقليسيانوس (285-305م) (*Diocletien*). (أنظر الخريطة رقم 2)

قَم بوليبيوس بوزاكيس (*Byzakis*) البيزاكيوم (*Byzacium*) في المصادر اللاتينية - بصفتها مقاطعة إدارية وينقلنا بذلك إلى المنطقة التي توافق الساحل التونسي ومركزها هدرمتوم (*Hadrumetum*). (أنظر الخريطة رقم 3) وتتسبب المصادر الأبية عملية التأسيس لصور أو للفينيقيين دون تخصيص وتطورت في نفس المنطقة المدن الساحلية بدءاً من تيمترا (*Themetra*) 15 كلم

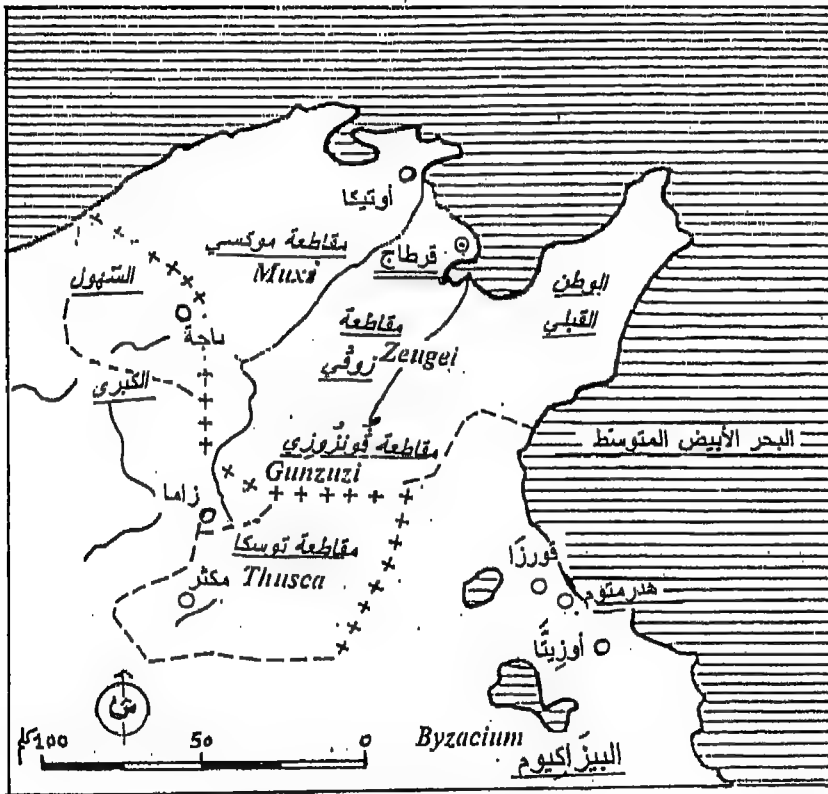
شمال غرب هدرمتوم إلى أכולا -الشابة- (Acholla) ومرورا بتابسوس -رأس
الديماس (Thapsus) - ولمطة (Lepti Minus) أما العمق القاري فيمتدًا إلى
تيزدروس -الجم- (Thysdrus) التي عثر بها على بقايا جنائرية بونية وسميرات
(Smirat) أبعد المواقع الداخلية غربا. وتشارك أهم المصادر في التخصيص على
الهوية اللوبى - فينيقية لسكان هذه المنطقة، ورغم ارتباطها بقرطاج اقتصاديا
وسياسيا فالأقرب للظن أنها تتمتع باستقلالية في الإدارة المحلية. وقبل مناقشة
الخصائص الحضارية للبيزاكيوم في الفترة البونية لابد لنا من التساؤل عن وحدة
هذه المقاطعة بناء على النقوشة اللاتينية التي تكلنا على مقاطعة فورزا (Pagus
Gurzensis / Gurza) وتذكر معها مدينة أوزتا (Uzitta) ومحتواها عبارة عن
عقد رعاية لهما من جانب والى إفريقيا البروقنصالية الرومانية لسنة 12 ق.م
دوميسيوس أهلباربوس (Domitius Ahenobarbus) وتوافق فورزا القلعة
الكبرى أي شمال غرب هدرمتوم.

يبقى التساؤل حول تاريخية هذه المقاطعة فهل هي امتداد لوضع إداري لما
قبل 146 ق.م أم هي مترتبة عن تطورات الفترة الرومانية.

استعرضنا مختلف المقاطعات الإدارية التي نصت عليها النقائش أو
المصادر الأدبية. ورغم افتقارنا لمعطيات ذات صبغة إدارية فإننا نلاحظ
إجماعا حول اعتبار الوطن القبلي مقاطعة تابعة مباشرة للإدارة القرطاجية وقد
نكرنا كمؤشر على ذلك الاستغلال المبكر لمقاطع الهوارية. وتبرز المصادر
الأدبية الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للمنطقة التي امتدت بها ملكيات
القرطاجيين وسنعرض في الفصل المخصص للاقتصاد القرطاجي التي أبرزت
المكانة الزراعية لهذه المنطقة. (أنظر الخريطة رقم 4)

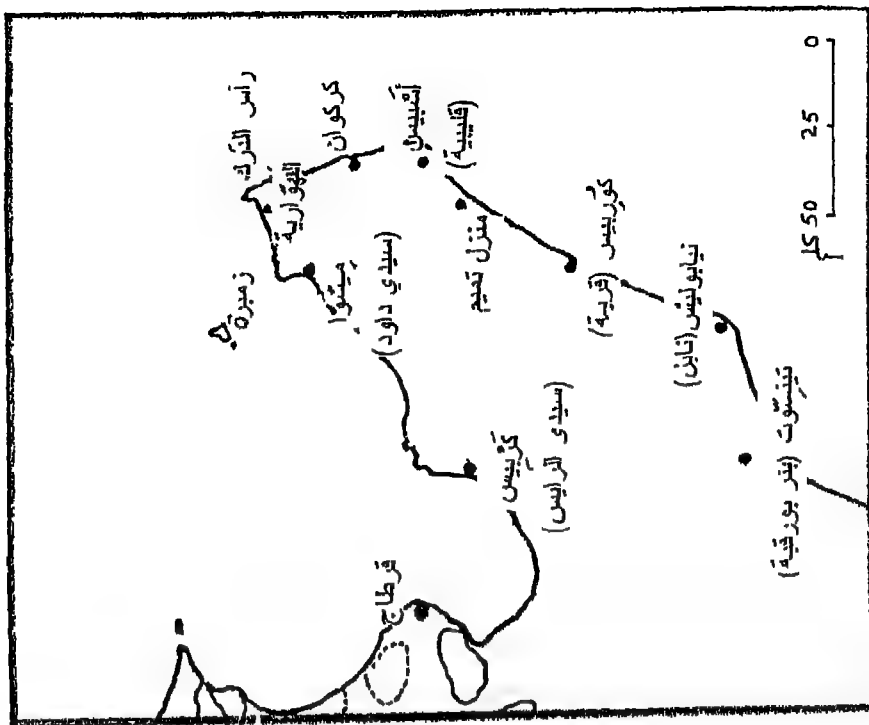
امتدت سلطة نوميديا على منطقة السهول الكبرى (Magni Campi) التي
تمسح بلاد باجة (Vaga) والتي كانت بمثابة عاصمتها، وسهول بوسالم
وبولأرجيا (Bulla Regia) سنة 152 ق.م ويفترض ضمينا أنها كانت قاعدة
مقاطعة إدارية على غرار نوسكا - مكثر - . ولهذه المنطقة مكانة اقتصادية

مؤكدّة ودور الممون الرئيسي لقرطاج بالحبوب. وكانت إلى جانب المقاطعات الإدارية البعيدة والتي يسود بها الأهالي من اللّوبيين والنّوميديين خاضعة لقرطاج في إطار علاقات ضريبية تختلف المصادر في تقديرها وتشير إلى أنّها تبلغ نصف المحصول زمن الحروب، وتلخّ على علاقات الهيمنة وإخضاع الأهالي فما هي سبل مناقشة هذه المسألة؟.

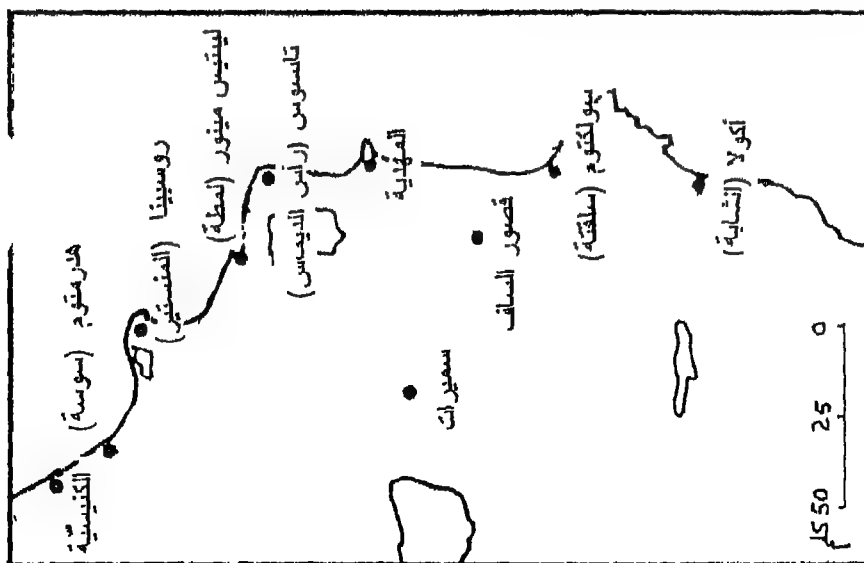


2: خريطة المقاطعات القرطاجية

(المصدر: G.Ch.Picard, L'administration territoriale de Carthage, p1260)



4: خريطة المواقع البونية بتونس القنبي



5: خريطة المواقع البونية بالنيوز اكيوه (الساحل التونسي)

4 - قرطاج والأهالي : الوجه الآخر للعلاقات والتفاعلات الحضارية

يطغى على النصوص التاريخية إبراز انتفاضات الأهالي في صورة رفض الخضوع والعداء الدائم لقرطاج. وتفترض هذه الشهادات وجود نخبة قلادة على تجميع الأهالي وتنظيمهم وتعبئتهم وتحديد أهداف حركاتهم. لكننا أقرب إلى الظن أن هذه الانتفاضات لا تعبر عن تنافضات هيكلية بل تحددها الصعوبات الظرفية المختلفة التي تلم بقرطاج.

وقد مثل الأهالي منذ التصدي لمحاولة دوريوس الإسبرطي تأسيس مستوطنة في المنطقة الطرابلسية في أواخر القرن السادس ق.م، إلى الحرب الثالثة طرفا ثابتا إلى جانب قرطاج سواء كراعيا خاضعين أو كحلفاء.

واقترنت حرب المرتزقة بأقصى درجات انحسار هذه العلاقة وألف الأهالي في بدايتها جبهة موحدة ضد قرطاج سرعان ما تصدعت في مرحلتها الحاسمة بانضمام أحد قائدها نرافاس (Naravas) إلى قائد الجيش القرطاجي عبد ملقرط البرقي وهو حسب بوليبيوس "من أشهر القادة النوميديين وكان دوما مواليا للقرطاجيين على غرار أبيه". تبدو هذه العلاقة أقرب لارتباط قادة الماسيل النوميديين الأوائل بقرطاج وتأثرهم بالحضارة البونية فجذ مسنبا، زلالسان (Zilalsan) مثلا قتم - بناء على وظيفته الإدارية - باعتباره شفا ماما يعني تبلي النوميديين للنموذج الإداري القرطاجي منذ منتصف القرن الثالث ق.م. على الأقل. ويبقى مؤشر استيعاب التنظيم الإداري واللغة والديانة البونية أهم معالم التواصل بين الأهالي وقرطاج.

إن تجاوز المستوى العسكري لحضور الأفارقة في الحملات القرطاجية يدفعنا إلى التفكير في انفتاحهم على أنماط عيش وثقافات متنوعة ومدي أهمية آليات الغنائم في تبنيهم لمظاهر حضارة مادية جديدة عد عودتهم إلى مواطنهم. وقد بينت القرائن الأثرية عينات من الخزف الإغريقي - اللاتيني المؤرخ بأواسط القرن الخامس ق.م في "هنشير مد" (Mididi)، وترقى بدابة استيراد

للخزف ذو الطلاء الأسود والجرار البوننية في شمتو إلى بداية القرن الرابع ق.م. وقد تدعّم خلال هذا القرن وجود الخزف المستورد في المواقع النوميديّة بمنطقة السهول الكبرى.

تبقى قراءة المعطيات الأثرية - وخاصة الأواني المستوردة سواء من قرطاج أو من مختلف مراكز الإنتاج في بلاد اليونان وإيطاليا محلّ مراجعة دائمة فالمبادلات التجارية خلال القرن الخامس أو الرابع ق.م. يمكن أن تفهم كظاهرة عادية، ولا تمثّل مبرراً مقنعاً للث في هوية المواقع المدروسة وأصولها. أمّا الأثاث والتقاليد الجنائزية فهي سواء في المواقع الساحلية أو الداخلية تعكس التقاليد المحلية النوميديّة اللوبية. ويؤكد ق.كامبس على مفارقة ازدهار الحضارة البوننية في سيرتا التي لم تكن أبداً تابعة لقرطاج تماماً مثل وليلي (Volubilis) بالمملكة الماورية.

وقد درس ف.راكوب (F.Rakob) تطور هندسة المعالم الجنائزية التي عبّرت عن هذه الحقائق الاجتماعيّة والاقتصاديّة ابتداء من القرن الثالث ق.م. إذ تطوّرت التصورات الهندسيّة في شمتو من التلمان المفتوح المنخل والقائم على ثلاثة صفائح حجريّة تتصب عمودياً وتغطّي بصفيحة رابعة، ويفنفر لأثاث جنائزي، إلى البازينة وهي قبر دائري مقبى ومبني بالحجارة الكبيرة المصقولة ويتكوّن من رواق وغرفة الميّت ويستجيب هذا القبر لتصور هندسي مسبق. أمّا المعلم الجنائزي الثالث فهو القبر المدرّج، وهو مكعّب الشكل به فتحتان لإدخال الموتى فهو مدفن جماعي ذو طابع معلمي يؤكّد الانتقال النوعي للهندسة الجنائزية في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث ق.م ويُعبّر الأثاث الجنائزي المؤلّف من خزف مقولب وخزف مستورد عن هذا الانتقال النوعي.

إنّ حظوظ تشخيص نخب الأهالي ممكنة إذا احتكنا لإجماع المصادر على ظهور الممالك النوميديّة خلال القرن الرابع ق.م فقد حاول حنون الأكبر في منتصف القرن الرابع الأفراد بالحكم اعتماداً على ملك ماوري وتحالف آغاتوكلاس لمدة محدودة مع إيليماس ملك اللوبيين.

وظهرت الممالك النوميدية خلال القرن الثالث ق.م كطرف قائم الذات مع عمق ارتباطها بأوجه الحضارة البوننية رغم هشاشة العلاقة السياسية مع قرطاج وهي هشاشة أفضت إلى التحالف بين مسنيسا والرومان في أواخر الحرب الثانية بين قرطاج وروما ولم يمنع ذلك وجود نزعة في قرطاج تتشد الوفاق مع النوميديين.

تعرضنا عند تقديم مقاطعة البيزاكيوم للظاهرة اللوبية - الفينيقيّة بها فما هي دلالاتها وسبل مراجعتها؟

أبرزت المصادر اللوبيين باعتبارهم سكان شمال إفريقيا الأصليين من غرب مصر إلى المحيط الأطلسي ثم اتخذت هذه التسمية الإغريقية المبكرة مفهوما ضيقا ينطبق على الأهالي الخاضعين لسلطة قرطاج. ويمتدّا بوليبيوس وديودوروس الصقلي ثم تيتيوس ليويوس بتسمية مختلفة لسكان البيزاكيوم وتتمثل في اللوبي - فيليقيين (*Libyphoenices*).

وقد أخضعت هذه التسمية لتفسيرات مختلفة منها تلك التي يقترحها س.قرال وهي قراءة عرقية - ثقافية معتبرا أنها تسمية تتسحب على فيليقيّ لوبيا الذين يسكنون المستوطنات المنشأة على الساحل الإفريقي سواء كانوا من الفينيقيين الشرقيين أو أصيلي قرطاج. ويضيف أنّ هذه التسمية تنطبق في مرحلة لاحقة على سكان المناطق الداخلية من الأهالي الذين استوعبوا مظاهر الثقافة القرطاجية فهم لوبيون أصبحوا فينيقيين، كما يفترض تأويلا قانونيا وإداريا مفاده أنّ اللوبي - فينيقيين هم أيضا مواطنو المدن الفينيقيّة والبوننية التابعة لقرطاج ولتمتعن بنفس الحقوق المدنية لمواطني العاصمة ولهم مؤسسات بلدية مشابهة لها.

وأعطى س.ف.بوندي (S.F.Bondi) بعدا جديدا لهذه القراءة مختصرا تأويل تسمية اللوبي - فينيقيين في فئة الفينيقيين الذين يقطنون خارج مدينة قرطاج

أي الطبقة المهيمنة في المجال القرطاجي وهي العمود الفقري لنظام ضمن لقرطاج سلما داخلية طويلة و ثراء اقتصاديًا.

والملاحظ غياب هذه الدلائل العرقية في المصادر باستثناء تيتيوس ليوبيوس الذي يرى في اللوبيين "خليطاً من الفينيقيين والأفارقة". فعند تعرضه للقوات التي تركها حنبعل تحت تصرف شقيقه عزربعل في إسبانيا في بداية الحرب الثانية ضد روما يذكر عدد الجنود وجنسياتهم ومن ذلك كتائب الخيالة التي تضم "أربعة مائة وخمسين لوبي - فينقيا وهم نتاج تهجين بين البونيين والأفارقة" ثم يذكر النوميديين والماوريين.

وتتمثل أهم مراجعة لهذه المسألة - اعتماداً على المعطيات الأثرية وبعض النقاش - في دراسة الحبيب بن يونس للحضور البوني في منطقة الساحل وأفضت إلى تبين قطب فينيقي منسجم في عناصره الثقافية وتقاليد الجنازية وهو هدمتوم. ولاحظ في بقية المواقع ثنائية وامتزاجاً بين الثقافتين اللّويّة والفينيقية. وقد عبرت عن ذلك التقاليد الجنازية فدفن الميت ممدوداً على ظهره هو تقليد فينيقي - شرقي أمّا الطريقة اللّويّة فتعتمد دفن الميت على جنبه في وضع جنيني.

ومن عناصر التقاليد الجنازية: الترميد (L'incinération) وهو تقليد شرقي واستعمال طلاء المغرة الحمراء (L'ocre rouge) من طرف اللّوبيين - وتعتمد في طلاء عظام أو جماجم الأموات وأحياناً التوابيت الخشبية وزخرفة المدافن الجبابية و"الحوانت". واستعمال هذا الطلاء نادر بقرطاج وواسع الانتشار بمقابر الساحل التونسي سواء كانت القبور ذات تصوّر هندسي بوني أو لوبي مثل "الحوانت" أو "الغرف" المنقورة في الصخر. وبالرغم من أهمية عنصر الأهالي ضمن سكان البيزاكيوم وخاصة في المناطق الداخلية تبقى هؤلاء تقاليد فينيقية وبدت الثنائية الثقافية في حالة تفاعل دائم.

بدفعنا استقرار المصادر إلى التساؤل عن الإبعاد السياسية لظاهرة
الإندماج الثقافي والحضاري المذكورة آنفا ؟

ولعلنا نجد إجابة - ولو جزئية - على هذا التساؤل في رواية تيتيوس
ليويوس لإحداث شتاء 212 - 211 ق م على هامش الحرب الثانية بين
قرطاج وروما وتحديدا سقوط مدينة سرقوسة بيد الرومان بعد أن دخلت
منذ سنة 215 ق م في حلف مع قرطاج. وقد بقي أمل المقاومة قائما ورهين
مبادرة القائدين حنون وإبيكوداس (Epicurde) القرطاجي ذي الأصول
السرقوسية. لكن حنبل أرسل أيضا إلى صقلية قائدا ثالثا وهو موتيناس
(Mutines) ويقدمه المصدر المذكور كلوبي - فينيقي أصيل هيودبارتوس
(بنزرت) ويضيف أنه "رجل جريء تعلم فن الحرب في مدرسة حنبل".
ولعل إسم هذا القائد المذكور أقرب إلى الإسم اللوبي الشائع متان
(Mattan). بادر موتيناس بنجدة حلفاء قرطاج للإبقاء عليهم في الحلف،
وشاع إسمه في وقت وجيز بمختلف أرجاء الجزيرة. وأصبحت المبادرة
العسكرية بيده مما أثار القائدين القرطاجيين وخاصة حنون الذي أزعجته
حظوة ومكانت موتيناس "هذا الإفريقي الذي يوجه الأوامر لجنرال معين من
طرف مجلسي شيوخ و شعب قرطاج ؟" ونشأت بذلك أزمة قيادة بين حنون
وإبيكوداس من جهة وموتيناس من جهة ثانية أدت في نهاية المطاف إلى
تمرد النوميديين تضامنا مع قائدهم مما يسر إنتصار الرومان وسيطرتهم
النهائية على صقلية.

إننا لا نشك في وجوب الحذر من هذه الرواية التي توفر "تبريرا
مقنعا" للإلتحاق موتيناس بصفوف الرومان. لكن يمكن أن نقتصر على
المقابلة بين اللوبي - فينيقي من جهة والمواطن القرطاجي من جهة ثانية
والتي تؤكد غياب آليات إدماج قانونية قائمة تحديدا على المواطنة الكاملة
لنخب الأهالي الإفارقة. وهو ما يفسر تراجع نعت اللوبي فينيقي إلى
الإفريقي من منظور حنون. وإجمالا فإن هذه الرواية تعيد إلى الأذهان
صورة قرطاج التي أثرت ثقافيا وبلغت امتداد إمبراطورية لكن بقيت
مؤسساتها أقرب إلى واقع المدينة - الدولة المركزية.

مصادر الفصل السادس ومراجعته

المصادر

- APPIEN, *Libyca*, 54, 68-69.
- ARISTOTE, *Politique*. VI, 5, 9.
- DIODORE DE SICILE, XIII, 88,2; XIV, 77, XV, 24, XX, 8; XX, 57, 4-6; XX, 79, 5.
- JUSTIN, XVIII, 7n2; XIX, 2-4, XX, 5, 13.
- PLINE L'ANCIEN, V, 22-23-24.
- POLYBE, I, 71,1
- SALLUSTE, *la Guerre de Jugurtha*, XIX, 1-2, LXXVIII, 1-4.
- TITE LIVE, XXI, 22,3.

المراجع

- BEN YOUNES (H), *Présence punique au Sahel d'après les données littéraires et archéologiques*, Thèse IIIe Cycle Dacty. Tunis - Fac. des Lettres et des sciences Humaines, 1981.
- "La necropole punique d'El Hkayma, Mai, 1984", in *Revue des Etudes Phéniciennes Puniques et d'Antiquités Libyques*. 2 (1986) pp. 31-172
- BONDI (S.F), "I. Libifenici nell' ordinamento Cartaginese", in, *Rendiconti dell' Accademia Nazionale dei Lincei*, 8é Sér, 26 (1971) pp. 653-662.
- CAMPS (G), *Aux Origines de la Berbérie: Massmissa ou les débuts de l'histoire*. Alger, (1960).
- "Les Numides et la civilisation punique", in *Antiquités Africaines*, (1979) pp. 43-53.
- DI VITA (A), "La date di fondazione di Leptis e di Sabratha sulla base dell'indagine archeologica. e l'eparchia cartaginese d'Africa", in, *Homages à M.Renard III (coll. Latomus 103)*, 1969, pp.196-202.
- FOUCHER (L), *Hadrumetum*. Paris, 1964
- FEVRIER (J.G), "La borne de Micipsa", in, *Cahiers de Byrsa VII* (1957) pp. 119-121

- GASCOU (J), "Les pagi Carthaginois", in *Villes et campagnes dans l'Empire romain*, Aix-en-provence (1980) pp. 139-175.
- GHAKI (M), *Recherches sur les rapports entre les phénico-puniques et les Libyco-numides (V-Is. avant J.C)* Thèse de 3ème cycle. Paris I - Sorbonne Panthéon, 1985.
- GSELL (St.), *H.A.A.N.T II (Chap II, p 93-181)*, 1972.
- KRANDEL – BEN YOUNES (A), *La présence punique en pays Numide* (Thèse 3ème cycle) Faculté des lettres et Sciences Humaines. Tunis 1984.
- Les pratiques funéraires, in, les ancêtres des Berbères. (Texte français-arabe) Tunis, INP, 1994, pp. 28-34.
- LANCEL (S), *Carthage*. Paris, 1992.
- PICARD (G) - Ch., MAHJOUBI (A), BECHAOUCH (A), "Pagus Tuscae et Gunzuzi", in *CRAI*, (1963), pp. 124-130.
- PICARD (G) - Ch., "L'administration territoriale de Carthage", in, *Mélanges A. Piganiol*, Paris, (1966), pp. 1257-1265.
- "Le pagus dans l'Afrique romaine", in, *Karthago, XV* (1969) p. 1-12.
- RAKOB (F), "Architecture royale numide", in, *Architecture et société de l'archaïsme grec à la fin de la République romaine*, (1981), pp. 325-335.
- REBUFFAT (R), "Où étaient les Emporia?", in *Semitica* 39 (1990)
- SZNYCER (M), "Permanence de l'organisation administrative des territoires africains aux époques punique et romaine d'après les témoignages épigraphiques", in, *Des Sumériens aux Romains d'Orient: La perception géographique du monde. Espaces et Territoires au Proche - Orient ancien*: Paris, (1997) pp 119-132.
- VUILLEMOT (G), *Reconnaissances aux échelles puniques d'Oranie (Fouilles aux Andalouses)*. Paris, 1965.

الفصل السابع

الاقتصاد والمجتمع

1 - التجارة القرطاجية

تعوّنت المصادر والمراجع على حدّ السواء تقديم اقتصاد قرطاج على أنّه اقتصاد تجاري بالأساس. ويبدو أن التجارة كانت سبب ثراء العاصمة البونية وللتلّيل على ذلك يكفي التنكير بما ورد على لسان المؤرخ اليوناني بوليبيوس الذي يشير إلى أن قرطاج أصبحت أغنى مدن العالم بفضل تجارتها لذلك لا نستبعد أن يكون التجار البونيون قد ارتادوا جلّ مواني البحر الأبيض المتوسط وتاجروا بكل المواد المتبادلة في تلك الفترة محقّقين بذلك الربط بين حوضي هذا الفضاء البحري الذي شهد أيضا دون شكّ حضورا للتجارة الاغريق والأتراكيين. ولكن القرطاجيين احتلّوا على ما نرجّح مكانة متميزة منذ القرن السادس على الأقل.

على غير ما يتوقّعه الدّارس لم يثر هذا النشاط على أهميته اهتمام المصادر الأدبية. لذلك نظل معرفتنا بجوانب عديدة من تاريخ المبادلات القرطاجية محدودة. من ذلك مثلا مسألة تحديد الخطوط التجارية بدقة والبضائع المتبادلة وتنظيم التجارة البونية. وأمام صمت الوثائق الأدبية يلجأ الدّارس إلى استقراء المصادر الأثرية بالرغم ممّا يطرحه استعمال هذه النوعية من الوثائق من صعوبات كنّا أشرنا إليها (انظر الفصل الأوّل من هذه الدراسة).

المبادلات التجارية القرطاجية مع صقلية وسردينيا

أ - مع صقلية

لعبت الجزيرة دورا مهما في المبادلات التجارية البونية بصورة عامة. ويقيم نواتر التخلّلات العسكرية القرطاجية بالجزيرة الدليل على وجاهة هذا الحكم

وهي تدخلت سعت على امتداد قرون للمحافظة على الوجود السامي في هذه المنطقة مع ما يعنيه ذلك من محافظة على مصالح قرطاج الاقتصادية وتستمد جزيرة صقلية أهميتها في الواقع من مجموعة عوامل نعرض لها بإيجاز.

- الموقع الممتاز: تتوسط صقلية حوض البحر الأبيض المتوسط وتوجد بالتالي على مسافة وسطى بين شرق وغرب المتوسط وهو ما أهلها للتحكم في خطوط المبادلات التجارية التي تخترق هذا البحر. من جهة أخرى لا تفصلها عن شمال إفريقيا سوى مسافة صغيرة لا تتعدى 140 كلم وهو ما جعل منها موقعا متقدما في اتجاه سردينيا وإيطاليا.

- اكتسى الحضور البوني في صقلية طابعا متميزا ينبع من هذا التعايش بين العنصرين الإغريقي والسامي وتفصل بين دائرتي نفوذ الطرفين حدود غير ثابتة لم تمنع إقامة مبادلات بين المنطقتين بالرغم من فترات الحرب التي عرفتها الجزيرة.

- يتمثل العامل الثالث الذي سنعرض له لاحقا بأكثر إسهاب في السياسة المتبعة من قبل الإدارة القرطاجية التي لم تسع إلى إخضاع الجزء الغربي الواقع تحت نفوذها لسيطرة مطلقة على نقبض سردينيا مثلا وهو ما جعل من الجزيرة فضاء مفتوحا أمام التجار الأترسكيين والإغريق والرومان. ويبدو أن التجار الأجانب كانوا يتمتعون بنفس حقوق التجار القرطاجيين. ويكفي أن نذكر في هذا السياق بما ورد في بنود المعاهدة الأولى المبرمة بين روما وقرطاج في أواخر القرن السادس على ما نرجّح.

بالتأمل في ما ورد لدى ديودوروس الصقلي نميل إلى الاعتقاد أن المبادلات بين صقلية وقرطاج اعتمدت بالدرجة الأولى على تبادل المواد الغذائية والنسيج إذ يشير مصدرنا إلى أن سبب الثراء الذي بلغته مدينة سيلينونت (Sé linonte) (الواقعة على مسافة قريبة من دائرة النفوذ القرطاجية) يرتبط بتجارها مع قرطاج. ويبدو أن تجارا أجانب كانوا يقيمون داخل المدينة المذكورة ومن بينهم

تجار قرطاجيون تمتّعوا على ما نرجّح بامتيازات كبيرة جدًا يمكن تفسيرها بالضغوطات التي مارستها قرطاج على قادة المدينة وكذلك بالكره الذي كان يكنّه هؤلاء لكل من مدينتي جيل (Géla) وأغريجن (Agrigente) المنافستين. وباعتماد نفس المصدر يبدو أن تصدير الخمر وزيت الزيتون نحو العاصمة البونية كان أيضا وراء ثراء مدينة أغريجن حتى القرن الخامس على الأقل، تاريخ قيام قرطاج بسلسلة من التوسعات على حساب الأراضي الإفرقية.

لم تقتصر مبادلات قرطاج على غرب الجزيرة بل مسّت دون شك أيضا شرقها إذ تشير المصادر إلى تجار بونيين قطنوا مدينة سرقوسة لذلك لا نستبعد أن يكون جزء من الفخار الكورني قد بلغ أرض العاصمة البونية عبر هذه المدينة وللتذكير تشير إلى أن سرقوسة هي مدينة أسسها الكورنيون سنة 733 ق.م.

بالعودة الآن إلى المصادر الأثرية نلاحظ أن الفخار ذي الطلاء الأسود (La céramique à vernis noir) القادم من صقلية يبدأ في الظهور منذ أواسط القرن الرابع قبل الميلاد وكما بيّن الباحث ف. شلبي، يعسر على غير المختص في البداية التمييز بين الأواني المصنوعة في منطقة الأتيكا (L'Attique) والأواني المقلّدة المصنوعة في صقلية والتي نجدها في القبور القرطاجية التي ترقى إلى النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. ويبدو أن استيرادها قد بلغ أوج ذروته حوالي سنة 300 ق.م وتواصل بعد ذلك على امتداد الثلث الأول من القرن الثالث حتى تاريخ اندلاع الحرب البونية - الرومانية الأولى.

ب - مع سردينيا

لعبت الجزيرة دون شكّ دورا بارزا في دورة المبادلات المتوسطة. ولئن كان هذا الحكم العام يحظى بإجماع المهمتين بتاريخ النشاط التجاري الفينيقي والقرطاجي فإنّه يظل على الرغم من ذلك بحاجة إلى تسليط مزيد الأضواء عليه حتى نفهم خصوصيات هذا الدور والتي ترتبط بدورها بموقع الجزيرة من جهة

وبما أملت الاستراتيجية الاقتصادية القرطاجية من إجراءات حيال سردينيا بالذات من جهة ثانية ونجد صدق لها في الإشارة الواردة لدى ارسطو المنحول (Le Pseudo - Aristote) وفي بنود المعاهدات المبرمة بين القرطاجيين والرومان والتي نعود إليها وبإسهاب لاحقاً في سياق تحليلنا هذا.

كناً أشرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب إلى جنور الحضور الفينيقي في سردينيا واستعرضنا في هذا الإطار مجموعة الدلائل التي تدعونا للإعتقاد بأنّ للتوسّع الفينيقي بها يرقى إلى تاريخ متقّم (نقشة نورا). فعلى مستوى المبادلات، مثلت الجزيرة منذ البداية حلقة رئيسية في دورة المبادلات المتوسطية التي كان للفينيقيين فيها دور مركزي. وتعود أقدم اللقى الفخارية الإغريقية إلى أواخر القرن الثامن وقد عثر عليها في توفات سلكيس (Sulcis) ويتعلق الأمر بأنية صنعت على ما يبدو بإحدى ورشات بينكزا (Pithécusses). ويجدر التذكير في هذا الإطار أن الحفريات الأخيرة أثبتت وجود مجموعة من العائلات الفينيقية استقرت في هذا الجزر قد تكون تولت عملية ترويج هذا الفخار. من جهة أخرى نقيم الحفريات الدليل على أن الفخار البروتوكورنثي (Protocorinthien) لم يبلغ سردينيا الا بصورة محدودة جداً وذلك على نقيض جزيرة صقلية المجاورة (خاصة موقع ميغارا). في المقابل قدّمت كلّ المواقع الفينيقية الموجودة بـسردينيا شواهد فخارية من الانتاج الكورنثي والأيونى واللاقوني بالتّوازي مع الفخار الأترسكي (Bucchero étrusque)، يمكن في هذا الباب مراجعة الرسوم المصاحبه لعمل M. Gras, trafics tyrrhéniens archaïques وبالتحديد (ص. 166 و 167) ونشير على سبيل المثال فقط إلى مواقع تاروس (Tharros) وبيثيا (Bithia) وكرايس (Cagliari). وقد لعبت مدينتا فولتشي (Vulci) وشرفيتيري (Cerveteri) بالخصوص دوراً بارزاً في هذه المبادلات مع أسبقية زمنية لهذه الأخيرة التي يبرز دورها بأكثر وضوحاً من خلال المبادلات مع بيثيا خاصة.

ومرة أخرى تطرح على الدارس قضية تحديد هوية المتحكمين في هذه المبادلات: هل كانوا من الأترسكيين أم من الإغريق المستقرين بأتروريا أم من الفينيقيين؟

لا نستبعد أن يكون هؤلاء من الفينيقيين خاصة إذا ما راعينا مجموعة الاعتبارات التالية:

- بلغت المنتوجات الإغريقية والأترسكية كل المناطق الواقعة تحت سيطرة الفينيقيين أو الواقعة تحت دائرة تأثيرهم، وهو ما يحيلنا للقول بأن الحرفاء هم بالأساس إما من الفينيقيين أو المتأثرين بهم. لذلك من المرجح أن تراعى المبادلات أنواق هؤلاء الحرفاء وطبيعي أن يكون الفينيقيون أكثر العناصر قدرة على مراعاة هذا الجانب.

- الحضور الأكثر انتظاما للفخار الأترسكي والضعف النسبي للواردات الإغريقية (مقارنة بصقلية مثلا) دفعا بالباحثين إلى ترجيح فكرة غياب مبادلات مباشرة بين بلاد الإغريق الشرقية وسردينيا. لذلك يبدو أن الأمر يتعلق بعملية إعادة توزيع انطلاقا من أتروريا وهو ما جعلنا في الآن نفسه نميل إلى فكرة إقصاء العنصر اليوناني وبالتأمل في بدايات خضوع الجزيرة إلى السيطرة القرطاجية يمكن لنا القول أن العاصمة البونية سعت إلى تدعيم حضورها بسردينيا انطلاقا من المواقع الفينيقية الموروثة عن الفينيقيين والمتواجدة على الساحل الجنوبي الغربي ليمتد بعد ذلك إلى داخل الجزيرة لذلك بلغ المستعمرون والتجار القرطاجيون أتوكا (Othoca) وآزالوس (Usellus) ومونتسي سيراي (Monte Sirai) وغيرها من المواقع. وقد لعبت المدن الساحلية دور نقاط ربط على طول الخطوط البحرية أما المدن الداخلية فيبدو أن الحضور البوني بها جاء استجابة لمجموعة من الهواجس لعل أبرزها سعى القرطاجيين إلى إبعاد منافسيهم عن هذه المنطقة الحيوية (خاصة الإغريق) بالإضافة إلى حماية المدن الساحلية واستغلال الموارد الفلاحية والمنجمية المتوفرة. وما دما بصدد الحديث عن أبعاد سياسة قرطاج الاقتصادية بالجزيرة نرى لزما علينا الوقوف مطولا عند هذه

المعلومة الواردة لدى أرسطو المنحول والتي تشير إلى أن القرطاجيين، بعد استيلائهم على الجزيرة، قاموا بقطع كل الأشجار المثمرة ومنعوا السكان المحليين من إعادة غراستها وهو ما يطرح علينا آليا السؤال التالي: لماذا سعت قرطاج إلى تغيير المشهد الزراعي في سردينيا والذي شهد نموا ملحوظا لغراسة أشجار الزيتون والعنب في المناطق الخصبة المحيطة بأبرز المواقع الفينيقية كسالكيس وكراليس؟

ساد الاعتقاد طويلا بعد س. قزال (S.Gsell) أن إجراء القرطاجيين مردّه سعي العاصمة البونية للقضاء على منافسة الجزيرة لإنتاج الزيوت والخمور القرطاجية. ولكن السنوات العشر الأخيرة طُبعت بالنسبة لهذه القضية بالذات بنوع من النزوع لرفض هذا الرأي وتفنيده. ويعتبر م. قرا (M.Gras) أفضل من يمثل هذا التيار الثاني إذ يرى أن القبول بتفسير س. قزال يقودنا حتما للقبول في الآن نفسه بفكرة أن يكون إنتاج قرطاج (من هذه المواد) قد عرف نموا ملحوظا إلى درجة استوجبت التصدير وفي ذات الوقت أن يكون هذا الانتاج قد بلغ في سردينيا قبل ضمها من قبل قرطاج مستوى عال من المردودية. والحال أننا نلاحظ العكس باعتبار أننا نميل إلى الاعتقاد أن الجزيرة كانت خلال النصف الأول من القرن السادس تستورد الخمور من اثروريا والأمر واضح خاصة بالنسبة لمدينة تاروس. ولا يستبعد أن تكون الوضعية هي نفسها بالنسبة للمستوطنات الفينيقية الواقعة في جنوب الجزيرة.

انطلاقا من هذه الملاحظات يقترح م. قرا تنزيل إجراء قرطاج في إطار سعيها لتحقيق نوع من اقتسام المهام أو الأوار بين جزيرتي سردينيا وصقلية. ولابد من التذكير بأن العاصمة البونية كانت تستورد الخمور من هذه الأخيرة كما بيّنّا ذلك في ما تقدّم من هذا الفصل ويستدلّ نفس الباحث لدعم رأيه بوفرة الجرار الفينيقية المعدة لنقل الخمور في موقع موتيني بأقصى غرب صقلية.

يبدو أن قرطاج وقّفت في أن تجعل من سردينيا منطقة ثرية تنتج كميات هامة من الحبوب. وتشدد مختلف المصادر على خصوبة الجزيرة ودورها لا فقط على امتداد الفترة الفينيقية - البونية بل وكذلك على امتداد الفترات اللاحقة إلى درجة جعلت أ. موميليانو (A. Momigliano) يعتبر فكرة "خصوبة سردينيا" التي أصبحت ملازمة لكل الكتابات "تصوراً إثنوغرافياً (Schéma ethnographique). ونجد صدى واضحاً لنفس هذه الفكرة على النقود المكتشفة بالجزيرة والتي تنتمي لما يسمّى بالسلسلة قبل الأخيرة ضمن السلسلات التي تمّ سكّها في سردينيا وتورّخ عادة بالفترة القصيرة الممتدة بين 241 و 238 ق.م ويتعلّق الأمر بقطع تحمل على إحدى الوجهتين صورة ثلاث سنابل وهي رمز للخصوبة وقد بين ل. الرحموني أن هذا المحور الفني يرتبط بجزيرة سردينيا بالذات دون غيرها.

ومهما يكن من أمر استخدمت قرطاج إنتاج سردينيا من الحبوب لخدمة مصالحها ولنا أن نستدلّ على ذلك ببعض الإشارات الواردة في مصادرنا الأدبية وإن كانت تعود إلى فترات متأخرة نسبياً وهي تذكر لجوء القرطاجيين إلى إنتاج سردينيا في ثلاث مناسبات على الأقل سنة 480 ق.م عندما أرسل عبد ملقرت قائد الحملة القرطاجية على صقلية جزءاً من سفنه حتّى تتزوّد بالحبوب من الجزيرة، ثم سنة 396 ق.م إبان الحصار الذي كان يضربه الجيش القرطاجي بقيادة خيمليك على مدينة سرقوسة وأخيراً إبان حكم أغاثوكلاس دون أن تكون لنا القدرة على الجزم إن كان الأمر يتعلّق بمبادلات منتظمة أم أن القرطاجيين كانوا يعتمدون إلى عمليات مصادرة فقط عند مرورهم بفترات عصيبة.

كان إجراء المنع الذي عرضنا له موجّهاً أصلاً ضد السكان الأصليين ذلك أنه من المستبعد أن تعمل قرطاج على القضاء على مصالح المعمّرين السّاميين الموجودين في سردينيا. وبالتالي نميل إلى الاعتقاد مع م. قرا أن العاصمة البونية أرادت أن تخصص بهذه النوعية من الإنتاج (الأشجار المثمرة) مستعمراتها الجديدة وهكذا يكتسي الإجراء المتخذ بعدين أساسيين آخرين.

* بُعِدَ اجتماعي : يتجلى من خلال ترجيحنا أن يكون إجراء المنع قد رافقه تنصيب شريحة مترفة يطلق عليها الباحث الفرنسي تسمية "أرسنقراطية - تجارية" كانت بحاجة لمدا خيل عقارية. وللتذكير نشير إلى أن غراسية الأشجار المثمرة هي أكثر الأنشطة مردودية بالنسبة لمن كان لا يمتلك مساحات ممتدة وبالتوازي مع ما ذكرنا بسمح إجراء المنع لقرطاج بتحقيق هدف آخر يتمثل في إعاقة السكان عن تحقيق ثروات توفر بدورها حالة من الاستقرار باعتماد غراسية الكروم خاصة وتساعد في نهاية التحليل على بروز مجموعة من الأرسنقراطيين المحليين. لذلك نخلص للقول أن مصالح قرطاج الاقتصادية والعسكرية قد أملت عليها إنشاء منظومة تعتمد مبدأ الملكيات العقارية الشاسعة التي تسهل مراقبتها وقد اعتمد الرومان لاحقا نفس التصور في تعاملهم مع جزيرة سردينيا.

* بُعِدَ اقتصادي: عملت قرطاج على إنشاء مراقبة تامة على اقتصاد الجزيرة وكنا أشرنا في ما سبق إلى احتكار العاصمة البونية للتجارة مع سردينيا كما تدل على ذلك المعاهدة الأولى المبرمة بينها وبين روما وقد نصت على وجوب حضور ممثل عن الإدارة القرطاجية عند إبرام الصفقات التجارية. غير أننا نعتقد أن لا سبيل لفهم البعد الاقتصادي في سياسة قرطاج تجاه سردينيا ما لم نلّم بالظرفية الاقتصادية على مستوى البحر الأبيض المتوسط عامة والتي تميّزت مع أواخر القرن السادس قبل الميلاد ببلوغ الإنتاج الأتيكي من الخزف ذروته. ويبدو ذلك جلياً من خلال عدد اللقى المكتشفة في كل من أتروريا ومستاليا (Massalia = مدينة مرسيليا اليوم) وقد اعتمدت المبادلات مواد كثيرة أهمها الزيت والفخار الرفيع غير أن سردينيا ظلت على هامش دورة المبادلات إذ لم تمسحها الصادرات الأتيكية على ما يرجح بصورة مباشرة ومن هنا نفهم أن قرطاج عملت على إجماع الجزيرة داخل دورة المبادلات الأتيكية كما سعت في الآن نفسه إلى مواصلة المبادلات الأترورية - القرطاجية وكان تبادل الخمور أحد أهم المواد التي تتم المتاجرة بها.

باعتماد المصادر الأثرية نرجح أن المبادلات مع سردينيا قد مكّنت بعض المواقع القرطاجية في صقلية المجاورة من لعب دور الوسيط كما توحى بذلك عديد اللقى الفخارية (Les terres cuites) التي اكتشفت في موقع تاروس

(Tharros) وكذلك المباخر التي تتخذ شكل رؤوس نساء تتميز بوفوعها تحت تأثير الفن الإغريقي وهو إنتاج بلغ على ما نرجح سردينيا عبر صقلية. وللتذكير نشير إلى أن هذه النوعية من اللقى عثر عليها بالخصوص في مدينة سيلينونت (Sélinonte) الواقعة على مقربة من دائرة النفوذ القرطاجي. وإجمالاً لاحظ علماء الآثار تشابهاً واضحاً بين اللقى الفخارية التي كُشف عنها في كلٍّ من سردينيا وصقلية ومنطقة الوطن القبلي (كركواس) وهي ملاحظة نفوذنا للقبول بأهمية الترابط بين مختلف هذه المناطق وبالتالي تدعم ما ذكرناه في بداية هذا الفصل حول أهمية الجزيرتين بالنسبة للتجارة القرطاجية.

المبادلات القرطاجية مع بلاد الإغريق الشرقية

يعد الفخار الكورنثي والفخار الاتيكي أوسع أنواع الفخار الإغريقي الشرقي حضوراً في المتوسط عامة. وقد ربطت العاصمة البونية علاقات تجارية وطيدة مع المبدئين المنجثين لهذين الصنفين من الفخار.

بالنسبة إلى الفخار الكورنثي يمكن التذكير بأنه يصنّف عادة إلى ثلاثة أصناف كبرى:

- البروتوكورنثي (Protocorinthien) الذي يبدأ في الظهور مع أواسط القرن الثامن ليتواصل حتى الربع الثالث من القرن السابع.

- فترة التحول وهي فترة نقلة تربط بين المرحلة السابقة والتي أشرنا إليها والمرحلة الموالية والتي نسمي عادة مرحلة الفخار الكورنثي.

- الكورنثي (Le corinthien) والذي يقسم بدوره إلى ثلاثة أصناف الكورنثي العتيق (Ancien)، الكورنثي الأوسط (Moyen) والكورنثي الحديث (Récent).

وقد كشفت الحفريات عن حضور هذا الفخار بمختلف أصنافه على أرض العاصمة البونية مع كثافة واضحة للنوعية الأخيرة أي الفخار الكورنثي والنسي تحمّلنا إلى منتصف القرن السادس.

بالنسبة إلى الفخار الأتيكي (انظر وثيقة: نماذج من الفخار الأتيكي ذي الطلاء الأسود الأكثر تداولاً في قرطاج خلال القرن الرابع ق.م.) كتشفت الحفريات بدورها عن كميات هامة منه لا فقط في قرطاج (حضور مكثف يتواصل حتى الحرب البونية الأولى) بل وكذلك أيضا في كل من:

* صقلية وذلك بجزئها الشرقي والغربي = موتيي (Motyé) وليلبي (Lilybée) وسجستا (Ségeste) وبالرمو (Palerm) وصولنت (Solonte). وترقى أغلبية اللقى إلى ما قبل القرن الثالث قبل الميلاد، لكن لابد من الإشارة إلى أن بعض مواقع الجزيرة عمدت إلى تقليد الإنتاج الأتيكي ونذكر منها مثلا بنورموس.

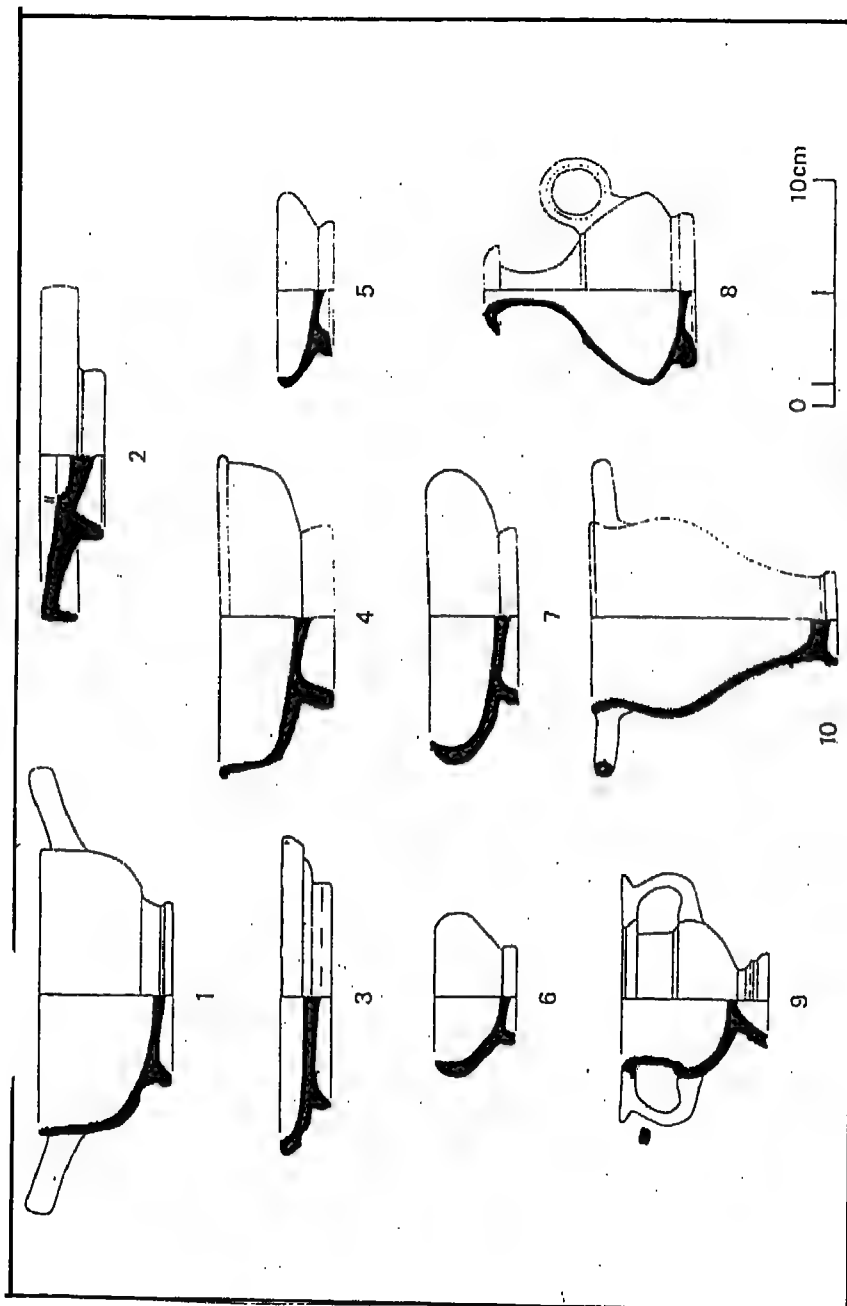
* جزيرة سردينيا (كميات هامة جدا خاصة خلال القرنين الرابع والثالث)

* سواحل افريقيا الموجودة غرب سرت الكبرى

* إسبانيا المتوسطية جنوب نهر الإبروس (L'Ebre)

* جزر البليار (Les îles Baléares) وخاصة إيبيزا (Ibiza).

يظل تحديد مسار هذا الخط التجاري أمرا غير هين. ويمكن أن نسحب نفس الملاحظة على مسألة المتحكمين في هذا الخط غير أن ف.شليبي يرجح باعتماد جملة من المعطيات أن يكون القرطاجيون هم الذين تولوا السيطرة على هذه المبادلات أو أن يكونوا قد استأثروا على الأقل بنصيب مهم منها على حدّ تعبير ج.ب.مورال (J.P.Morel) من ذلك مثلا ما تمت ملاحظته من كثافة لهذه النوعية من اللقى على مستوى غرب صقلية وهو الجزء الخاضع لقرطاج. ويضاف إلى ذلك ما أشرنا إليه آنفا من نجاح بنورموس بالخصوص في تقليد الفخار الأتيكي. أخيرا ينكر نفس الباحث بما ورد على لسان سبلاكس المنحول الذي يعطي دعما لا يستهان به لهذه الفكرة إذ يشير إلى دور الوسيط الذي كان يلعبه تجار "فينيقيون" في ترويج الفخار الأتيكي حتى سرنى (Cerné).



نماذج من الفخار الأتيكي ذي الملاء، الأ سود، الأ أكثر محاولة في قرطاج
خلال القرن الرابع قبل الميلاد

MOREL (J.P.), in, Actes du IIIème Congrès des Etudes Phéniciennes et
المصدر
Puniques, Tunis, (1995) p.272.

المبادلات القرطاجية مع مصر

لا تتعرض المصادر الأدبية البتة إلى المبادلات بين قرطاج ومصر لذلك تعتمد المعلومات التي سنوردها على ما تقدمه التتقيقات الأثرية من نتائج.

لاحظ ج. فركوتار (J. Vercoutter) غزارة اللقى المصرية أو المتأثرة بالفن المصري داخل الأثاث الجنائزي القرطاجي. ويتعلق الأمر غالبا بلقى ذات أحجام صغيرة نذكر من بينها الجعلان والتماثم... من هنا سعى هذا الباحث للإجابة عن سؤال هام أول وهو كيف بلغ هذا الإنتاج أرض العاصمة البونية؟ مستعرضا للغرض كل الاحتمالات الممكنة وهي على التوالي: خط يمرّ عبر منطقة أتروريا (L'Etrurie)، خط برّي إفريقي، خط بحري إفريقي وأخيرا خط يمرّ عبر جزيرة صقلية.

استطاع ج. فركوتار إبراز الصعوبات التي تقف حائلة أمام إمكانية القبول بفرضية الخطين الإفريقيين (برّا وبحرا) مقصيا في الآن نفسه إمكانية العبور عبر منطقة لنزوريا وهو ما ترك أمامه خيارا وحيدا يتمثل في هذا الخط الذي كان يمرّ بحرا عبر أقصى غرب جزيرة كريت (La Crète) ليبلغ بعد ذلك جزيرة صقلية ومنها قرطاج وهو خط نعوذ التجار الفينيقيون اتباعه. لذلك لم يستبعد هذا الباحث إمكانية أن يكون التجار القرطاجيون قد قاموا بالسج على منوال هؤلاء متبعين في ذلك نفس العادات البحرية.

من جهة ثانية وفي محاولة تحديد هوية المتحكمين في هذه المبادلات دافع ج. فركوتار عن فكرة أن يكون هؤلاء من الإغريق.

لئن أثبتت الحفريات الأخيرة صحة الرؤية التي قدمها هذا الباحث بالنسبة إلى الخط التجاري فإن الأحاث تميل أكثر فأكثر إلى تنفيذ ما ذهب إليه بالنسبة لهوية أصحاب هذه التجارة. ذلك أن ما وقع العثور عليه من وثائق أثرية في مونتبي تثبت بطريقة جلية ضعف التأثيرات الإغريقية على نقبض التأثيرات المصرية. ومن المفيد في هذا الإطار التذكير بالنصب المكتشفة في توفات هذا

الموقع وما تحمله من نحوت هي أكثر ارتباطا بالهن المصري وهو ما حمل س.موسكاتي (S.Moscatti) مثلا على القول أن هذه التجارة كانت بيد القرطاجيين.

أخيرا يبدو أن المبادلات القرطاجية - المصرية التي كانت تمرّ عبر صقلية قد مست في الآن نفسه جزيرة سردينيا كما توحى بذلك التآثيرات الفنية المصرية الملحوظة على أنصاب سلكيس وعلى مذابح (Autels) تاروس.

المبادلات القرطاجية - الإتروسكية

ربطت قرطاج علاقات تجارية مباشرة مع الأترسكيين (Les Etrusques) منذ القرن السابع قبل الميلاد كما تدل على ذلك اللقى للفخارية المعروفة باسم "البوكيرو الرفيع" (Bucchero fin).

وقد نفت ج.ب.مورال الانتباه إلى أن أوانى الشراب لا تمثل سوى نسبة ضعيفة من هذا الخزف (أقل من 20%) مقارنة بمنطقة جالّيا (La Gaule) حيث تصل هذه النسبة إلى 96% وقد قادت هذه الملاحظة إلى القول بأن البوينيين كانوا لا يستوردون الخمر الإتروسكية على نقيض الزبوت المعطرة التي يبدو أنها لم تكن تلاقى رولجا لدى سكان جالّيا.

حاول م.بالوتينو (M.Pallotino) من جهته تأريخ هذه المبادلات مستنتجا وجود مجموعة من المراحل أبررها:

- من نهاية القرن السابع إلى منتصف القرن السادس استطاعت المراكز الأترسكية خلال هذه الفترة منافسة المراكز الفينيقية والإغريقية تجاريا. وللتدليل على رأيه ينكّر الباحث الإيطالي باتّساع مقبرة كايري (Caere) وكذلك بالعدد الوافر من النقائش المكتشفة في نفس المدينة. وقد تميزت المرحلة الأولى بانتشار واسع للفخار الأترسكي في صقلية وقرطاج وباقي المدن الفينيقية. وللتوضيح لآبد من الإشارة إلى أن قرطاج لم تقم حتى هذا التاريخ بترعم المدن الفينيقية في

غرب البحر الأبيض المتوسط لذلك يعتبر م.بالوتينو (M. Pallotino) أن حملات مالكوس (Malchus) على جزر صقلية وسردينيا تمثل فاتحة فترة جديدة.

- تمتد الفترة الثانية من أواسط القرن السادس إلى بداية القرن الخامس وتنتهي زمنيا بوقائع أكتيميزيو (Actemio) وهيميراس (Himère) وكومي (Cûmes).

كيف بلغ هذا الإنتاج قرطاج؟ ما يلفت الانتباه هو تركّز اللقى الفخارية الأترسكية خاصة في جنوب شرق وغرب صقلية (سرقوسة وميغارا وسيلينونت) خلافا للساحل الجنوبي بين كامارين (Camarine) وأفريجتا حتى موتبي وهي ملاحظة دفعت بباليوتينو إلى الاعتقاد أن المبادلات بين أتروريا من جهة وقرطاج والمستوطنات الإغريقية وشرق المتوسط من جهة ثانية مسّت السواحل الغربية لجزيرة صقلية تجنّبا للطريق الواقعة تحت مراقبة الكلكيديين (Les Chalcidiens). وبالتالي فإن غياب الفخار الأترسكي على امتداد الساحل الرابط بين هيميراس وليونتوا (Léontinoi) مردّه الخطر الذي كان يمثله القرصنة وهو خطر منع إقامة مبادلات تجارية سلمية في هذه المنطقة الخطرة.

يبدو أن الأترسكيين قد سعوا إلى ربط علاقات اقتصادية جيّدة مع قرطاج أولا. غير أن بعض المدن المتواجدة على طول هذا الخط تمكنت من الاستفادة من هذه المبادلات وهو ما يفسّر غزارة "البوكيرو الرفيع" في كلّ من بنورموس وهيميراس وسيلنونت. لكن ظلّ موقع موتبي استثناء محيّرا خاصة وأنه يوجد بدوره غرب جزيرة صقلية وهو معطى دفع بالباحث الإيطالي إلى القول بأن موتبي تميزت "بانغلاقها" وتمسكها بروابط وثيقة مع الساحل اللفينقي وبالتالي اعتبرها أقلّ انفتاحا على الغرب. لكن رؤية بالوتينو هذه بحاجة من منظورنا إلى مراجعة تامة ويعزى ذلك إلى تضاعف عدد اللقى من نفس نوعية الفخار المذكور بفضل الحفريات التي أقيمت على أرض موتبي. وقد كشف خلالها عن كميات هامة من "البوكيرو الرفيع" في معبد التوفات والأحياء السكنية ومقبرة بيرجي (Birgi) في مواجهة جزيرة موتبي الصغيرة مباشرة).

ينتهي هذا التوازن الذي قمنا باستجلاء أبرز معالمه بظهور الصراع من أجل السيطرة على الخطوط التجارية خاصة مع بروز قرطاج كقوة حامية لمصالح فينيقي الغرب وسعيها إلى إدخال جزء من صقلية وجزيرة سردينيا تحت دائرة نفوذها. فتطغى بداية من هذا التاريخ الهواجس العسكرية على المصالح الاقتصادية وأمام تزايد الخطر الإغريقي تتخذ العلاقات بين الاترسكيين والقرطاجيين بعدا سياسيا^{١٠}. المعاهدات المبرمة بين الطرفين، لذلك يعتبر بعض الباحثين أن^{١١} بيرجي (Pyrgi) تحمل بعدا سياسيا تعرض له لاحقا في إطار حديثنا عن السياسة التجارية القرطاجية.

أخيرا تنفع الإشارات التي بحوزتنا -على ندرتها- إلى الاعتقاد بأن المبادلات بين الطرفين الاترسكي والقرطاجي كانت بيد تجار بونيين ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتقاد كما لاحظ ذلك ج. هورقان (J. Heurgon) بأنه كان لورشات تاركينا وكايري أعوان خاصون يعملون في المنطقة الغربية من صقلية بمقتضى معاهدة شبيهة بتلك التي أبرمت بين روما وقرطاج. وقد تكون هذه المعاهدة نصت على أن يتمتع التجار الحلفاء بنفس حقوق التجار القرطاجيين عند تحولهم للجزء الواقع تحت السيطرة البونية.

ومن المفيد في هذا الإطار أن نذكر بأن أرسطو أشاد في الكتاب الثاني من مؤلف السياسة بجودة العلاقات التي ربطت الجانبين وهي علاقات حكمها معاهدات تنظم المبادلات وتمنع اعتداء أحد الطرفين على الثاني.

المبادلات التجارية بين قرطاج وروما

يجب أن نشير منذ البداية إلى أن الأمر يتعلق بالأساس بدراسة واردات قرطاج من منطقة إيطاليا بعد نجاح روما في الظهور بمظهر القوة الكبيرة في هذه المنطقة ويميز ج. ب. مورال في دراسته لتاريخ هذه المبادلات بين مرحلتين أساسيتين:

أ - قبل اندلاع الحرب البونية - الرومانية الأولى

لعلّ أكثر أنواع الخزف انتشاراً خلال هذه الفترة يرتبط بمنتجات ورشات تطلق عليها الدراسات اصطلاحاً تسمية "ورشات ذات الأختام الصغيرة (Ateliers à petites estampilles)". وهي تسمية متداولة مردّها وجود نوع من الأختام على الأواني التي كشفت عنها الحفريات ويجمع المختصّون على القول بأن هذه الورشات كانت توجد في مدينة روما وضواحيها وقد بلغت هذه النوعية من الإنتاج جُلّ المواقع البونية أو الواقعة تحت تأثير البونيين وهو ما حدا بمورال للقول أن قرطاج تبدو بمظهر أكبر شركاء روما التجاريين قبل اندلاع النزاع المسلح الأوّل بين الطرفين.

ب - بعد الحرب البونية الثانية

ظلت واردات قرطاج من الفخار الروماني أهمّ الواردات على الإطلاق بعد الحرب البونية - الرومانية الثانية كما تدلّ على ذلك الكميات الهامة من الفخار الكمباني أ (La campanienne A.) التي تمّ الكشف عنها خاصة في قرطاج في إطار للحملة العالمية لإنقاذ هذا الموقع إلى درجة أن المختصّين يتحدثون عن اجتياح مهول لهذه النوعية من الفخار لأرض العاصمة البونية بدابة من سنة 200 ق.م. ويعزى نجاح هذا الإنتاج إلى سعي منتجيه إلى أن يجعلوا منه منتوجاً معدّاً خصيصاً للتصدير نحو الأسواق بما في ذلك البعيدة منها (أسعار قادرة على المنافسة، إنتاج بكميات هامة، انخفاض كلفة التوزيع...)

باعتماد دراسة أشكال هذا الخزف نتبين أن أواني الشراب بالخصوص قد لاقت رواجاً كبيراً داخل قرطاج. وهي ملاحظة يمكن سحبها على مجمل العالم البوني وذلك على نقيض إيطاليا إذ بيّن ج.ب مورال أن الأواني الفخارية لاقت منافسة الأواني المصنوعة من الفضة والبرنز.

يبقى لنا أن نصيّف باعتماد نفس المرجع أن الفترة السابقة التي تمتدّ من تاريخ اندلاع الحرب الأولى (264 ق.م) إلى سنة 200 ق.م تاريخ اكتساح الفخار

الكيمائي A لأسواق قرطاج قد طبعت على ما يرجّح بنوع من الانطواء عملت
العاصمة البونية خلاله على تحقيق "اكتفاءها الذاتي" ويجوز أن نفترض أن الفخار
"المحلي" (céramique locale) المكتشف قد يعود إلى هذه الحقبة التي تغطي
السنوات الأخيرة من القرن الثالث.

المبادلات مع إيبيزا وجنوب شبه الجزيرة الإيبيرية

ارتبط النشاط التجاري الفينيقي - البوني، بشهادة مصادرنا الأدبية،
بالدرجة الأولى بالسعي لاستغلال الثروات المعدنية الهامة التي كانت تحويها هذه
المنطقة وقد سبق لنا تناول جانب من هذه القضية عند الحديث عن التوسعات
الفينيقية نحو أقصى غرب المتوسط.

بالنسبة إلى الفترة البونية لا بد من التذكير بأن الكاتب ديودوروس الصقلي
يشير إلى أن بدايات سياسة قرطاج للتوسعية تتوافق وتأسيسها مستوطنة إيبيزا
(Ibiza) سنة 654 ق.م. وقد أثار هذا التاريخ جدلا طويلا بين المؤرخين ولا
 مجال للخوض فيه في هذا الموضوع من الدراسة بحكم أننا سنسلط على هذه
الإشكالية كلّ الأضواء في معرض حديثنا عن بروز قرطاج كقوة متوسّطة في
بداية الجزء الثاني من هذا الكتاب. ولكن ما دفعنا لإثارة هذه النقطة الآن هو
اعتزامنا الإلمام بأبرز سمات المبادلات التجارية القرطاجية مع هذه المنطقة من
المتوسط مع محاولة إبراز التطور الذي شهدته هذه المبادلات.

باعتماد المصادر الأثرية نرجّح أن تأسس إيبيزا من قبل القرطاجيين جاء
في الواقع كاستجابة لمصالح قرطاج بالتأكد ولكن أيضا وفي الآن نفسه كاستجابة
لمصالح المستوطنات الموجودة في جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية والتي كانت
تشهد على ما نرجّح مع أواسط القرن السابع قبل الميلاد لتعايش ملحوظة مردّها
كما بيّن قومار بلارد (Gomez Bellard) تزايد طلب الأشوريين على معادن
الفضة والقصدير والحديد. من هنا نشأت الحاجة إلى ضرورة إيجاد خطوط
تجارية تتوجه نحو جنوب شرق إسبانيا ووسط فرنسا وبذلك تمكّن التجار

الفينيقيون - البونيون من ربط صلات مع السكان الأصليين لهذه المناطق وقد كانوا يبيعونهم كمّيات من الفصدير جلبت عن طريق خط الاكيتان البرّي.

في هذا الإطار بالذات تنزل بدايات الحضور الفينيقي - البوني في خليج ايبيزا وساكاليتا (Sa Caleta) خاصة وأن موقع الجزيرة يستجيب تماما للهواجس التي قادت هؤلاء التجار بحكم قربها من الساحل إذ لا تفصلها عنه سوى مسيرة يوم واحد من جهة وبحكم غياب حضور بشري سابق من جهة ثانية وهو ما نرجّحه الأبحاث الأثرية نظرا لأنها لم تكشف عن بقايا حضارات أخرى على امتداد الفترة المتراوحة بين القرنين الثاني عشر والسابع قبل الميلاد.

قادت هذه الاعتبارات المختصّين إلى الاعتقاد أن الحضور السّامي بالجزيرة لم يكن وكما هو الحال عادة ولید رغبة في إنشاء روابط تجارية مع السكان الأصليين وإنما في إطار السعي إلى توفير بنية تدعم خطوط المبادلات البعيدة التي تحدثنا عنها منذ قليل وهو ما يفسّر من منظورهم بساطة المستوطنة الأولى التي تمّ إنشائها.

لم تنم هذه الأوضاع طويلا بحكم تظاfer مجموعة عوامل أبرزها:

- حالة عدم الاستقرار التي طغت على هذه المنطقة من المتوسط بحكم الصراع مع سكان منطقة تارنتوس.

- سقوط صور سنة 573 ق.م.

- تراجع الطلب على المعادن وخاصة الفضة.

- إدماج منطقة أروبا الوسطى وسكان المناطق الواقعة شمال الالك داخل دورة مبادلات العالم المتوسطي وهو ما سمح للأترسكيين والإغريق بالتزود بالمعادن مما أضرب باحتكار الفينيقيين لهذه التجارة. ويعتبر تأسيس مسّاليا وأمبورياس (Ampurias) أفضل دليل على سعي الإغريق خاصة لوضع حدّ لسيطرة السّاميين على أهم الخطوط التجارية.

شكلت سلسلة الأحداث هذه على ما يبدو منعرجا هاما في تاريخ المبادلات المتوسطية ذلك أن الحفريات تثبت اليوم أن هذه الفترة تتزامن مع بدايات ظهور الخزف الإغريقي والأترسكي في هذه المنطقة. لذلك ترجّح بعض الدراسات الحديثة أن تكون المستوطنات الفينيقية في شبه الجزيرة الايبيرية وجزر الباليار قد سعت لتوسيع دائرة علاقاتها التجارية مع جزر صقلية وسردينيا للخروج من أزمتها وخاصة مع مدن تاروس ومونتي وبيثيا (Bithia).

وضع تدخل قرطاج على المساحة المتوسطية كقوة حامية لفينيقي المغرب حدا لهذه المرحلة. لذلك يمكن القول أن سيطرة البونيين على المسالك التجارية بأقصى غرب المتوسط ترتبط بشكل وثيق بسيطرتهم على جزيرتي صقلية وسردينيا. من هنا نفهم هذا التشابه الكبير الذي لاحظته ج.ب. مورال على مستوى اللقى الخزفية بين سلسلة من المواقع توجد ضمن دائرة تضم بالخصوص سردينيا والثلاث الغربي من صقلية وشمال شرق البلاد التونسية اليوم (بما في ذلك قرطاج طبعا) وجزر الباليار وجنوب شبه الجزيرة الايبيرية وهو تشابه أمكن لج.ب. مورال رصدته انطلاقا من سلسلة ملاحظات يجمع بينها قاسم مشترك يتمثل في حضور واضح لأصناف معينة من الخزف:

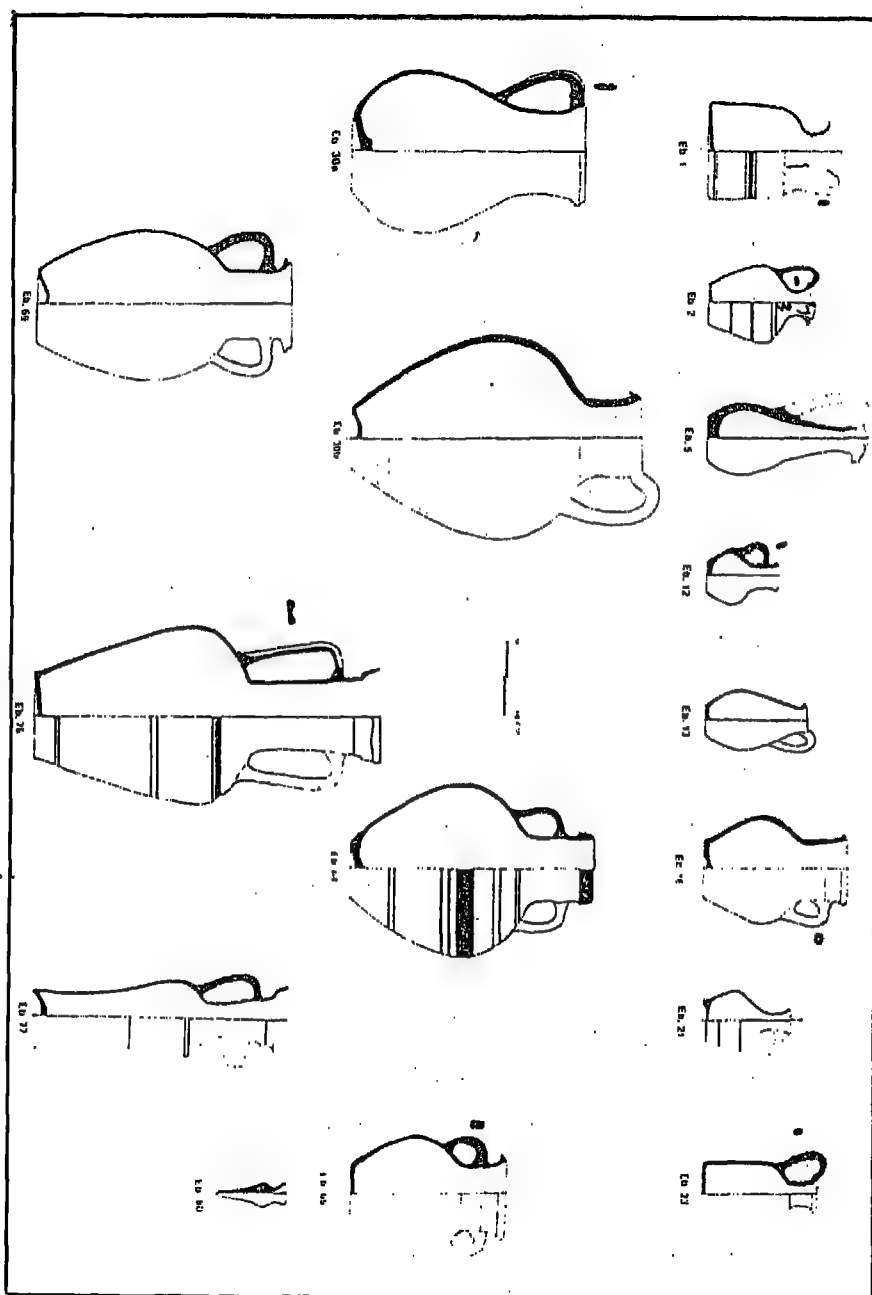
* الفخار الأتيكي (تعود بداياته إلى القرن السادس قبل الميلاد) الذي عوف رواجاً كبيراً خاصة في جنوب شرقي إسبانيا وهو إنتاج عملت بعض الورشات الموجودة أساساً في قرطاج وبالرمو على تقليده.

* الخزف ذو الطلاء الأسود (à vernis noir) يؤرخه ج.ب. مورال بالقرن الذي يسبق تحطيم قرطاج. وبالنظر في توزيعه الجغرافي يمكن القول أنه إنتاج بولي. وهو ينقسم بدوره باعتماد مقياس جودة الصنع إلى صنفين: صنف رديئ نجده مثلا في المنطقة الطرابلسية (La Tripolitaine) وصنف جيّد أثبتت الحفريات حضوره في كلّ من قرطاج وصقلية الغربية وخاصة إيبيريا التي يعتبرها نفس الباحث أهم قطب على الإطلاق. وتبرز للخريطة المصاحبة لمقاله الصادر بمجلة (Cahiers des Etudes Anciennes, XVIII 1986 p. 54) تركزاً

واضحاً لهذه النوعية من اللقى على طول المنطقة الممتدة بين قرطاجنة (Carthagène) وأمبورياس (Ampurias) مروراً بأليكانت (Alicante) وفالنس (Valence) وهو ما يوافق إجمالاً مجال اهتمام البرقيين وما جاوره حتى البريني (Les Pyrénées). وبالنسبة للتأريخ تبدأ فترة انتشار هذا الصنف من الفخار فى هذه المنطقة بالذات قبيل التوسع البرقي لتتواصل حتى سقوط قرطاج.

* اهتمّ الخط التجاري الموالي بتسويق خزف يتمّ إنتاجه فى منطقة إيطاليا الوسطى كنا تعرضنا إليه سابقاً وتطلق عليه الدراسات إنتاج "الورشات ذات الأختام الصغيرة". وقد أمكن الكشف عن نماذج من هذا الانتاج على امتداد المنطقة الواقعة بين قادش حتى نهر الايبيروس (L'Ebre). وتميل أغلب الدراسات حالياً إلى القبول بفكرة أن تكون هذه الخطوط بأيدي التجار القرطاجيين خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما ورد في نص المعاهدة الثانية المبرمة بين قرطاج وروما وهي تضمن للبونيين هيمنة تامة لا فقط على المنطقة الواقعة "ما وراء الشناخ الجميل" بل وأيضاً ما سنّيا وتارسيون أي جنوب شبه الجزيرة الايبيرية. وقد أثبتت الحفريات أخيراً ندرة ما يسمى بالجرار القرطاجية في ما تمّ العثور عليه حتى الآن من أنماط خزفية وذلك في عديد المواقع الفينيقية - البونبة الموجودة على مقربة من مضيق جبل طارق. وأفضل دليل على ذلك موقع توسكانوس وتلفعنا هذه الملاحظات للقول بأن قرطاج كانت لا تصدر الا القليل من المواد التي تستعمل هذه النوعية من الخزف كالخمور والزيت وغيرها.

في المقابل عرفت بعض الجرار المنتجة في جزيرة ايبيزا رواجاً كبيراً (تطلق عليها الدراسات عادة تسمية الجرار البونية - الايبيرية PE 11) وقد انطلق صنعها على ما يَرَجَّح مع أواخر القرن السادس قبل الميلاد في ورشات نصبت غير بعيد عن المقابر بمحاذاة الميناء ويبدو أن هذا الصنف من الفخار كان معداً لنقل الزيوت وربما أيضاً الموالح ومنتجات الصيد. (انظر وثيقة الأشكال الرئيسية للفخار البوني-الايبيزي)



الشكل 1 - الفخار البوني - المجلد 1
 FERNANDEZ, (M), COSTA (M), in, *Actes du IIIème Congrès international des
 Etudes Phéniciennes et Punique, Tente 1905 - 11.*

علاوة على هذه الجرار أثبتت الحفريات وجود نوعية أخرى من الفخار (PE21) مصنوعة محليا ولكنها في الواقع تقليد لأنماط إغريقية كانت متداولة في البحر التيريني ويبدو أنها كانت معدة لتصدير الخمور.

وللإيضاح نذكر بأن إنتاج إبيزا يرتبط بالأساس بفترة الانتعاش التي شهدتها المستوطنة عقب مرورها كغيرها من المستوطنات الفينيقية بالغرب تحت دائرة النفوذ القرطاجية. ولعل أبرز مظاهر هذه الانتعاشة تكثيف استغلال الفضاء الزراعي الذي توفره الجزيرة وهو ما سمح بتوفير فوائض فلاحية وُجّهت للتصدير. واعتبر ذلك سببا رئيسيا في ما حققته إبيزا من ثراء على امتداد الفترة الموالية.

المبادلات البرية

لعب هذا النوع من المبادلات دورا لا يستهان به في تنسبط التجارة القرطاجية ولكننا لا نملك في شأنه معلومات غزيرة بحكم صمت مصادرها عن هذا الجانب من الاقتصاد القرطاجي.

على المستوى الداخلي نميل إلى الاعتقاد أن جزءا من المبادلات القرطاجية مع المناطق التي خضعت للنفوذ العاصمة البونية مباشرة كان يتم عن طريق البرّ بدليل وجود خطوط ربطت بين قرطاج ونيابوليس وخطوط أخرى كانت تتجه إلى أونيكا وبزرت وحوض مجردة إضافة طبعا إلى تشييد البونيين لجسر على نهر مجردة لتسهيل عمليات التنقل.

على المستوى الخارجي ربطت قرطاج علاقات تجارية مع بلاد السودان وقد لعب الجرميون (Les Garamantes) دور الوسيط في هذه المبادلات. وشكل العاج وجلود الحيوانات المتوحشة وريش النعام أهم المواد التي كانت قرطاج تجلبها من هذه المناطق. واعتمادا على مؤلف المؤرخ هيرودوت يبدو أن مستوطنات لبدة الكبرى وطرابلس وسبراتة قد ربطت علاقات تجارية مع سكان

بلاد جرمة منذ القرن الخامس قبل الميلاد وتستغرق الرحلة حسب نفس المصدر ثلاثين يوما. ويميل من قزال إلى الاعتقاد أن هذا الخط كان ينطلق من طرابلس أو من لبدة منجها بعد ذلك نحو الشرق ثم يمرّ عبر بونجم. ولا يستبعد نفس الباحث وجود بعض الخطوط البرية المنطلقة من لبدة وطرابلس وسبراطة وتاكبس (Tacape) قابس) في اتجاه الجنوب الغربي والجنوب حيث ثلثقي على مستوى غدامس التي يبدو أنها لعبت منذ تاريخ مبكر دور نقطة تقاطع والتقاء بين كل هذه الخطوط.

يبقى أن نشير باعتماد نفس المرجع أنه من العسير اليوم تحديد الخط التجاري الذي مكن القرطاجيين من النزود بكميات من الذهب قادمة أصلا من أعماق إفريقيا.

تنظيم التجارة القرطاجية

1 - العملة

يعتبر تأخر قرطاج في ضرب العملة أمرا لافتا للانتباه خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار وفرة المعادن التي شكلت بالنسبة لبعض الخطوط التجارية على الأقل إحدى ركائزها ويضاف إلى ذلك - وهو أمر يكاد يكون بديهيا - اعتماد الاقتصاد القرطاجي بالدرجة الأولى على النشاط التجاري وهو ما يفترض أن تكون قرطاج قوة سبّاقة لاعتماد العملة.

لتفسير هذه الظاهرة الغريبة تمّ تقديم أسباب مختلفة منها:

- تعود القرطاجيين إرياد مناطق لا تعتمد العملة ولا تعترف بها كأداة للتبادل وهو ما يؤدي للقول أن قرطاج كانت تمارس مع هذه المناطق على الأقل تجارة بدائية. ويمكن أن نذكر على سبيل المثال تجارة المعادن وهنا لابد من الإشارة إلى نص هيرودوت الشهير والذي اصطلح على تسميته بنص المقايضة الصامتة وكذلك الشأن على ما يبدو بالنسبة إلى تجارة العبيد.

- بالنسبة إلى المبادلات مع المناطق التي كانت تعتمد العملة يجب التذكير أن قرطاج كانت تلعب بالأساس دور الوسيط. ومن المفيد أن نشير أيضا إلى أنها تعاملت مع منظومات ضرب مختلفة كالمنظومة المسمّاة الأوبية - الأتيكية والمنظومة الفينيقية والكدات (Kedet) المصرية يضاف إلى ذلك أن العاصمة البونية قد تثبتت نظام تبادل يتنزل في الواقع بين العملة والمقايضة ويعرف بنظام وزن المعدن الثمين (Le pesage du métal précieux).

بالرغم من تأخر قرطاج في عملية الضرب نلاحظ أن استعمال العملة لم يكن غريبا عنها تماما ذلك أن الحفريات أثبتت وجود عملات إغريقية في شمال إفريقيا تعود إلى القرن الخامس أي قبل بداية ظهور ما يسمى بالعملات الصقلية - البونية (Siculo-puniques) التي يعتبرها المختصون بمثابة البداية الحقيقية للعملات القرطاجية كما تحوي خزائن متحف باردو وقرطاج قطعا تعود إلى نفس الفترة وتدعم الحكم الذي أطلقناه في مستهل هذه الفقرة.

يبقى أن نشير إلى أن المستوطنات البونية في غرب جزيرة صقلية قد قامت بضرب عملة خاصة بها قبل قرطاج نفسها. ونخص بالذكر في هذا السياق مستوطنتي موتبي وبانورموس. ويبدو أن المراكز القرطاجية في الجزيرة وجدت نفسها مجبرة على اعتماد العملة للاستجابة لمتطلبات التعامل سواء داخل صقلية أو خارجها باعتبار أن نشاطها التجاري كان يتم بالدرجة الأولى مع مناطق اعتمدت هذه الوسيلة في التبادل منذ فترة طويلة. وطبيعي أن تتأثر النقود المضروبة بالأساس بالعملات الإغريقية وخاصة السرقوسية نظرا لإسراع هذه المدينة الكبير داخل الجزيرة وخارجها.

2 - السياسة التجارية القرطاجية

تتميز المعلومات التي بحوزتنا حول هذا الجانب الهام من تاريخ قرطاج الاقتصادي بالندرة وللحصول على صورة تقريبية نجد أنفسنا ملزمين على توظيف واستقراء معلومات تقتّمها مصادرنا على اختلاف أنواعها ولو أنها واردة

أصلاً للحديث عن جوانب أخرى من حضارة قرطاج كالمعاهدات وتقرير رحلة خنُون ونقيشة بيرجي وغيرها.

يسود الاعتقاد أن مصالح قرطاج كدولة ارتبطت بمصالح بعض العائلات المتنفذة اقتصادياً. ولقد طبع هذا التماهي توجهات سياستها الخارجية مكثفاً بالتالي علاقاتها ببقية القوى المتوسطية وكما رجّحت الباحثة الألمانية ل.م. فونتار (L.M.Günter) اعتمدت الأرستقراطية القرطاجية على شبكة كثيفة من العلاقات الشخصية قامت بإنشائها مع بعض العائلات المتنفذة في المناطق التي كانت تتاجر معها. وبالرغم من فقر مصادرها نرجّح أن التجارة عبر المتوسط كانت بالأساس بيد الأثرياء القرطاجيين المنتمين بالضرورة إلى أوساط أرستقراطية قادرة على تجهيز السفن وتحمل نفقات هذه النوعية من الأنشطة مع ما قد يترتب عن ذلك أحياناً من خسائر مكلفة (غرق السفن، القرصنة...). وطبيعي أن تسعى مثل هذه الأوساط إلى احتلال مكانة سياسية تعادل وزنها الاقتصادي وأن توجه كما لاحظنا ذلك منذ حين سياسة قرطاج الوجهة التي تخدم مصالحها. لذلك يمكن للتأمل في سياسة العاصمة البونية الاقتصادية أن يخرج بسلسلة ملاحظات رئيسية هي التالية:

* استخدام القوة عند الاقتضاء: وهي ظاهرة يمكن ملاحظتها دون صعوبة انطلاقاً من كثافة تدخلات قرطاج العسكرية ضد كل خطر يهدد مصالحها الاقتصادية. ونكفي الإشارة هنا إلى تدخلاتها المتعددة في جزيرة صقلية وكذلك منعها لدوريبوس من تأسيس مستوطنة على الساحل الإفريقي. ويضاف إلى ذلك سعيها لتأمين جو من الاستقرار بمطاراتها للقراصنة ومعاقبها لهم (على غرار تحالفها مع الأترسكيين في واقعة ألاليا الشهيرة على الساحل الشرقي لكورسيكا ضد الفوقيين سنة 535 ق.م). وقد تذهب قرطاج إلى حد استعمال القوة ضد حلفاءها إن لزم الأمر وهو ما نجد صدى له لدى ديودوروس الصقلي الذي يشير إلى نجرؤ الأترسكيين على دخول مناطق بحرية تابعة لقرطاج (جذبهم جزيرة رائعة قد تكون مادار؟ Madère) لكن العاصمة البونية سارعت

بطردهم. ومادما بصدد الحديث عن طبيعة العلاقات بين القرطاجيين والأترسكيين يجدر بنا التوقف عند هذه الإشكالية التي تطرحها نقشة بيرجي (Pyrgi) الشهيرة وبالتحديد ما اصطلح على تسميته بالبعد السياسي لهذا النص. ولكن قبل ذلك نذكر بأن الوثيقة تم الكشف عنها في بيرجي (= ميناء مدينة كايري Caeré في أتروريا الجنوبية) وتؤرخ بسنة 500 ق.م. ويشير النص البوني إلى أن الملك ثيبيري فاليناس (Thefarie Velianas) ملك سيسرا (أحد الأسماء القديمة لمدينة كايري) قام بإهداء الإلهة عشترت معبداً أو تمثالا؟ (القضية موضع جدل كبير) ولابد من الإشارة أيضا أن نصا أترسكيا (على صفيحتين ذهبيتين) يقم تقريبا نفس الرواية فيما نقش النص البوني على صفيحة ذهبية ثالثة وينتهي بعبارة شكر موجهة للإلهة تظل بدورها موضع جدل بين المختصين في دراسة النقائش السامية.

لئن تعرضنا دولما إطالة إلى محتوى هذا النص فإن ذلك كان بهدف تنزيل التعليق الذي سيشفح ملاحظتنا هذه في إطاره الصحيح. ذلك أننا نسعى أولا للإجابة عن سؤال بسيط وهو لماذا عمد ملك كايري إلى تقديم هذا المعبد أو التمثال إلى إلهة قرطاجية تمت مماثلتها مع إلهة أترسكية كبيرة هي يوني (Uni)؟ تتضارب الآراء عند محاولة الإجابة عن هذا السؤال ويمكن أن نميز إجمالا بين:

- تيار أول يمثل م. بالوتيلو يرى في تصرف ملك كايري انعكاسا لتدخل قرطاج العنيف في الشؤون الداخلية الأترسكية بحكم خشيتها من حصول تقارب أترسكي - إغريقي ويذهب الباحث الإيطالي إلى حد اعتبار ثيبيري أداة ضغط قرطاجية نصبتها العاصمة البونية لمواجهة تيار قريب من الإغريق. ويتنزل تصرفها في إطار سعيها للاستفادة من خبرات المنطقة وبالتالي الدفاع عن مصالحها.

- تيار ثان معاكس تماما يرى أن لا شيء يدفعنا للقبول بفكرة موالة ثيبيري لقرطاج إذ يرى ج - هورقان (J.Heurgon) أن ما قام به ملك كايري

إنما يتنزل في الواقع في إطار السياسة البحرية التي كان يتبعها الأترسكيون خاصة بحكم تكبد أسطولهم لسلسلة هزائم على يد الليباريين (Les Liparéens). ومن هنا نشأت لديهم الحاجة إلى التحالف مع القرطاجيين ومن هذا المنطلق يعتبر نفس الباحث أن تصرف ملك كاييري جاء كتعبير عن شكره لحلفائه البونيين لمساعدتهم له على تحقيق نصر على أعدائه ليخلص للقول في تفهيم عام لطبيعة العلاقات التي ربطت بين القطبين إلى أن تحالفاتهم كانت بالأساس ظرفية. ولدعم رأيه يسوق القرائن الآتية:

- التماثيل التي وضعها المساليون في معبد الإله أبولون بدلفي لتخليد انتصاراتهم تكفي بالإشارة إلى أن النصر تحقق على حساب القرطاجيين ولا نجد ذكرا للأترسكيين.

- نفس الملاحظة يمكن أن نسحبها على الليباريين الذين يكتفون بالتذكير بانتصاراتهم على الأترسكيين ولا نجد ذكرا للقرطاجيين.

- ملازمة الأترسكيين الحياد في واقعة هيمراس وعدم نجدتهم لحلفائهم القرطاجيين.

- نفس الموقف اتبعته قرطاج تجاه الأترسكيين سنة 474 ق.م. في كومي (Cûmes).

* إن استخدام القوة لم يمنع قرطاج من التعامل عند الاقتضاء بطريقة مغايرة تماما مع بعض الأوضاع الخاصة فبالأمل في محتوى المعاهدات التي أبرمتها مع الرومان نلاحظ وجود مناطق عملت قرطاج على احتكار المبادلات التجارية معها. ولقد عينا بالدرجة الأولى منطقة ما وراء الشناخ الجميل وجزيرة سردينيا ثم لاحقا جنوب شبه الجزيرة الايبيرية. ولا نجانب الصواب عند القول بأن موقع هذه المناطق وثرواتها كان وراء هذا الحظر الذي فرض على الرومان. وفي المقابل تبدو لنا صقلية البونية من خلال نفس المعاهدات بمظهر المنطقة المفتوحة على التجارة الحرة ويتمتع التحار الرومان بمقتضى الاتفاقيتين

بنفس حقوق التجار القرطاجيين. وهي حرية يمكن ملاحظتها أيضا من خلال عملية ضرب العملة باعتار المستوطنات الفينيقية - البونية سرعت في سك نقودها قبل قرطاج نفسها.

من جهة أخرى أثبتت الحفريات المنجزة في القبور التي ترقى إلى الربع الأخير من القرن الخامس تراجع واردات قرطاج نفسها من العالم اليوناني وهي ظاهرة لا نجد نظيرا لها في المقابر البونية الموجودة في الجزيرة والتي تعود إلى نفس الفترة وهو ما يدفعنا للقول بأن سياسة "التنفس" التي اتبعتها قرطاج خلال هذه الفترة لم تطبق على مستوى مستوطناتها الواقعة بالجزيرة.

لا يمكن أن نتصور - كما ذهب في اعتقاد البعض - أن هذه الحرية التي منحها قرطاج طوعا إلى بعض المناطق التابعة لها (الأمر ثابت على الأقل بالنسبة لصقلية) تعكس إهمالا وغياب الاهتمام من قبل العاصمة البونية. ولتأكيد رأينا تكفي الإشارة إلى التدخلات القرطاجية المتعددة والمتكررة بالجزيرة للحفاظ على مصالحها. وإنما هي في الحقيقة انعكاس لنظرة مناقضة تماما ووجه ثان من وجوه سياسة قرطاج الاقتصادية ذلك أن البونيين باعتمادهم هذه الطريقة في التعامل مع بعض مستوطناتهم إنما أرادوا في الحقيقة المحافظة على منفذ مفتوح تجاه التجار الأجانب (رومان، إغريق، أترسكيين) وبعبارة أوضح سعت قرطاج إلى أن تجعل من الجزء الواقع تحت سيطرتها فضاء للتبادل الحر يرتاده هؤلاء التجار لتسويق بضائعهم وهي بضائع يتزود بها القرطاجيون ليقوموا بترويجها في مناطق أخرى من البحر الأبيض المتوسط.

أخيرا لا يمكن أن نغفل الدافع الاستراتيجي الذي حدا بالقرطاجيين إلى معاملة مستوطناتهم في صقلية بالخصوص بلين لفت انتباه المصادر القديمة. ويتمثل هذا الدافع في فهم قادة قرطاج لخصوصيات هذه الجزيرة إذ يجب أن لا ننسى أن صقلية منطقة يتعايش على أرضها العنصر البوني مع عنصر آخر هو العنصر الإغريقي. لذلك فهمت قرطاج أن ممارسة سلطة مطلقة قد يؤدي إلى وضعية عدم استقرار وهي نتيجة معاكسة تماما لما كانت قرطاج تود تحقيقه. من

هنا نفهم أن الإغريق لم يعمدوا إلى طرد التجار القرطاجيين المتواجدين في مدنهم (باستثناء سنة 397/398 في سرقوسة) ويبدو أن الهيمنة المسلطة عليهم بطريقة غير مباشرة لم تثر حقدهم وعداوتهم.

* تأسيس المستوطنات وتوفير البنية الأساسية لازدهار النشاط التجاري: سعت قرطاج لا فقط للمحافظة على المجال الموروث عن صور بل وأيضا لتوسيعه ليشمل مناطق جديدة ويكفي التذكير هنا بالرحلتين الشهيرتين اللتين نظمتها دولة قرطاج: الأولى تحت قيادة حنون في اتجاه الساحل الأطلسي الإفريقي والثانية في اتجاه الشمال (نحو الجزر البريطانية) تحت إمرة خيملاك وقد سعت قرطاج إلى احتكار هذه المناطق مخفية عن منافسيها أسرار رحلاتها. ولا أدل ذلك من هذه الصيغة الضبابية التعتميمية التي تطبع تقرير الرحلة الذي وصلنا في ترجمة يونانية والمسمى برحلة حنون.

أخيرا اجتهدت قرطاج لتوفير البنية الأساسية الكفيلة بضمان تفوقها التجاري فبرع البونيون في صناعة السفن ولو أن المعلومات الواردة في المصادر الأدبية تتعلق بالدرجة الأولى بالسفن العسكرية. كما برعوا في إقامة الموانئ وخاصة منها المنحوتة في الصخر (انظر لوحة المواني القرطاجية) وقد سمحت الحفريات الأخيرة بتقديم الدلائل الحازمة على تفوقهم في هذا الميدان ولقد عينا بالخصوص موانئ العاصمة البونية نفسها ولو أنها تنتزل زمنيا في إطار الفترة المتأخرة من هذه الحضارة (انظر فصل الإطار الحضري) ويمكن أن نضيف في هذا الإطار مبناء موني وهو ميناء منقور في الصخر معد على ما يرجح لإصلاح السفن وميناء المهدية الذي تتوجه الأبحاث الحديثة إلى إثبات جذوره القرطاجية بعد طول جدل بين المختصين.

الموتى القرطاجية
نموذج مصغر من اعداد فريق البحث البريطاني على ضوء الحفريات الأخيرة



الفلاحة القرطاجية

أقترن التوسّع القرطاجي في المجال الإفريقي باكتساب مناطق زراعية، وقد أبرزنا أهميّة امتدادها بالنسبة إلى الظهير الزراعي المحدود للمدن - السّول الفينيقيّة أو للعمق القاري لمختلف المدن البونية. وتتفق المصادر من خلال وصفها المجال الزراعي لقرطاج أو تثمين علم الزراعة بها على أهميّة التجربة للفلاحة القرطاجية. فقد احتفظت المصادر الإغريقية واللاتينية بعناصر المعرفة للزراعة للقرطاجيين من خلال كتاب الفلاحة لما جون الذي احتفظ به الرومان سنة 146 ق.م اثر تدمير قرطاج، ولعله كان من أهمّ غنائم الحرب. وقد أمر مجلس الشيوخ الروماني - فيما يذكر بلينيوس الأكبر - بترجمته وتولّت الأمر لجنة ترأسها سيلانوس (Decimus Silanus). وأنجزت ما كلفت به في السنة نفسها. ورغم انتشار نص الترجمة، فإننا نجد صداها لدى علماء الزراعة اللاتينيين والإغريق عبر إحالات مباشرة لماجون ونصائحه والتي يمكن أن نعتبرها مقياساً لطبيعة النشاط الفلاحي لدى القرطاجيين في المجال الذي امتدت عليه ملكياتهم. وتذكره المصادر الإغريقية بصيغة (*La chôra*) وقد متنا كلّ من ديودوروس الصقلي وبوليبيوس بوصف دقيق لمنطقة من أهمّ مناطقه وهي الوطن القبلي، وذلك على هامش الأحداث العسكرية لأواخر القرن الرابع ق.م وأواسط القرن الثالث ق.م.

1 - علم الزراعة القرطاجي : كتاب الفلاحة لماجون

نطرح بشأن هذا الأثر جملة من التساؤلات منها هويّة المؤلّف، فالاسم يوافق أسماء العديد من القادة العسكريين ابتداء من القرن السادس ق.م، ثم هل كان هذا المؤلّف استثناء في قرطاج، وإلى أي مدى يمكن دراسته في سياق تطوّر معرفة نظرية وتجربة عملية تعكس واقع الفلاحة القرطاجية؟

ورد كتاب الفلاحة لماجون في ثمانية وعشرين كتاباً وقد تُرجم إلى اللاتينية ثم إلى الإغريقية وصدر في ملخصات ومع ذلك فإننا نحتفظ بأجزاء

محدودة من هذا الأثر وهي تقتصر على مقاطع وفقرات وإحالات وجيزة يبلغ عددها الجملي ستة وستين إحالة. ومن النقد من يعتبرها دون ذلك أي حوالي أربعين - نظرا إلى صعوبة تبين الأصل القرطاجي من الإضافات التي تخللت الملخصات الإغريقية.

ولا تسمح لنا الصيغ التي قُدم بها ماجون بتبين هويته وتأريخ كتابه رغم أن بلينيوس الأكبر يعتبره من قادة الجيش، وهو ما جعل الباحث الإيطالي سبرنزا (Speranza) يفترض أن عالم الزراعة المقصود هو ماجون ابن عبد مفلرت البرقي أي شقيق حنبل، ويبرر هذا التشخيص بالانفتاح على التأثيرات الإغريقية خلال مرحلة الحروب البونية ووجود تأثير لعلماء الزراعة الإغريق في كتاب الفلاحة القرطاجي مثل القواسم المشتركة التي تبدو بين هذا الأثر وكتابات ثيوفراست (Théophraste) (حوالي 370-287 ق.م) الذي ألّف أبحاثا حول النباتات. ويسمح لنا اعتماد ماجون لهذا الأثر بتبين حد أقصى للمرحلة التي عاش خلالها وهي النصف الثاني من القرن الرابع ق.م ومن المرجح أن الحقبة التي عاش خلالها توافق مرحلة القرنين الثالث أو الثاني ق.م. وهي حقبة اقترنت بالانفتاح على المؤثرات الإغريقية من جهة وتطور الفلاحة والمشهد الزراعي بالمجال القرطاجي ومما يؤكد وصف المصادر المذكورة في مقدمة هذا العنصر. ويمكن اعتبار كتاب ماجون أهم خلاصة لعلم الزراعة من بين مؤلفات قرطاجية أخرى كما يمكن مراجعة الأمر اعتمادا على كولوملا (M-Columelle) -وهو أصيل غادس بإسبانيا، أي من منطقة تميّزت بعمق التأثير الفينيقي البوني- وقد ألّف خلال القرن الأول ميلادي كتابين، الأول في الفلاحة والثاني خصّصه للأشجار أو الغراسات ويذكر من بين مصادره الكتب التي دونها بالبنونية أفارقة منهم عبد ملقرت. وأمام صعوبة تأكيد اطلاع كولوملا على هذه المؤلفات يرجّح أن يكون ماجون نفسه ذكر علماء زراعة من بين مواطنيه.

واعتمادا على مبدأ الترتيب التفاضلي لمجمل المصادر التي اعتمدها يفرد كولوملا لماجون مكانة خاصة باعتباره "أب علم الزراعة"

(*Rusticationis parentem*)، أمّا ماركوس ترنتيوس وارّو (M. T. Varron) (116-27 ق.م) - وهو روماني متعدد الاهتمامات المعرفية ومؤلف كتاب في الفلاحة فإنّه يختصر قائمة مصادره من علماء الزراعة "بأشهر هؤلاء، ماجون القرطاجي الذي كتب باليونانية" ونلاحظ تأكيد فيقرو على هذا المصدر الذي يذكره في كتاب الخطابة (*De Oratore I, 249*) وينصح "المالك بأن يسير على المشرف على ضيعته التمتع في دراسة كتاب ماجون القرطاجي".

ويعتبر النقد المعاصر أنّ وارّو وكولوملا وظفا بصفة عميقة الترجمة والملخصات اللاتينية لكتاب ماجون. أمّا الترجمة الإغريقية التي أنجزها سنة 88 ق.م. كاسيوس ديونيزيوس (Cassius Dionysos d'Utique) المقيم بأوتيكّا وكانت آنذاك عاصمة المقاطعة الإغريقية الرومانية فقد كانت مزيجا من التلخيص والاختصار والتصرف والإضافات لعلماء الزراعة الإغريق. وتؤكد توجّه اختصار هذا الأثر حيث أصدر ديوفانوس (Diophanos de Nicée) سنة 64 ق.م الكتاب في ستة أجزاء تمّ اختزلها بولّيو (Pollion de Tralles) في جزئين وهو فيلسوف رواقى درس في روما أواسط القرن الأول ق.م. أنت ترجمة كاسيوس ديونيزيوس وإضافاته وما تبعها إلى صعوبة تمييز ما يعود لكتاب ماجون ممّا أضيف من الكتابات الإغريقية. لكن يتضح أنّ هذه الاختصارات كانت سهلة الاستعمال وهو ما يؤكّده على الأقلّ بلينيوس الأكبر (23-79م) في كتابه "التاريخ الطبيعي" حيث يذكر أهم مصادره: "ديونيزيوس مترجم ماجون وديوفانوس الذي لخص ديونيزيوس". وهكذا فإنّ تبين صدق كتابات ماجون عند انعدام الإحالات المباشرة يعتمد على مقارنة المعروف منها لدى وارّو وكولوملا بما تذكره بقية المصادر ومنها بعض أناشيد ورجليوس في ديوانه "جيورجيكّا" (*Georgica*) الذي يتغلّى فيه بالريف أو التصورات الزراعية الذي جمّعها كاسيوس باسّوس (Cassius Bassus) خلال القرن الرابع ق.م في كتاب "جيوبونيكّا" (*Geoponica*) والتي اعتمد فيها على علماء الزراعة "اللاتينيين والأفارقة" والستوريين" وقد وصلنا هذا الأثر في نسخة بيزنطية من القرن العاشر م.

ومن مظاهر تواصل المعرفة بالكتابات المذكورة في القرون الوسطى، ما يذكره ابن العوام الإشبيلي في مقدمة كتاب الفلاحة وهو من أبرز المؤلفات الأندلسية في هذا الميدان: "وأما بعد فإني قرأت كتب فلاحة المسلمين الأندلسيين ومن كتب غيرهم من القماء المقدمين في صنعة فلاحة الأرضين المضمنة كفيّة العمل في الزراعة والغراسة ولواحق ذلك وما بتعلّق به من كتبهم في فلاحة الحيوان، ما وصل إليّ منها وما نصوه فيها. نقلت من عيونها إلى هذا التّأليف... واعتمدت على ما تضمّنه كتاب الشيوخ أبو عمر بن حجاج... وهو مبنيّ على آراء أجلة الفلاحين والمتكلمين وعزاها إليهم يוניوس بارون..."

وحاول دون جوازف انطونيو (Don Joseph Antonio) وهو ممن حقّقوا نص ابن العوام تشخيص مصادره القديمة فاعتبر أنّ يוניوس أقرب لكولوملاً إذا اعتبرنا عناصر اسمه كاملة لوكيوس يוניوس كولوملا (L. Junius Columella) وبارون مطابقاً للنطق العربي لوارو (Varro) كما انتبه إلى كستينوس الذي يذكره ابن العوام ويرجح أن يكون كستيس ديونيزيوس صاحب أول ترجمة إغريقية لماجون. إن التأكيد على إمكانية تواصل المعرفة الزراعيّة القرطاجيّة خلال المرحلة الوسيطة يبدو صعب الإثبات في هذه الحالة إلا إذا اعتمدنا استنتاج مؤلّفي موسوعة الآثار الإغريقيّة و اللاتينيّة دارمسار وساليو (DareMBER et Saglio) اللّذين يعتبران كتابات وارو وكولوملاً في علم الزّراعة مجرد ملخصات لكتاب ماجون (*Res rustica TIV 2, p. 900*).

وإجمالاً فإنّ الاهتمام بكتاب ماجون يتضح من خلال ما أبرزه وارو باعتباره جامعاً لتجارب ومؤلفات إغريقيّة" تمّ إنّه يلخص تجربة القرطاجيين في مجالهم الذي أصبح مقاطعة رومانية وهو ما يدلّ على الجنوى العمليّة لترجمته رغم أنّ كاتو (Caton) قائد النّزعة المعادية لقرطاج في مجلس الشيوخ الرومانيّ ألف كتاباً في علم الزّراعة (*De Agricultura*) قبيل سقوط قرطاج.

أشار بعض علماء الزراعة اللاتينيين مثل تريمالّيوس سكروفا (T.Scrofa) إلى مطابقة نصائح ماجون لمعطيات طبيعيّة خاصّة بإفريقيا. ويمكن

القبول بهذا الرأي بالنسبة إلى بعض الغراسات وهو ما نجعلنا على تحديد مجالات اهتمام ماجون فهي تشمل الأشجار والغراسات وخاصة منها أشجار الزيتون وغراسة العنب ثم تربية الماشية إضافة إلى محور تنظيم العمل الفلاحي وعمل العبيد ومقاييس اختيارهم وتوزيع المهام بينهم .

2 - الفلاحة وخصائص المجال الزراعي القرطاجي

أشرنا في الفصل المخصص للحضور القرطاجي في المجال الإفريقي إلى تطور المنطقة الزراعية لقرطاج من ظهير محدود حول المدينة إلى مجال زراعي مؤطر مباشرة. ويرجح أنه كان يشمل مناطق سادت بها ملكيات القرطاجيين مثل الوطن القبلي وسهول منخفض وادي مليان ومجردة الأسفل وهو المجال الممّون لقرطاج والذي ذكرته المصادر الإغريقية بصيغة (*chôra*) واعتبر بوليبيوس الذي عاين المنطقة سنة 146 ق.م. أن "المجال الزراعي لقرطاج يغطي احتياجاتها اليومية لكن يضطرّ ما ضمان الاحتياطي الضروري من المؤن أو احتياجاتها لثناء الحروب إلى اعتماد مولود مناطق اللوبيين والنوميديين". وقد أبرزنا قيمة هذا المجال المنتج للحبوب بالنسبة إلى قرطاج وتبعيته الضريبية لها. أمّا مجال ملكيات القرطاجيين فإنّه اعتمد على الغراسات وتربية الماشية أساسا وهي الصورة التي نقمها المصادر لمنطقة الوطن القبلي التي اقتحمها جيش سرقوسة بقيادة حاكمها آغا توكلاس سنة 310 ق.م. ويقدم ديودوروس الصقلي المشهد التالي: "أرسي جيش آغا توكلاس قرب رأس أدار وبعد إحراق أسطوله أمر جنوده بالزحف على مدينة قرطاجية كبيرة (*Mégalépolis*) وقد تخلّلت المنطقة التي قطعها الجبش الحداثق والحقول وبها آبار عديدة مجهزة بقنوات الري وعلى حواشب الطريق سكن ريفي متقن البناء يعكس ثراء شاملا وكانت المساكن مليئة بكل متطلبات العيش وملذات الحياة وهو ما سمحت سلم طويلة بتركيمه. وكانت الأرض مغروسة كروما وزباتين وأنواعا عديدة من الأشجار المثمرة وتسود بالمراعي قطعان الأبقار والأغنام والخيول وهكذا تتضح في هذه الروّوع أوجه ثراء أبرز المالكيين القرطاجيين..."

ونجد لدى بوليبيوس عناصر نفس المشهد بما أنه وصف نفس المنطقة - قبل ديودوروس الصقلي- إثر حملة القنصل أتيليوس ريوغولوس (Atilius Regulus) سنة 256 ق.م أي في غضون الحرب الأولى بين قرطاج وروما على المجال القرطاجي. فإثر "الاستيلاء على أسبيس (Aspis / قليببة) ترك الرومان حامية بالمدينة وأوفدوا مبعوثين إلى روما... ثم خرج الجيش وشرع في نهب الظهير الزراعي وتدمير مساكن رائعة البناء وتمكن في وقت وجيز من تجميع عدد كبير من المواشي وأكثر من عشرين ألفاً من العبيد..."

إن الربط بين عناصر الوصف المقدم ونصائح ماجون يمكننا من البحث في طبيعة الاستغلال الزراعي وخصائص ملكيات الأرستقراطية القرطاجية ومكونات الإنتاج الفلاحي. ويتضح من نصي ديودوروس الصقلي وبوليبيوس معطى الاستغلال المكثف وأهمية السكن الريفي الذي يسمح لنا بتقدير حجم الملكيات باعتبارها متوسطة الامتداد فـ نموذج الملكية الكبرى (La tifundia) والملكيات التغبية تناولها ماجون بالترس إذ ينصح "من ينبغي لشراء أرض أن يبيع مسكنه [الحضري] مخافة أن يفضل طيب المقام في المدينة على الريف..." وقد ورد وصف السكن الريفي في ضواحي قرطاج لدى أبيانوس الذي يذكر استيلاء جنود سقيبيو الإيميلي على منزل ريفي حصين خارج أسوار قرطاج في ظروف حصارها أثناء الحرب. ومكن البحث الأثري من التعرف على نموذج هذا السكن في نفس المنطقة حيث اكتشف سنة 1979 مسكن ريفي في منطقة قمرت أي في الظهير الزراعي لقرطاج "ميجارا (Megara) وبين م. ح. فنطر طابعه الثنائي فهو متركب من قسم معد للسكن يتضمن بئراً وبيت استحمام وثلاث غرف أما القسم الثاني ففيه معصرة زيت وأحواض لتصفية الزيت وجرة كبيرة لخزن المون.

وهكذا فبناء على تفضيل السكن الريفي بالنسبة للمالك ووصف المصادر الأدبية لمساكن تختلف عن سكن المزارعين الذي تذكره المصادر اللاتينية بتسمية (*Mappalia*) والمعينة الأثرية فإننا أقرب إلى التسليم بارتباط القرطاجيين بالأرض في إطار ملكيات قائمة على الاستغلال المكثف للزياتين والكروم والأشجار المثمرة.

ولعلّ الإضافة القرطاجية في الميدان الفلاحي تكمن أساساً في تقنيات الإنتاج ودرجة التكتيف أكثر من إدخال نوعيات جديدة للمنطقة إلا إذا استثنينا فرضية إدخال أو إشاعة غراسة الرمان والتي نصّ عليها بلينيوس الأكبر باعتبارها إضافة قرطاجية أو فينيقية في غرب المتوسط ويذكر تسعة أنواع من "التفاح البوني" (*mala punica / malum punicum*) وهي التسمية اللاتينية الأكثر استعمالاً بالمقارنة مع تسمية (*granata / granatum*). وقد خصّ ماجون هذا الصنف من الإنتاج بتوصية لتقنيات حفظ التمار. كما يذكر مؤلف التاريخ الطبيعي بلينيوس الأكبر تقنية تطعيم الزيتون البرّي باعتبارها اختصاصاً إفريقياً. وتتضح في هذا الميدان أهمية الإضافات في المرحلة القرطاجية سواء من حيث امداد الغراسات أو تقنياتها، فمقاييس ماجون لغراسة الزياتين قريبة من التصورات المعاصرة الأكثر علمية: يحب أن تكون الأشجار متباعدة مسافة 75 قدماً (22.2م) في جميع الاتجاهات على ألا تقل عن 45 قدماً (13.3م) إذا كانت التربة ضعيفة ومعرضة للرياح.

ويذكر وأرو الرّزنامة الفلاحية لماجون الذي يضبط مراحل الغراسة والزراعة وفقاً للفصول وخصوصيات التربة سواء لغراسة الزياتين أو الكروم. واحتفظ كولملاً بطريقة استخلاص الخمر من الزبيب وقد أوردتها ماجون وهي نوع من الإنتاج معروف بالاسم اللاتيني (*passum*) ولعلّ التسمية ترجّح اعتبارها بضاعة تصديرية أو على الأقل معروفة من طرف الرومان تماماً مثل

منتجات أخرى على غرار التين اللّوبي أو الإفريقي (*figus libyca, figus africana*) وإنتاج العسل الذي أشار هيرودوت إلى أهميته في المجال الإفريقي ونجد لدى اللاتينيين تسمية نوعية من الشمع البوني (*cera punica*) ذي الاستعمالات الطبية.

أمّا اليد العاملة الفلاحية فإنّنا نلاحظ تطابقاً بين أهمية العبيد في المجال الفلاحي لقرطاج من خلال النصوص الأدبية وتخصيص ماحون على نصائح حول استعمال اليد العاملة العبودية. إذ ينصح باشتراء القنادرين على تعاطي العمل الفلاحي وتفضيل عبيد الولادة الذين يشؤون في الضيعة ويساعدون على ارتباط آبائهم بالأرض. كما ينصح ماحون باختيار الأكفاء من بين الأكبر سناً للإشراف على العمل، لكننا نستبعد اعتماد نظام عبودي على نطاق واسع، ذلك أنّنا نجد لدى أرسطو إشارة صريحة بتوجّه الأوليغروشية القرطاجية إلى تخفيف العبء التيمغرافي في قرطاج بإرسال مواطنين من العامة وتوطينهم بالمناطق التابعة لهم. ولعلنا نلمس من خلال هذه العملية إمكانية وجود حالات استغلال مباشرة للأرض فضلاً عما ذكره أورليوس فيكتور (Aurelius Victor) (القرن الرابع م) من توجّه الجيش القرطاجي إلى توسيع غراسات الزيتون إثر الحرب الثانية ضدّ روما، أي بعد سقوط الإمبراطورية القرطاجية وانحسار المنطقة الترابية لقرطاج في حدود الشمال الشرقي والوسط الشرقي للبلاد التونسية وقد كانت هذه المنطقة تمثّل القاعدة الاقتصادية الرئيسة لقرطاج ومصدر مواردها والتي بها عاين الرومان معالم استغلال زراعي مكثّف.

ملاحم المجتمع القرطاجي

استعرضت المصادر الأدبية - وإن كان ذلك بصفة غير مباشرة - معلومات تهم فئات مختلفة من المجتمع القرطاجي سواء منها الفئات السائدة أو العائلات التي طبعت التاريخ السياسي والعسكري القرطاجي أو العبيد سواء المستخدمين في المجال الحضري بالعاصمة البونية أو المسخرين في العمل الفلاحي بممتلكات القرطاجيين في الوطن القبلي. وتمتدنا نفس المصادر بإشارات أقل أهمية حول الكهنة وموقعهم الاجتماعي. على أننا نمثل بشأن هذه المسألة مصادر مباشرة قيمة وتتمثل في النفاثس البونية ودرجة أقل البونية-الحيثة، وهي تلص على الوظائف أو المهن، وتحيلنا إلى الانتماء الاجتماعي الذي نحاول أيضا تبيّنه اعتمادا على المصادر الأثرية وخاصة المقابر التي يمكن تصنيفها حسب طبيعة الأثاث الجنائزي الذي تحتويه. وإن كانت مجمل المصادر المذكورة تلقى بعض الضوء على النسيج الاجتماعي، فتطّلع الباحث لا يمكن أن يتجاوز محاولة رسم ملاحم المجتمع القرطاجي، خاصة إذا ألترم الحذر في المقاربات المبنية على القياس المنطقي أو المقارنة بين مجتمعات قديمة أخرى ومجتمع قرطاج سواء من حيث تركيبته أو تطوره.

ونتضمن رواية تأسيس قرطاج ما ساعدنا على البحث في الانتماء الأرستقراطي للمؤسسين. فعليسة لها علاقة مباشرة في نفس الوقت بالقصر والمعبد أي السلطة السياسية العليا في صور باعتبارها شقيقة بيقياليون والسلطة الدينية إذ هي زوجة أكرباس. ويتضح تلامس السلطتين في وجود شيوخ وكهنة ضمن المؤسسين. ولنا أن نتساءل عما إذا كانت تركيبة المؤسسين هذه - بغض النظر عن الحقيقة التاريخية للرواية - تؤكد اعتمادا على الأحداث اللاحقة ما إذا كانت قرطاج منذ تأسيسها ذات وزن نوعي ومستقبلي يتجاوز الطابع العادي للمرافق الفينيقية.

تنبئى ل.م. فونتر (L.M Günter) هذا التصور معتبرة أن قرطاج تتفق من وجوه عديدة مع المدن - الدول الإغريقية الكبرى، لا خلال القرن الخامس ق.م. فحسب بل منذ القرنين السابع والسادس ق.م. ويكمن التشابه في قيامها على أرستقراطية تجارية قوية - ذات نخبة سياسية مسيرة - دفعها حركيتها الذاتية إلى التجارة البحرية البعيدة المدى والانخراط في علاقات خارجية مبكرا للدفاع عن مصالحها أو لربط علاقات تحالف. ولفهم هذه الآلية والانطباع السائد حول دور الأرستقراطية التجارية القرطاجية فإننا مدعوون إلى البحث في إمكانات تدعيم وزن المجموعة المؤسسة خلال المرحلة العتيقة من تاريخ قرطاج، ذلك أننا أقرب إلى الاعتقاد بأنها تدعمت بقبول مجموعات جديدة من الفينيقيين، فالحملات الآشورية خلال القرن الثامن ق.م وخاصة في فترة الملك الآشوري تقاتل فاسار، (Tiglathphalasar) (744 - 727 ق.م) فرضت نصيبقات على تجارة صور وصيدا وتحديدا مع مصر وفلسطين. وتضررت تجارة صور وملاحتها خاصة أثناء حكم الملك آشورحون (Asarhaddon) (680-669 ق.م). أما الحملات البابلية فقد اتخذت شكلا عسكريا مدمرا لا سيما أثناء حصار صور في سنوات 574-586 ق.م. وفترة حكم الملك البابلي نبوخذنصر (Nabucodonosor). والملاحظ أن المصادر تذكر صراحة هجرة الصوريين باتجاه قرطاج إثر حملة الإسكندر المقدوني. ورغم استبعادنا لانهيار البحرية الفينيقية أو لمواجهتها لأزمات هيكلية، فإن هدفنا أساسه البحث في تدعيم قرطاج بوافدين جدد خلال المرحلة العتيقة، خصوصا وأن البحث الأثري أكد أهمية امتداد المدينة من خلال القطاعات الأثرية العتيقة علاوة على النقائش الجنائزية التي تذكر الانتماء لصيدا وأرواد ولصور بصفة أهم.

ولعلنا بناء على هذه الملاحظات نفهم الريادة الاجتماعية والسياسية للأرستقراطية القرطاجية، التي تبدو قاسما مشتركا لأهم المصادر الأدبية، حيث يتنازم الانتماء إلى هذه الفئة مع سلطة كبار أعوان الدولة الذين يشغلون وظائف سياسية مدنية وعسكرية أو دينية وهو ما يتضح من خلال النقائش النثرية أو

الجنائزية التي تطوي على سلسلة النسب مبرزة أسماء الأسلاف ووظائفهم. وعلى سبيل المثال ينصّ محتوى نقيشة جنائزية (CIS.5988) على ما يلي: "قبر بت بعل ربّ الكهنة بنت عبد ملقرت الربّ ابن ماجون ابن بدعشثرت السبط ابن ابن بعل السبط ابن عزملك السبط".

تجسّد هذه النقيشة امتدادا لوظيفة سياسيّة عليا "سبط" وأخرى دينيّة "كبير الكهنة" في أجيال مختلفة داخل عائلتين. وهذا مؤشر يدعم الصورة السائدة في المصادر الأدبيّة والتي تختزل التاريخ السياسي القرطاجي في سلطة عائلات أرستقراطية. فالى جانب الوظائف السياسيّة والدينيّة المذكورتين ورد في النقائش البونية قرطاج خطّة أو لقب "ربّ"، وحظيت المسألة بتفسيرات مختلفة منذ القرن التاسع عشر من ذلك مثلا أنها تعني ممثّل مؤسسة سياسيّة عليا أو رئيس مجلس وافترض أيضا أنها مجرد لقب شرفي ويميل س. قزال إلى التساؤل عن "الخبة التي يكفى لقب "رب" لتصنيفها فهل هي فئة الشيوخ؟".

ويرى آخرون أن صفة "رب" تضاف على قدماء الأسباط إلّا أن م. سنيشار بلبّه إلى محدودية هذه الفرضية مبرزا فئتين من "رّيم" (جمع "ربّ"). فقد ذُكر هؤلاء في بعض النقائش الرسميّة أو تعريفات الأضاحي بصيغة تأريخ الحدث إذ توجد إشارة إلى فترة "الرّيم" بصفة موازية "لسنة السبطين" ومن جهة ثانية ورد في النقائش لقب "ربّ" مصاحبا لاسم علم ويعنى في هذه الحالة قائد مجموعة أو مؤسسة مدنيّة كانت أم عسكريّة. وإجمالاً فإنّ البعد الاجتماعي للصيغة المذكورة بمختلف أبعادها والذي ورد أكثر من مائة مرّة في نقائش قرطاج يحيلنا بالضرورة إلى إحدى الشرائح العليا في المجتمع البوني. ومن المفيد التّبييه إلى النقائش التي أثّرت دراسة المجتمع البوني. من ذلك أنّ إ. شيفمان (I. Schiffman) أبرز في دراسته لنقائش سردينيا المحتوى الاجتماعي لمن يعتنون بـ "المتّغار" فهم من الأحرار الذين لا يتمتّعون بالحقوق السياسيّة وامتيازات الأرستقراطية ذات الأصول الفينيقيّة وفي دراسته لنقيشة كاليري (Cagliari) انتبه نفس المؤلّف

إلى الصيغة البونية التي تذكر مبدئياً الطبقة العليا للمجتمع بعبارة "الكبار" (أدرن م).

وكما أشرنا سابقاً، فإن التاريخ الاجتماعي لقرطاج من خلال المصادر الأدبية يبدو تاريخ عائلات أرستقراطية تعاقبت على حكم قرطاج، أو عائلات متنافسة ومُمثلة في الهياكل السياسية العليا للدولة. وقد ظهرت عائلة ماجون وفقاً لرواية يوستينوس منذ أواسط القرن السادس فاحتكرت القيادة العسكرية إلى بداية القرن الرابع ق.م. ويُفترض تركيزها للسلطات السياسية والعسكرية والتدبيرة. فإشياء محكمة المائة والأربعة كان للحدّ من الوزن الاجتماعي السياسي لهذه العائلة وهو ما يعتبره ل. موران (L. Maurin) نتيجة لديناميكية اجتماعية وتغيير القاعدة الاقتصادية للدولة القرطاجية خلال القرن الخامس ق.م. بعد اكتساب مجال زراعي واسع بالمقارنة مع الظهير المحدود للعاصمة البونية أي بعد ظهور أرستقراطية تجارية نوّعت مواردها اعتماداً على تجارة المواد الأولية والمنتجات الحرفية وعائدات المجال الزراعي. وولد الهامش الاقتصادي الجديد قاعدة فاريّة آمنة بالمقارنة مع مخاطر الملاحة والظروف المضطربة للتجارة والأسواق البعيدة ويمكن أن نرجح دور الممتلكات الزراعية في تدعيم استقرار موارد قرطاج. فبعد الصعوبات التي شهدتها العاصمة البونية في صقلية يذكر توكيديداس على لسان سرقوسي أنّه في سنة 415 ق.م. "يتوفّر لدى القرطاجيين من الذهب والفضة ما يكفي لخوض الحرب ولقضاء غير ذلك من المآرب".

كما يذكر بوليبيوس أنّ قرطاج "كانت قبل سقوطها من أغنى مدن العالم المعمور" وهكذا فإنّ أساس التصنيف الاجتماعي يتجاوز بنية المستوطنات القائمة على الحرف والمبادلات. فالعمق القاري لقرطاج يميّزها عن المدينة الأم صوّر في حدّ ذاتها حيث دُعِم مواردها الاقتصادية وأثر في بُنية مجتمعها، لكن هل ارتباط ذلك بآلية اندماج اجتماعي - سياسي في العاصمة البونية؟

إنّنا نميل إلى الإجابة بالنفي فالمواطنة في تعبيرها الاجتماعي تبدو مقتصرة على الأحرار من القرطاجيين رغم أنّنا نفكر لتحديد شروطها مثلما

أبرزنا في الفصل المخصص للمؤسسات السياسية لكن من المرجح أنها بقيت في حدود القرطاجيين ذوي الأصل الفينيقي. ولعلنا لهذا السبب نكاد نقتصر في معرفتنا بالعائلات السائدة في قرطاج - وهي عائلات ذات دور سياسي من المرجح أن يكون في علاقة بوزنها الاقتصادي والاجتماعي - على غرار العائلة الماجونية المذكورة آنفاً وعائلة حنون وحلفائها المعروفة بنزعتها الأوليغارشية والمحافظة. أما العائلة البرقية التي برزت أثناء الحرب الأولى ضد روما ووجهت بعدها سياسة قرطاج فقد عرفت باعتمادها سياسياً على الشعب الذي يمثل بعدها أساساً في المجتمع القرطاجي. ويشمل الشعب فئة الأحرار التي نجدها مبدئياً ممثلة ضمن التجار والحرفيين، لكن أيضاً ضمن المالكين العقاريين في المجال الزراعي، إذا رجحنا البنية المتوسطة للملكيات وتأكيد عالم الزراعة القرطاجي ماجون على نظام الاستغلال أو الإشراف المباشر فإن ذلك يدفع إلى القول بوجود فئة من صغار ومتوسطي المالكين القرطاجيين ويد عاملة حرة في الميدان الفلاحي يذكرها وارو (Varro) باسم (*operarii*). لكن يبقى التساؤل مطروحاً بشأن المنزلة القانونية للوبيين والنوميديين الأحرار والخاضعين لإدارة القرطاجيين والذين كانوا يوفرون للعاصمة البونية إحتياجاتها الرئيسية من الحبوب، فمن غير المستبعد أن تكون قرطاج قد تصرفت تجاههم من منطلق المتحكم في "الملكية السامية للأرض" (*propriété éminente*) وفي ذلك ضمان لتواصل الإنتاج من جهة ولتغير مقدار الضرائب حسب إحتياجات الدولة القرطاجية من جهة أخرى.

ويتمثل منحنى الدراسات المتعلقة بالمجتمع القرطاجي في التأكيد على الوزن الاجتماعي والسياسي لطبقة الأحرار ثم البحث في أهمية فئة العبيد ودورهم الاقتصادي إضافة إلى فئة ثالثة يمكن تسميتها بـ "الأحرار الخاضعين للإدارة القرطاجية" ويسمّون أيضاً "أنصاف الأحرار أو شبه الأحرار" وهم ممثلون بشكل واسع ضمن مختلف شعوب الإمبراطورية البونية. ولعلّ ديديوروس الصقلي (XX, 55, 44) حاول تجسيد وضع الأفارقة في ثورتهم ضد قرطاج في

بداية القرن الرابع ق.م حين أشار إلى أنه كان "يحرّكهم حقد دفين تجاه القرطاجيين بسبب وطأة علاقات الهيمنة" المفروضة عليهم.

تمتدنا مصادر الحرب الثانية بتفسير مماثل لردّ فعل الأهالي الإيبيريين المناهض لقرطاج والداعم للرومان في إسبانيا. لكنّ هذه الأحكام لا يمكن أن تحجب عنا العلاقات الخاصة بين قرطاج ونخب الأهالي. وقد أشرنا إلى أمثلة نهم نخب الأفرقة في الفصل المخصّص للحضور القرطاجي في المجال الإفريقي. كما نلاحظ في سردينيا نوعاً من الملاءمة بين نفوذ قرطاج ومصالح الأرستقراطية المحلية بالجزيرة. أمّا منال إيبيريا فيفصح عن تحالفات عزربعل وحنبل البرقي مع قادة وأرستقراطيات شعوبها التي توجت بعلاقات مصاهرة ومكّنت من التحكّم في قاعدة قاريّة ساعدت قرطاج على تجاوز مصاعبها المالية بعد الحرب الأولى وحرب المرتزقة وفقدان كورسيكا وخاصة سردينيا، ثمّ إنّ الإيبيريين كانوا يمثّلون نواة رئيسية في حملة حنبل على إيطاليا.

أمّا فيما يتعلّق بطبقة العبيد فإنّ ماجون يسهب في التركيز على أهمية اليد العاملة العبودية في المجال الفلاحي ومفائيس اقتناء العبيد وتنظيم عملهم. وتؤكد الروايات التاريخية الأهمية العددية للعبيد في المجال الزراعي القرطاجي في الوطن القبلي، سواء في أواخر القرن الرابع ق.م أو منتصف القرن الثالث ق.م. وتتضح نفس الأهمية العددية في قرطاج منذ أواسط القرن الرابع ق.م على الأقلّ حيث يذكر يوستينوس أنّ حنون الأكبر قام بتجميع وتجنيد عشرين ألفاً من العبيد في محاولة للاستيلاء على السلطة. ورغم التحفظ تجاه هذا التقدير العددي فإنّنا نعرف أهميّة سبل الاستعباد وهي متمثلة في أسرى الحروب والقرصنة إضافة إلى سوق العبيد التي يرتادها القرطاجيون في جزر الباليار حسب رواية تيمابوس الطاورميني. وتذكر النقائش حالات عتق عبيد بقرار من لجنة في صلب مجلس الشعب لها صلوحية النظر في هذه المسائل.

ومن المرجح أيضاً أن يشتري العبد حرّيته كما نجد نقائش لنزيرة لعبيد وتتصيصاً على حق العبيد في الزواج وهو ما يعتبره الكاتب المسرحي اللاتيني

ماركوس بلوتوس (254-184 ق.م) استثناء مثيرا للتعجب في كل من بلاد الإغريق وقرطاج وهو ما يؤكد عالم الزراعة ماجون الذي يفضل عبود الولادة.

دفعت هذه المؤشرات للتساؤل عن الإطار القانوني لعلاقات الإنتاج العبودية في قرطاج، ويعتبر موزس فينلي (M.I.Finley) أن قرطاج أرست أسسا قانونية مختلفة للعلاقات العبودية مقارنة بروما. ويمكن تبين أهمية اليد العاملة العبودية في الوسط الحضري بقرطاج اعتمادا على رواية أبيانوس يذكر فيها العتق الجماعي للعبود وتجنيدهم للتقاع عن المدينة عند بدء الحرب الثالثة ضد روما. والملاحظ أن النقائش النذرية للعبود تنص على اسم العبد وسيده أو نسبته إلى سلف أو أسلاف من العبيد. أما النقائش التي تذكر "العبد" في علاقة بالمعبد فإنها تدل على الأرجح على حالة التفرغ والالتزام بخدمة المعبد، وإذا اعتمد م.ح. فطر هذا التفسير فإنه يترك مجالا لإمكانية وجود عبود على ذمة المعبد أو كملكية له.

وخضعت صورة المجتمع القرطاجي لدى العديد من الباحثين إلى تبسيط مفرط يقوم على ثنائية الأرستقراطية والعامة من الأحرار من جهة ثم الأهالي الخاضعين للإدارة القرطاجية والعبود والأجانب من جهة أخرى إذ يعتبر س.قزال مثلا أن الطبقة الحاكمة في قرطاج مفتوحة لمن يبلغون مستوى من الثروة وإن بقي هذا الطموح محدود التحقق. ولاحظ م.ح.فطر مؤشرا لهذه الديناميكية الاجتماعية من خلال النقائش النذرية أو الجنائزية التي تذكر سلسلة نسب يشغل فيها الناظر أو المتوفى وظيفة سياسية أو دينية عليا لم يتولها أسلافه. ونجد عكس هذه الظاهرة تماما أي أن المعني بالأمر في نقائش أخرى لم يشغل وظيفة عليا، في حين لجدها مثبتة لدى والديه أو أجداده.

وتعتبر النقائش مصدرا مباشرا رئيسيا لضبط الفئات المهنية المتمثلة في قرطاج وتصنيفها.

وبما أننا اعتمدنا نفس المصدر في إبراز الوظائف السياسية المدنية وتحديدًا وظيفة الأسباط فالنقائش تذكر إلى جانب الأسباط وظائف الكهنة وكبار الكهنة وهي عددًا أهم من النصوص النقائشية التي تذكر المهن والوظائف الاقتصادية حسب تصنيف أحمد الفرجاوي الذي أشار إلى توزيع داخلي لها يتميز بأهمية النقائش التي تذكر التجار بمفهوم التجار الصغار أو تجار التفصيل المحليين (م ك ر) مثل تجار المعادن و العطورات والذهب والقماش أو بمفهوم التجار الكبار أو الذين يتعاطون التصدير والتوريد (ش خ ر) وهي فئة هامة في مدينة تستقطب حركة التجارة المتوسطية.

أمّا المهن المحددة لهذه الحركة التجارية فتعبر عنها النقائش بصيغة عامّة تتمثل في عبارات "الحرفي" (خ ر ش) أو "القائم أو المشرف على الحرفيين" (ف ع ل . خ ر ش) كما نلاحظ تصنيفًا واضحًا على بعض الاختصاصات مثل مهنة السباك - (ن س ك) وتحديدًا لمادة السبك أو الصهر: سبك الحديد (ن س ك. هـ د ر ز ل) أو البرنز (ن س ك. هـ ن خ ش ت) أو الذهب (ن س ك. هـ ن ر س) ويمكن ضبط صفة الحرفي أو الصانع (ف ع ل) لأنّ العبارة مصحوبة بنعت وظيفي: مثل الصانع (ف ع ل. خ ر ش)، ومن الحرف المذكورة نجد الحرف المرتبطة بالخشب وهي تحليلنا على قطاع رئيسي وهو صناعة السفن لكنّها مذكورة في حدود وظيفية نجار (ن ج ر) أو صانع العربات وذكرت أيضًا مهن النسيج والبناء بملول البناء والمهندس المعماري والمختص في الزينة وصنع الرخام و القيس وتضمّنت "النقائشة المعمارية" بقرطاج أعدادًا قائمة حرفيين وهم النقالون والصاغة والفخاريون والمشرفون على الأفران إلى جانب التجار وقد ساهموا جميعًا في أشغال نهضة شارع جديد خلال القرن الثالث ق.م.

ومن الفئات المهنية أيضًا الكتبة بصيغة (ش ف ر) التي تعني الكاتب أو النّاسخ ثم (ربّ ش ف ر م) أي رئيس الكتبة مما يفترض اعتبارهم فئة كتبة على نمة الدولة أو الإدارة. وورد في نقائش سيرتا (Cirta) (قسنطينة) ذكر

(م ش طر) ويرى م. سنيسار أن جذر (ش طر) ذي الأصول الأكاديمية (ش طر) ومعناها كتب وهو نفس المدلول في العبرية التوراتية لذا فالأقرب للظن أن الصيغة المذكورة تدلّ على موظف عسكري أو مدني كما أن الصيغة المركبة (رب م ش طر ت) يعني وظيفة إدارية عسكرية. وفي نفس السياق يمكن الإشارة إلى النقيشة التي تذكر كاتباً سلفه معتوق. ونرى بعض الدراسات أن المعابد والكهنة ساهموا في إشاعة الكتابة لكن الحركية الفكرية في قرطاج ومتطلبات الإدارة القرطاجية ساهمت بدون شك في نشأة حركة تعليمية تتجاوز المؤسسة الدينية.

وقد أشرنا في بداية هذا الفصل إلى انفتاح قرطاج على هجرات الفينيقيين من القرن الثامن إلى حملة الاسكندر المقدوني على صور. وقد أدت هذه الحملة إلى هجرة مثبتة في المصادر الأدبية. وبديهي أن تكون قرطاج العاصمة البونية المفتحة على التجارة المتوسطية وعلى عمقها القاري الإفريقي جاذبة لعناصر أجنبية ومهيأة لإمماجها. وقد أشرنا إلى أن الأهالي الأفارقة أرسوا علاقات تبادل مبكرة مع القرطاجيين يؤكدّها الخزف المقولب المحلي الذي عثر عليه بكميات هامة في مستويات السكن العتيق المؤرخ بالقرن الثامن ق.م. ولحتوت بعض قبور القرن السابع ق.م على هياكل عظيمة مطلية بأحمر المغرة وهو تقليد جنائزي محلي تماماً. وقد تبنّى الأهالي التقاليد الجنائزية الفينيقية وهو ما يفسّر حضور الأسماء اللوبية لبعض الحرفيين أو التجار في قرطاج. ولعلّ مجمل هذه المؤشرات تفسّر مشاركتهم المبكرة في عمليات التوسع القرطاجي كعناصر فاعلة منذ القرن الخامس ق.م على الأقل. ولا يعني ذلك حصول عملية إمماج شاملة للأهالي فغرضنا مجرد إثبات وجودهم في صلب النسيج الاجتماعي للعاصمة البونية.

ومن الأجانب الشرقيين في قرطاج تذكر النقائش أسماء مصرية على غرار "عبد رع" و"عبد أوزيريس" أو اسم مصري ومصرية (مصري) ابن بعل ملك (ابن بُد شمون). ورغم أهمية التأثير المصري في الميدان الفني والحرفي فإن

التواهد المذكورة لا تسمح لنا بمراجعة أصول هذه العائلات ونسبها خلافا لما هو الشأن بالنسبة إلى الإغريق. وقد أشرنا في الفصل المتعلق بالمصادر الأدبية إلى أهمية نشاطهم التعليمي بقرطاج. ومن أبرز الأمثلة على ذلك المعلمون الإغريق الأربعة بالمدرسة الفيثاغورية الذين ذكرهم إمبيليخوس. وتدفعنا رواية يوستينوس إلى مزيد التساؤل حول درجة التأثير الإغريقي في قرطاج. ذكر المؤلف عند استعراضه لأحداث سنة 368 ق.م وعودة الحرب بين قرطاج وسرقوسة إسناد قيادة الجيش لحَنُون الأول الأكبر، لما عمد خصمه أشمون يعطا (سنياتوس - Suniatus في المصدر اللاتيني المذكور) إلى توجيه رسالة كتبت بالإغريقية لديونيزوس الأكبر يعلمه فيها بمخطط الحرب فوقعت الرسالة بأيدي السلطات القرطاجية التي أدانت الخائن وأصدرت "قانونا يمنع القرطاجيين من تعلّم اللّغة والآداب الإغريقية حتى لا يقدر أيّ كان على مخاطبة العدو أو مراسلته". وسواء سلمنا بصحّة الرواية أو افترضنا افتعال حَنُون الأكبر الأمر لإقصاء خصومه فإنّ هذه الرواية تدعم فرضيّة الإلمام باللّغة الإغريقية في أوساط النّخبة السّياسيّة على الأقل. ويمكن تفسير هذه الظّاهرة بالعلاقات بين البونيين وإغريق صقلية دون أن نستبعد أهميّة الجالية الإغريقيّة في قرطاج. ولجد في مستوى ثان أبناء الزيجات المختلطة الإغريقية القرطاجية ويمكن معاينة الظاهرة في الاتجاهين منذ فترة مبكرة فأمّ عبد ملقرت الماجوني قائد الجيش القرطاجي سنة 480 ق.م إغريقية من سرقوسة كما غادر نفس المدينة نحو قرطاج (بعد 289 ق.م) أحد خصوم أبناء آغاتوكلاس وتزوَّج من قرطاجيّة وأصبح حفيده هيبوقراطس (Hippocrate) وإيكودس (Epicyle) من أبرز مساعدي حنبعل البرقي الذي كلّفهما سنة 215 ق.م. بعقد التّحالف بين قرطاج وسرقوسة.

ويذكر ديودوروس الصّقلي (XIV, 77) تبنى عبادة الإلهة ديمّير وابنتها كُوري (Demeter et Korè) في قرطاج سنة 396 ق.م وتكليف كهنة إغريق بالإشراف على الطقوس الدينية ورعاية المعبد.

وتتلنا النقائش على وجود حرفيين ذوي أصول إغريقية بقرطاج أبرزهم بويثوس القرطاجي (Boethos fils d'Apollodoros Carchedonios) الذي اقتص في إنتاج التماثيل والتحف البرنزية.

وأبرز ج.ش.بيكار معالم العلاقات بين الأترسكيين وقرطاج اعتمادا على بعض النقائش والمعطيات الأثرية، لا سيما وأن إطار الروابط التحالف بين الطرفين منذ الثلث الأخير للقرن السادس ق.م يرجح الحضور المبكر لمتلّي المدن الأترسكية بقرطاج. وقد امتدت هذه العلاقة إلى روما وهي مثبتة في تنظيم حضور التجار الرومان في قرطاج والمناطق الخاضعة لها وفقا لمعاهدتي 509 و348 ق.م. وتبرز المصادر الأدبية تواصل نشاطهم التجاري في الموانئ البونية جنوب المتوسط خلال أكثر الفترات اضطرابا مثل حرب المرتزقة أو قبيل الحرب الثالثة.

مصادر الفصل السابع ومراجعته

حول المبادلات يمكن العودة إلى :

- BISI (A.M), « Importazioni e imitazione greco-geometriche nella piu antica ceramica fenicia d'Occidente », in, *Atti del I Congresso di Studi Fenici e Punici*. Roma (1983), pp. 693-717.
- BONDI (S.F), « I Fenici in Occidente », in, *forme di contatto e processi di trasformazione nelle società antiche. Atti del Congresso di Cortona 1981*. Pisa - Roma (1983), pp. 379-407.
- BOUCHER – COLIZIER (E), « céramique d'importation au Musée Lavignerie de Carthage », in, *Cahiers de Byrsa, III*, (1953), pp. 11-38.
- « Les Etrusques à Carthage », in, *Mélanges de l'Ecole Française de Rome*, 65 (1953), pp. 63-98.
- CHELBI (F), « Les vases à vernis noir des nécropoles carthaginoises de la fin du Vème siècle à la fin de la deuxième guerre punique », in, *CEDAC, Dossier I. Actes du Colloque sur la céramique antique* (1982), pp. 23-41.
- CHELBI (F), *La céramique à vernis noir de Carthage*. Tunis, 1992.
- CARLOS GOMEZ BELLARD, « L'île d'Ibiza dans le commerce en Méditerranée occidentale à l'époque archaïque: Quelques données nouvelles », in, *Studia Phoenicia, IX*, (1992), pp. 299-311.
- FERRON (J), « Les relations de Carthage avec l'Etrurie », in, *Latomus*, 25, (1966), pp. 689-709.
- GRAS (M), « Les importations du VIème siècle av.J.C à Tharros (Sardaigne) », in, *Mélanges de l'Ecole Française de Rome*, 86; (1974), pp. 78-139.
- *Traffics Tyrrhéniens archaïques*, Rome, (1985).

- «La Méditerranée occidentale, milieu d'échanges: Un regard histiographique», in, *Les Grecs et l'Occident Actes du Colloque de la Villa "Kerylos" 1991*. Paris, (1995), pp. 109-123.
- GSELL (S), *HAAAN*. Tome IV pp. 1-169.
- LANCEL (S), «La céramique phénico-punique de la nécropole archaïque de Byrsa», in, *Actes du Colloque sur la céramique antique Carthage. CEDAC Dossier I*, (1982), pp. 1-7.
- MAC INTOSH TURFA (J), «evidence for Etruscan-Punic relation», in, *American Journal of Archaeology*, 81, (1977), pp 369-374.
- MOREL (J.P), «Notes sur la céramique étrusco-campanienne - Vases à vernis noir de Sardaigne et d'Arezzo», in, *Mélanges de l'Ecole Française de Rome, LXXV,1* (1963) pp. 7-58.
- «La céramique à vernis noir et à figures rouges d'Afrique avant la deuxième guerre punique et le problème des importations de Grande - Grèce», in, *Antiquités Africaines*, 15, (1980), pp. 29-90.
- «La céramique à vernis noir de Carthage-Byrsa: nouvelles données et éléments de comparaison», in, *Actes du Colloque sur la céramique antique CEDAC, Dossier I* (1982), pp. 43-76.
- «Les importations de céramiques grecques et italiennes dans le monde punique (Vème - Ier siècle) », in, *Atti del 'I Congresso internazionale di Studi Fenici e Punici, Vol III*, Rome (1983), pp. 731-740.
- «La céramique à vernis noir de Carthage, sa diffusion, son influence», in, *Cahiers des Etudes Anciennes, XVIII*, (1986), pp. 25-68.
- «Etudes de la céramique campanienne. L'atelier des petites estampilles», in, *Mélanges de l'Ecole Française de Rome*, 81, (1969), pp. 59-117.
- «La Sicile dans les courants commerciaux de la Méditerranée sud-occidentale d'après la céramique à vernis noir», in, *Miscellanea in onore di Engenio Manni . Rome* (1979), pp. 1563-1582.

- «Nouvelles données sur le commerce de Carthage punique entre le VIIème siècle et le IIème siècle av.J.C», in, *Actes du IVème colloque international sur l'Histoire et l'Archeologie de l'Afrique du Nord Strasbourg 1988*, Paris (1990), pp. 67-100.
- «Carthage, Marseille, Athènes, Alexandrie (note sur le commerce de Carthage avec quelques métropoles méditerranéennes», in, *Actes du IIIème Congrès international des Etudes Phéniciennes et Puniques* Tunis (1995), pp 264-281.
- MOSCATI (S), «Rapporti tra Greci, Fenici, Etruschi ed altre popolazioni italiche alle luce delle nuove scoperte», in, *Quaderni dell'Accademia Nazionale dei lincei*, 87, (1966) pp.1-9.
- «La Sicilia fra l'Africa fenicio-punica e il Tirreno», in, *Kokalos*, 26-27 (1980-1981), pp. 80-98.
- «Dall' Egitto alla Sardegna il personaggio con "ankh"», in, *Rendiconti dell' Accademia Nazionale dei Lincei, ser VIII*, 36, (1981), pp 193-196.
- «Dall'Egitto a Cartagine», in, *studi in onore di Edda Bresciani* (1985), pp. 355-361.
- PALLOTINO (M), «Les relations entre les Etrusques et Carthage du VIIè au IIè s.av.J.C. Nouvelles données et essai de périodisation», in, *Cahiers de Tunisie*, 11, (1963), pp. 22-28.
- «La Sicilia e gli Etruschi», in, *Kokalos*, 14-15 (1968-1969), pp. 339-343.
- «La Sicilia fra l'Africa e l'Etruria. Problemi storici e culturali», in, *Kokalos*, 18-19 (1972-1973), pp. 48-70
- PICARD (C), «Notes de chronologie punique. Le problème du Vème siècle», in, *Karthago*, XII, (1963-1964), pp. 17-27.

(إستنتاجات هذا العمل تمّ تجاوزها)

- RAMON (J), *Ibiza y la cirulacion de anforas fenicias y punicas en el Mediterraneo occidental*

Trabajos Del Museo Arqueologicos de Ibiza, 1981.

- TSIRKIN (B), «The economy of Carthage», in, *Studia Phoenicia VI*, (1987), pp. 125-135.
- TUSA-CUTRONI (A.), «La presenza del bucchero a Selinunte: suo significato», in, *Kokalos, XII*, (1966), pp 240-248.
- VERCOUTTER (J), *Les objets égyptiens et égyptisants du mobilier funéraire carthaginois* Paris, 1945.

حول العملة ننصح بالعودة إلى :

ACQUARO (E), «coins», in, *The Phonicians, (Milan)* (1988), pp. 464 et suiv.

- JENKINS (J.L), «Coins of Punic Sicily», in, *Revue Suisse de Numismatique*
 - + Part I, vol. 50 (1971), pp. 25-78
 - + Part II, vol 53 (1974), pp. 23-41
 - + Part III, vol. 56 (1977), pp. 5-65
 - + Part IV, vol. 57 (1978), pp 5-68.
- JENKINS (G L), LEWIS (R.B), *Carthaginian gold and electrum coins*, Londres, 1963.
- MANFREDI (L.I), «Monete puniche. Repertio epigrafico e numismatico delle leggende puniche», in, *Bollettino di Numismatica, Monografia 6 Rep.* 1995.
- «Ripostigli di monete puniche a Siracusa», in, *Bollettino di Numismatica. Monografia 6.1*, (1989), pp. 61-64.
- NICOLET (H), «Les monnaies puniques», in, (*exp. de Carthage à Kairouan*) pp. 87-95.
- RAHMOUNI (L), *Recherches sur le monnayage punique.. Essai de synthèse*, (Thèse dact) préparée sous la direction de M. LEGLAY Paris- Sorbonne, 1986.

- TUSA-CUTRONI (A), «monetazione e circolazione», in, *Nozia III Rappreli della Miss della Sicilia Occi e dell' Uni di Roma*. (1967), pp. 97-121.
- VISONÀ (P), «Numismatique - Occident», in, *La civilisation phénicienne et punique - Manuel de recherche ouvrage collectif sous la direction de Krings (V)*, Leiden - New - York 1995, pp. 166-181.

حول الفلاحة القرطاجية انظر مثلا :

- *Les Argonomes latins: Caton, Varron, Columelle, Palladius*. - Texte et traduction - S/D de DE M. NISARD. Paris: Firmin - Didot. s.d.
- CAMPS – FABRER (H), *l'oliver et l'huile dans l'Afrique romaine*, Alger, 1975.
- CECCHINI (S), *Problèmes et aspects de l'agriculture Carthaginoise, dans B.C.T.H*, 1985, pp. 107-117.
- FANTAR (M.H), *Kerkouane: Cité punique du Cap Bon. T III*, Tunis, 1986.
- *Carthage: Approche d'une civilisation*, Tunis, 1993 T1 Chap VI.
- FEVRIER (J.G), *Remarques sur le grand tarif sacrificiel de Marseille. Dans Cahiers de Byrsa VIII*, (1958-1959), pp. 35-43
- GSELL (S), *H.A.A.N. T II*.
- GUYOT (L), *Histoire des plantes cultivées*. Paris, 1963.
- HEURGON (J), «L'agronome carthaginois Magon et ses traducteurs grecs et latins», in, *CRAI*, 3e trim. (1976), pp. 441-456.
- IBN AL AWWAM, *Le Livre de l'agriculture traduit de l'arabe par Clement MALLET*, Tunis, 1977.
- ابن العوام (أبو زكرياء يحيى الاشيلي) - كتاب الفلاحة (مع ترجمة إلى الإسبانية) - مدريد 1802.
- MARTIN (R), *Recherches sur les agronomes latins et leurs conceptions économiques et sociales*, Paris: Les Belles Lettres, 1971.

- PICARD (G-Ch) et (C), *la vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal* IIIe S. av. J.C. Paris, 1982.
- SAVOY (E), *L'agriculture à travers les âges: Histoire des faits, des institutions, de la pensée et des doctrines économiques et sociales*. Paris, 1937, T. I et II.
- SPERENZA (F), *Scriptorum Romanorum de Fe Rustica reliquie Collegit recensuit*, Messina, 1977.
- SZNYCER (M), «Le problème de la Mégara de Carthage», in, *B.C.T.H* (1985) pp. 123-135.
- TIXERONT (J), *Réflexions sur l'implantation ancienne de l'agriculture en Tunisie, Karthago - X*, (1959), pp. 39-58.
- XELLA (P), *Quelques aspects du rapport économie - religion d'après les tarifs sacrificiels puniques. Dans B.C.T.H. Fasc. 19 b*, (1983), p. 39-45.

حول المجتمع انظر مثلاً :

- DUPONT-SOMMER (A), "Une nouvelle inscription punique de Carthage", in, *CRAI*, (1968), pp. 116-133
- FANTAR (M.H), *Carthage : Approche d'une civilisation (Chap.VI: La société carthaginoise)*, Tunis. Alif, 1993
- FERJAOUI (A), "Apropos des inscriptions mentionnant les sufètes et les rabs dans la généalogie des dédicants à Carthage", in, *Actes du congrès des études phéniciennes et puniques, II*, Tunis, (1991), pp. 479-483
- "Fonctions et métiers de la Carthage punique à travers les inscriptions", in, *REPPAL, VI*, (1991), pp. 71-86.
- GSELL (S), *H.A.A.N* T II et IV.
- GUNTER (L.M), "L'aristocratie des grands négociants à Carthage et sa politique d'outre-mer aux VI^e et V^e siècles avant J.C", in, *Actes du Congrès des études phéniciennes et puniques I*. Tunis, (1995), pp. 128-131.

- LANCEL (S), *Carthage*. Paris, Fayard, 1992.
- MAHJOUBI (A), FANTAR (M.H), "Une nouvelle inscription carthaginoise", in, *Rendiconti della Accademia Nazionale dei Lincei*, 21, fasc 7-12, (1966), pp. 201-210.
- MOSCATI (S), *I Fenici e Cartagine*. Turin, 1972.
- PICARD (G-Ch), et COLETTE. *La vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal (III^e avant J.C)* 2^e éd. Paris, 1982.
- SZNYCER (M), *Les noms de métiers et de fonctions chez les phéniciens de Kitlon d'après les témoignages épigraphiques*, Chypre - La vie quotidienne de l'Antiquité à nos jours. Paris, 1985, p. 78-86.

الفصل الثامن

الديانة القرطاجية

استأثرت الديانة الفينيقية - البونية منذ أمد بعيد باهتمام الدارسين غير أن طبيعة المصادر المعتمدة لهذا الغرض وامتدادها على حيز زمني وجغرافي متسع عَقَدَ تناول هذا الجانب من تاريخ هذه الحضارة. ونشير في ما يلي باقتضاب إلى أهم ما طرحه هذه المصادر من إشكاليات.

المصادر النقائشية

تعتبر النصوص النقائشية مصدر معلومات لا يمكن للمهتم تجاهله بحكم طابعها المباشر وتشير النقائش البونية - بالرغم من طابعها الرتيب - إلى مجموعة هامة من أسماء الآلهة وقد توفّر أحيانا إضافات قيّمة تتعلّق بالحياة الدينية (نفقات المعابد، الخطط الدينية،...).

المصادر الأثرية

يجدر التأكيد في البداية على ندرة الرسوم التي يمكن نسبها إلى آلهة قرطاج بصورة مؤكدة وذلك على نقيض الرسوم المجردة التي يواجه المختصّون حتى يومنا الحاضر صعوبات في فهم دلالاتها وهو ما يستوجب حذرا كبيرا في استعمالها بحكم غياب نصوص ميثولوجية قرطاجية من شأنها أن تساعد في هذا الاتجاه. ونذكر من بين الرسوم التي ذاع استعمالها على الأنصاب، الأكراس، الهلال، الدوائر، الرمز المنسوب اصطلاحا إلى الإلهة تانيت وغيرها.

المصادر الأجنبية

بسبب فقر المادة المصدّرية المباشرة يلجأ المؤرخون غالبا إلى اعتماد مصادر أجنبية عن هذه الحضارة وبديهي أن تمتدّ هذه المصادر كما أشرنا إلى ذلك آنفا على حيز زمني وجغرافي واسع جدا.

لا يمكن للدارس إهمال وثائق تتعلّق أصلاً بديانة فينيقي الشرق بحكم أننا نعلم أن لا مجال لفهم ديانة القرطاجيين دون العودة إلى المهد الشرقي الذي نشأت فيه.

في هذا الإطار يتنزل اعتماد الباحثين على:

- للتوراة: تحوي التوراة مادة هامة تتعلّق بعبادة "الكنعانيين" نذكر من بينها على سبيل المثال الإشارات المتعلقة بالقرابين البشرية والبغاء المقدّس... غير أن استثمار هذه الإشارات ظلّ محدود النتائج بسبب طغيان النزعة الذاتية لدى معظم الباحثين باعتبار أنّهم تناولوها بالدرس من منظور الصراع القائم بين ديانة سماوية (ديانة بني إسرائيل) وطقوس "بربرية" متوحشة" دأب الكنعانيون على اتباعها.

- للنصوص الأكادية والمصرية: سمحت هذه النصوص بدورها باستقراء بعض المعلومات المرتبطة بالجانب الديني في جبيل. وأبرز مثال على ذلك رواية "وان أمون" التي ترقى إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد ونص المعاهدة المبرمة بين اشردون وملك صور والتي يشير إلى أسماء الآلهة الآشورية والفينيقية التي تسهر على احترام الجانبين لما ورد في نص المعاهدة.

- النصوص - الإغريقية - الرومانية: يقدم للكتاب الإغريق والرومان معلومات هامة تتعلّق بالآلهة والطقوس الفينيقية - البونية ونذكر من ببن هؤلاء هيرودوت وديودوروس الصقلي وبلوتارخوس وسترابو وبوليبيوس وفلافيوس جوزاف وثيوتوس - لويوس وبلينيوس الأكبر ويوسينيوس... ويتطلب استعمال ما ورد على ألسنة الكتاب الإغريق والرومان حذراً فائقاً ذلك أننا نجد أنفسنا أمام إشكال دقيق بسبب لجوء هؤلاء إلى مماثلة (Identification) الآلهة للفينيقية - البونية بآلهة إغريقية ورومانية. وكما أحكم بيان ذلك م.سنيسر فإنه بداية من تاريخ ما يختلف باختلاف المناطق شرع الكتاب الكلاسيكيون في البحث عن أوجه التقارب والشبه بين الآلهة الفينيقية - البونية والآلهة الإغريقية الرومانية ثم

المماثلة بينها ممّا وُلد في مرحلة لاحقة خلطا كبيرا ولعلّه يجب أن بطل حاضرا في الأدهان أن هذا التوجه لم يكن موحدًا وأنه كان في اتجاه واحد لذلك تختلف المماثلة حسب الزمان والمكان.

إجمالاً وبالرغم من تنوعها يتطلّب استعمال المصادر التي بحوزة المدارس حذراً معرفياً كبيراً يجنب الإقدام على تقديم فرضيات مجازفة، وستقتصر جهودنا على امتداد هذا الفصل على محاولة مدّ القارئ برؤية مبسّطة حول ما أمكن التوصل إليه في دراسة هذا الجانب من حضارة قرطاج مركزين بالدرجة الأولى على أشهر الآلهة.

بعل حمون

يعتبر أحد أشهر آلهة قرطاج ولقد ورد ذكره في النصوص النفاثية المكتشفة سواء داخل العاصمة البونية أو خارجها آلاف المرات. وتنبغي الإشارة إلى أن النصوص للذريّة الفرطاجية العتيقة اقتضرت على ذكر اسم هذا الإله بمفرده ثم وانطلاقاً من القرن الخامس، على الأرجح، ورد اسمه مسبوقاً باسم الإلهة تانيت.

تجمع كلّ الدراسات على القول أن بعل حمون احتل مكانة متميزة ضمن آلهة قرطاج. ولقد تواصلت عبادة هذا الإله حتى تاريخ متأخر جداً. وبالرغم من سعة انتشاره نظل حوالب متعلّقة ببعل حمون غامضة وموضوع جدل بين المؤرخين حيث تتضارب الآراء حول جنور هذا الإله وطبيعته. وللتبسيط سنعرض على القارئ أشهر الفرضيات المقّمة في إطار دراسة هذه النقطة. ولمزيد الإيضاح نشير إلى أن التباين بين أصحاب هذه الفرضيات مرده اختلافهم في فهم الجزء الثاني من اسم هذا الإله أي حمون.

* يعتقد البعض أن اله قرطاج بعل حمون يوافق بعل (=سيد) جبل الأمانوس. وهي فرضية قمتها لأول مرة ج. هالييفي (J. Halevy) منذ سنة

1883 وقد أعطى اكتشاف نقشة الملك كيلاموا (Kilamua) التي تذكر بعـل حمون في زيجرلى (توجد شرق جبل الامانوس جنوب شرق تركيا) دفعا كبيرا لهذه الفرضية التي حازت ثقة عدد من المختصين مثل م.ج. لافرانج (M.Lagrange) وم. ليدبرسكي (M.Lidzbarski). وإ. لينسكي (E. Lipinski) * خلافا لذلك يرى البعض الآخر أن بعـل حمون يعنى سيد مذبح البخور.

ذلك أن "حمن" تعني حسب هؤلاء المبخرة أو مذبح البخور وقد تعني أيضا الدعامات المقدسة التي اعتبروها إحدى السمات المميزة لعبادة بعـل حمون. وهي ترتبط بالجذور الكنعانية البعيدة. وللايضاح نذكر ان لفظة "حمن" (في الجمع) وردت في التوراة وترتبط بالجذر حمن (= الساخن - الحار) ويتبني هذه النظرية اتباع كثر مثل ف.ك. موفارز (F. Moovers) و.ر. ديسو (R. Dussaud) وأديبون - سومار (A. Dupont-Sommer) وف. ألبرايت (F. Albright) وغيرهم.

* فرضية أخرى قارب صاحبها ف. لونورمان (F. Lenormant) بين بعـل حمون إله قرطاج وزوس - أمون إله طيبة (Thèbes) الذي كان يعبد في واحدة سيوا.

* فرضية رابعة قدمها الباحث م.ح. فنطر تعتمد الربط بين لفظة حمن والجذر حمى - يحمي وقد اعتمد الكاتب على نقشتين تحمل الأولى رقم CIS,I,405 والثانية CIS,I,406 وتحوي النقيشتان عبارة لحمن التي اقترح فهمها في اتجاه لحامينا (النون هي ضمير المتكلم الجمع).

* خصص الباحث الإيطالي ب. كسلا (P. Xella) دراسة مستفيضة لبـعل حمون تناول فيها مختلف الفرضيات المقامة غير أنه قام بنفيها جميعا مدافعا عن فكرة أن تكون بعـل حمون تعني إله المعبد وهي فرضية سبقه إليها آخرون.

يصعب تقديم أجوبة نهائية حول طبيعة هذه الإله القرطاجي. ولكن يمكن وباستخدام مختلف المصادر الكلاسيكية أن نلاحظ أن الكتاب اللاتينيين ماثلوا بعـل

حمون بالإلهين كرونوس وساترنوس وتدعم التقى النقائشية والأثرية هذه لفكرة وهو ما دفع بمعظم الدارسين إلى اعتباره إله للفلاحة والخصوبة والضامن لسترء المدينة. وهي محاور تجد دعماً لا يستهان به إذا قبلنا بمبدأ نسبة بعض الرموز التي نجدها على العملات ولقد عنيأ أولاً سنابل القمح التي نلاحظها بيد الإله المجسم على بعض المسكوكات المتأخرة زمنياً والمكتشفة في هيرمتوم خاصة.

ونمكن لقي عديدة عثر عليها في كل من قرطاج وهرمتوم ولوتيكا وثينسوت (قرب بئر بورقبة) وسيرتا بتحسس الصورة التي كان يحملها القرطاجيون عن هذا الإله. وقد مثلت معظم هذه الوثائق بعل حمون على شكل رجل كثر اللحية جالس على العرش في وضع مهيب يرفع أحياناً يده لمباركة المتعبدين. (انظر اللوحة رقم 1)

باعتدال الإسامة نلاحظ أن "حمون" على نقيض "بعل" لا يدخل في تركيبة أي اسم قرطاجي. لكن لا يمكن الجزم بأن مفردة "بعل" ترتبط بالتأكيد ببعل حمون ومن بين أكثر الأسماء تداولاً يمكن أن نشير إلى بعل يتون، بعل ملك، بعل عور، بعل شلك، عبد بعل، عز بعل.

ثاني

تعتبر الإلهة ثانيت إحدى أكثر آلهة قرطاج شهرة. وكنا أشرنا إلى بروزها منذ القرن الخامس قبل الميلاد محتلة المرتبة الأولى في النصوص النثرية البونية. وقد أثارت هذه الظاهرة جدلاً بين المؤرخين أحسن أخرجواي اختصاره في مجموعة اتجاهات رئيسية أهمها.

- اعتبر بعض الدارسين ظهور ثانيت انعكاساً لإصلاحات سياسية ودينية حصلت بقرطاج خلال القرن الخامس ودليلاً على تراجع مكانة بعل حمون والذي يرتبط بدوره بتراجع العائلة الماغونية التي كان هذا الإله يسهر على رعايتها. غير أنه لم يتمكن من تجنبها الهزائم التي تكبدتها وخاصة في واقعة همراس سنة 480 ق.م.



بعل حمون تينيسوت



بعل حمون (توفات سوسة)

- افترض ج.قاربيني (G.Garbini) من جهته أن تكون تانيت إلهة أصيلة صيدا بلغت قرطاج إبان الغزو الفارسي في الوقت الذي كانت فيه. هدم المدينة (صيدا) تحتل المنزلة الأولى أمام بقية مدن الساحل الفينيقي. ومن هذا المنطلق يعتبر الباحث الإيطالي تبني القرطاجيين لعبادة تانيت انعكاسا للعلاقات الوثيقة التي جمعت قرطاج بصيدا وتكديلا على حدوث إصلاح ديني يستمد جذوره من التحولات الاقتصادية والسياسية التي شهدتها العاصمة البونية إثر هزيمة هيمراس.

سعى أفرجايوي إلى تنفيذ هذا الرأي منكرًا بأن قرطاج اعتبرت دوماً - بشهادة مصادرها الاغريقية - الرومانية صور مدينتها الأم فحافظت بالتالي على صلات دينية متينة بها وقد بين نفس الباحث أن مكانة صور الاقتصادية والعسكرية لم تعرف تراجعاً كما ذهب في اعتقاد ج.قاربيني.

بالإضافة إلى ذلك وفي إطار تناولنا لدلالات بروز تانيت ومكانتها مقارنة ببعل حمون لابد من الإشارة إلى أن هذه الإلهة ظلت دائماً وبالرغم من ورود اسمها في المرتبة الأولى تسمى تانيت "وجه بعل" لذلك لا يستبعد أن يكون الهدف من وراء إدخال عبادتها تعزيز عبادة الإله بعل حمون مهما كان التأويل المعتمد لتفسير هذه العبارة خاصة وإن عبارة "وجه بعل" تدفعنا للقبول بوجود نوع من التبعية.

ينعم الإجماع حول جذور تانيت غير أن معظم الدراسات تقبل دون تشكيك بفكرة وجود عبادة هذه الإلهة في الشرق قبل قرطاج. وقد قُتِمت النقوشة المكتشفة في ساربنا (Sarepta) (15 كلم جنوب صيدا) سنة 1974 دليلاً قوياً على ذلك. وهي ترجع إلى أواسط القرن السادس قبل الميلاد يضاف إلى ذلك وجود مواقع كثيرة في لبنان تعكس على ما نرجح وجود هذه العبادة كعين تانيت وكفرتانيت. ونذكر أخيراً إلى الدعم الذي قُتِمت النقوشة البونية التي تشير إلى تانيت بلبنان.

تبدو تانيت من خلال النصوص النثرية بمظهر الإلهة المرتبطة بإلهة أخرى هي عشتريت كما هو الحال في ساربتا وكذلك في مالطة وفي قرطاج. وقد ماثلتها المصادر الكلاسيكية بالآلهة الإغريقية هيرا والإلهة الرومانية يونوكايلستيس. (Iuno Caelestis)

من جهة أخرى ارتبطت تانيت في أذهان المهتمين بالرمز المنسوب إليها اصطلاحاً وهو عبارة عن مثلث (أحياناً شبه منحرف) تعلوه دائرة ويفصل بين الشكلين الهندسيين خط أفقي. ويعطي الرمز في جملته صورة امرأة ممثلة بطريقة مبسطة جداً. (انظر اللوحة رقم 2) غير أنه من الصعب اليوم الجزم بوجود علاقة حقيقية بين الإلهة والرمز المشار إليه مما جعل عديد الباحثين يبدون تحفظات جنية تجاه هذه المسألة خاصة وأن الحفريات أثبتت حضور الرمز على أنواع شتى من اللقى الأثرية كالتماثيل ولتائم وبعض المعالم الجنائزية وللوحات الفسيفسائية كما هو الحال في كركوان وبعض الدور المكتشفة على أكربوليس سيلينونت في صقلية.

إجمالاً تبدو تانيت بمظهر الإلهة الأم "والساهرة على تواصل النسل". غير أن عبادتها وعبادة بعل حنون كثيراً ما ارتبطت في الأذهان بما اصطلاح على تسميته "بالقرايين البشرية" نظراً إلى أن النصوص النثرية المكتشفة في معبد "التوفات" حيث كانت تجرى هذه الطقوس؟ (القصة موقع جبل كبير اليوم) مهداة إلى هذين الإلهين وهو ما سنسعى إلى تسليط الأضواء عليه الآن.

مسألة تقديم القرايين البشرية

درج الدارسون ولفترة طويلة على اعتبار معبد التوفات فضاء مقدساً حيث كان القرطاجيون يقتسمون قرايينهم البشرية من الأطفال إلى الإلهة تانيت والإله بعل حمون. وقبل الخوض في هذه الإشكالية على ضوء التطور الحاصل في مسار الدراسات البونية يستحسن التذكير بأن تسمية توفات مأخوذة أصلاً من التوراة التي تتحدث عن مكان يحمل اسم "تفت" يوجد في وادي حنون قرب القدس حيث كان يتم تقديم الأطفال كقرايين إلى الإله "ملك".



الرَّمز المنسوب إلى تانيت



النوحة 2

ويجب أن نعترف بعجزنا عن تحديد المعنى الأصلي للفظه وهو عجز قديم يرقى في الحقيقة إلى المترجمين الاغريق الأوائل للتوراة الذين قاموا بنسخ المفردة بأشكال مختلفة "فنجذ" "تافات" و"توفتا" بل ان للترجمات الاغريقية الأولى ذهبت إلى حد حذف جزء من بعض الأسفار حيث توجد هذه اللفظة بحكم عجز أصحابها عن فهم معناها والمعنى الإجمالي للمقطع. لذلك نخلص للقول بأننا نجهل التسمية التي كان يطلقها القرطاجيون على هذه النوعية من المعابد.

التوفات : وصف عام

يمكن للتمعن في خريطة توزع هذا النوع من الفضاءات المقدسة أن يلاحظ دون صعوبة غيابها عن عالم الفينيقيين الشرقي إذ تمّ الكشف عنها بالأساس في كلّ من قرطاج وهدرمتوم وصقلية (موتبي) وسردينيا (نورا، سلكيس تاروس، موتبي سيراى، بيتيا، كاليارى). ويتعلق الأمر بفضاءات مقدسة غير مسقوفة حيث يضع المتعبّدون اللّذّور المقدّمة للآلهة وفقاً لمستويات متّاضدة إجمالاً مع وجود تداخل وتموجات داخل نفس المستوى. وللتبسيط يمكن القول أن أقدم المستويات توجد في الأسفل فيما توجد أحدثها في الأعلى.

بالإضافة إلى ذلك نلاحظ أننا لا نجد إلا "توفاتاً" واحداً في كلّ موقع من المواقع المذكورة. ولا تخضع أماكن تركيزها على ما يبدو لقاعدة مضبوطة وواضحة. فتوفات قرطاج مثلاً يوجد جنوب المدينة على مسافة لا تتجاوز 50 متراً عن البحر أما في نورا فيوجد التوفات خارج أسوار المدينة. وفي سلكيس تمّ تركيز هذا الفضاء على مسافة 400 متراً شمال المدينة. وأخيراً في موتبي يوجد المعبد شمال الجزيرة قرب الأسوار...

من جهة أخرى يبدو أن الفينيقيين - البونيين كانوا لا يعارضون مبدأ تنصيب معابدهم هذه في مواضع عرفت حضوراً بشرياً سابقاً وهي ملاحظة ثابتة على الأقل بالنسبة لمعبدي موتبي وتاروس. وإجمالاً، يبدو أن الفينيقيين - البونيين كانوا حريصين على حرمة هذه النوعية من الفضاءات المقدسة وهو ما يمكن

استنتاجه من خلال تمسكهم بنفس الموضع وامتناعهم عن إقامة أي نوع من المعالم عليها بديل ما نلاحظه في مونتي حيث غير القرطاجيون مسار الأسوار لتجنب اختراق هذا الفضاء. وتغطي فترة استغلال فضاء التوفات قرونا طويلة غير أن هذه الفترة تختلف من معبد إلى آخر ويرتبط ذلك دون شك بتاريخ الموقع نفسه.

- في قرطاج تتضارب آراء الباحثين حول ما يسمى بـستراتيغرافيا التوفات (La stratigraphic) بسبب ظروف إنجاز الحفريات الأولى (انظر S.Lancel, Carthage, p. 248 et suiv.) ففي حين يميز ل. بوانسو (L.Poinsot) ور. لنتي (R.Lantier) أربعة مستويات تمتد زمنيا بين 700 ق.م و 146 ق.م فإن د. هاردن (D.Harden) وف. كلسلي (F.Kelsey) يشيران إلى وجود ثلاثة مستويات فقط وهي:

* تانيت I : من أواخر القرن الثامن إلى أواسط أو أواخر القرن السابع.

* تانيت II : من أواخر القرن السابع إلى حوالي سنة 300 ق.م

* تانيت III : من أواخر القرن الرابع إلى سنة 146 ق.م.

حافظت الحفريات الأمريكية المنجزة في إطار الحملة العالمية لمنظمة اليونسكو تحت إدارة ل. ستيجار (L. Stager) على تقسيم د. هاردن مع محاولة ضبطه بصورة أكثر دقة واقتרכת في هذا الإطار ما يلي:

* تانيت I : 730 ق.م - 600 ق.م.

* تانيت II. أ: 600 ق.م - أواخر القرن الخامس (حوالي 400 ق.م)

* تانيت II. ب: القرن الرابع - القرن الثالث قبل الميلاد

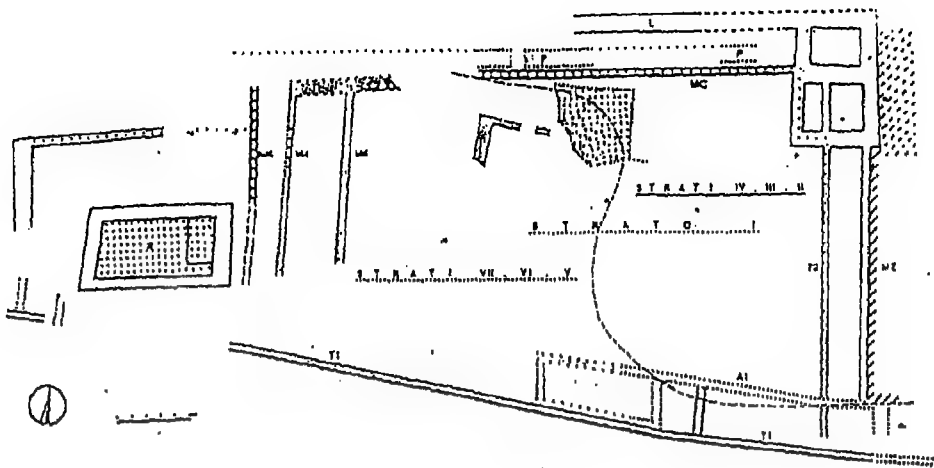
* تانيت III إلى سنة 146 ق.م.

في هدرمتوم (سوسة) يميز ب. سنتاس ستة مستويات تمتد زمنيا من القرون السادس قبل الميلاد إلى القرن الأول بعد الميلاد. (انظر وثيقة توفات سوسة)

وفي مونتني سيراي يميز المختصون أربعة مستويات تغطي فترة تمتد من القرنين السابع والسادس قبل الميلاد إلى القرنين الثاني والأول قبل الميلاد. تواصل استعمال فضاء التوفات في سلكيس طوال الفترة المتراوحة من القرن السابع قبل الميلاد إلى القرن الأول قبل الميلاد. أمّا في مونتني فتغطي مستويات التوفات الحقة الممتدة من القرن السابع إلى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. (انظر وثيقة توفات مونتني).

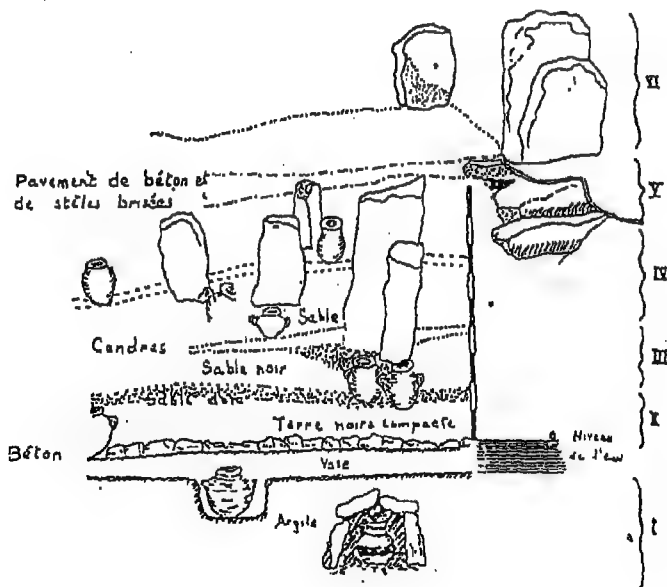
في ما يتعلق بالنذور المقدمة أثبتت الحفريات وجود أوجه شبه كثيرة بين مختلف هذه الفضاءات المقدسة ويتعلق الأمر غالباً بمرمّات لا تخضع طريقة وضعها على ما يبدو لأية قاعدة واضحة إذ تمّ الكشف عنها في وضع أفقي أو عمودي. ويمكن أن تطمر في الأرض أو توضع كما هو الحال في بعض الأحيان داخل مخابئ صغيرة شكّلت بواسطة مجموعة من البلاطات المنحوتة. وقد عثر على هذه المخابئ في قرطاج ومونتني وسوسة... ويمكن للمخبا الواحد ان يضم مجموعة جرار يبلغ عددها أحياناً الثلاث. (انظر اللوحة رقم 3)

غطيت هذه الأواني الفخارية بطرق متشابهة تمثل قواسم مشتركة بين هذه النوعية من الفضاءات المقدسة. ومن أكثرها رواجاً الصحنون التي تثبت إلى فوهة الجرة بواسطة طين صلصالي يميل لونه إلى الصفرة. غير ان القناديل والمباخر بالخصوص قد تعوّض في بعض الحالات القليلة نسبياً هذه الصحنون (مثال في هدرمتوم عند المستويين 2 و3). وتمثل الأنصاب أيضاً إحدى أكثر أنواع اللقى حضوراً داخل التوفات ويبدأ ظهورها بقرطاج عند المستوى الأول على شكل أنصاب بسيطة (Cippe) يتواصل حضورها مع المستوى الثاني لكننا نلاحظ في الآن نفسه بداية ظهور نوعية أخرى تتخذ شكل مذابح (autels) تحمل زخارف فيما تظل الأنصاب التي تحمل نصوصاً غائبة تماماً ولا تبرز إلا في فترة لاحقة. وقد كشفت الحفريات إلى جانب الأنصاب والجرار عن لقي عديدة متنوعة أهمها حبّات القلادات والتماثيل والأساور والأقنعة...



توفات مونيبي

المصدر (CIASCA (A), Kokalos, 18-19, (1972-1973)



توفات سوسنة

المصدر CINTAS (P), In, Revue Africaine (1946) fig2.

التوفات وإشكالية تقديم القرابين البشرية

كنا أشرنا في بداية تقديمنا إلى الرأي الذي ساد طويلا في الدراسات البونية والذي يعتبر التوفات فضاء مقدسا كان القرطاجيون يقدمون داخله القرابين البشرية (من الأطفال) إلى الإله بعل حمون والإلهة تانيت. غير أن السنوات الأخيرة طبعت ببروز تيار جديد يدعو إلى مراجعة هذا الرأي. ونتيجة لهذا التوجه الحديث أخضعت روايات المصادر الأدبية لنقد متشدد بلغ في نهاية المطاف حد التشكيك في ما تقدمه روايات بعض الكتاب الكلاسيكيين حول "ممارسات القرطاجيين المتوحشة".

من جهة أخرى لابد من التذكير بأن التحاليل العلمية التي أجريت على بقايا محتويات المرمّات عاجزة عن تحديد سبب الوفاة وحالة الجسد قبل تعرضه للحرق. ولذلك يمكن القول أن ما تم إثباته علميا يقتصر على تأكيد المختصين أن البقايا المشار إليها هي إما لأطفال صغار أو لمخاضيج ومجاهيض.

بالعودة إلى مصادرنا الأثرية يجب أن نعترف أن ما تم العثور عليه (مرمّات، أنصاب...) لا يسمح بإلقاء مزيد الأضواء على هذه القضية المعقدة وذلك باستثناء نصب شهير أُصطلح على تسميته بنصب الكاهن" الذي يحمل صورة كاهن يرتدي جلبابا طويلا وعلى رأسه طاقية الكهنة يرفع يده اليمنى في وضع تعبدي فيما تحمل يده اليسرى المطوية طفلا ملفوفا سيّتم على ما يرجّح كقربان (انظر اللوحة رقم 3). لكن وبالرغم من أهمية هذه النصب يبقى السؤال الأهم اليوم مطروحا وهو هل كان القرطاجيون يقدمون أطفالهم كقرابين لآلهتهم بالصورة الواردة في بعض مصادرنا الأدبية؟

لتقديم رؤية مبسطة حول هذه الإشكالية نرى لزاما علينا في البداية مدّ القارئ بما ورد في مصادرنا الأدبية مبتئين بالتوراة.

* التوراة: تُدين التوراة في مواضع عديدة منها تقديم القرابين البشرية إلى الآلهة وتنتهي عنها ويمكن في هذا السياق الاستدلال بما ورد في:

- سفر الملوك الثاني XXIII, 10: "ونجس (الحديث عن يوسيا Josias) توفة التي في وادي بني خنوم لكي لا يعبر أحد ابنه أو ابنته في النار لمولك".

- سفر الملوك الثاني XVI-2-3: "كان أجاز ابن عشرين سنة حين ملك وملك سنه ستة عشر سنة في أورشليم ولم يعمل المستقيم في عيني الرب إلهه كداود أبيه بل سار في طريق ملوك إسرائيل حتى أنه عبر ابنه في النار حسب أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل".

- حزقيال XX-25-26: "وأعطيتهم أيضا فرائض غير صالحة وأحكاما لا يحيون بها ونجستهم بعطاياهم إذ أجازوا في النار كل فاتح رحم لأبيدهم وحتى يعلموا أنني أنا الرب"...

نتفعا هذه الإشارات للقول بأن "تقديم القرابين البشرية" وخاصة من الأطفال كانت ممارسة عرضية في فلسطين. وكما أشرنا في ما سبق إلى هذه الشعوب التي طردها الرب من أمام بني إسرائيل والتي ترسخت لديها هذه "الأرجاس". لكن الاعتقاد السائد اليوم هو أن الشعوب المعنية لا تعني الفينيقيين وإنما شعوب أخرى دخلت في مواجهات مع العبريين.



توفات قرطاج. حفرة 1979 المربع CT6

المصدر :

STAGER L.E., Le
tophet et le port
commercial, in, pour
sauver Carthage,
ENNABLI A., ed.,
UNESCO, INAA,
1992, p.72.

نصب الكاهن
(متحف باردو)



النصوص الكلاسيكية : من أشهرها نذكر

- كليتركوس (Clitarque) (Schol. Plat. Rep 337 A): يشير كليتركوس إلى أن تقديم القرابين البشرية من الأطفال ممارسة منتشرة لدى الفينيقيين وبصفة خاصة لدى القرطاجيين الذين كل ما رغبوا في الحصول على شيء مهم نذروا أحد أبنائهم إلى الإله كرونوس. ويضيف أن الضحايا في قرطاج كانت توضع فوق أيدي تمثال الإله لتنتحرج بعد ذلك وسط حوض من النار.

- فرفريرس (Porphyre) يؤكد هذا المصدر من جهته على أن الفينيقيين عند مرورهم بفترة شدائد (حروب، أوبئة، جفاف) يهبون للإله كرونوس قربانا بشريا يتم اختياره عن طريق الانتخاب (De abstinentia II, 56) ويضيف أن الأمثلة عن هذه الممارسات عديدة في مؤلف سنشونيون الذي تناول تاريخ الفينيقيين والذي قام فيلينيوس الجبيلي (Philon de Bybos) بترجمته إلى الاغريقية في ثمانية أجزاء. وقد هذ الكاتب وجود هذا النوع من الطقوس في مدينة صور موطنه الأصلي فيما أكد تواصلها في قرطاج ومشاركة الجميع فيها في نفس الفترة.

- كوينت كورسي: أشار في معرض حديثه عن حصار الاسكندر المقدوني لصور سنة 322 قبل الميلاد إلى اقتراح تقدم به بعض الصورانيين وكان يدعو إلى تقديم طفل من الأحرار كقربان إلى الإله ساترنوس حتى تحظى المدينة بدعم الآلهة غير أن هذا الاقتراح جوبه بالرفض من قبل أعضاء مجلس القدامى.

- ترثليانوس يشير الكاتب بدوره إلى وجود طقوس تقام على شرف ساترنوس يتم خلالها تقديم أطفال كقربانين.

- ديودورس الصقلي (XX, 14, 4 - 6): تنقى شهادته أهم الوثائق المعتمدة من قبل المؤرخين المحدثين. ففي سياق حديثه عن حملة طاغية سرقوسة على قرطاج في أواخر القرن الرابع يشير الكاتب إلى أن القرطاجيين اعتبروا أن

ما حل بهم هو نتيجة غضب الآلهة عليهم وتعود أسباب هذا الغضب إلى لجوء القرطاجيين إلى الخداع تجنباً لتقديم أطفالهم كقرابين للآلهة ذلك أنهم عمدوا على نقيض الفترات السابقة إلى شراء أطفال عبيد وتقديمهم بدلاً عن أبنائهم. وقد كشف التحقيق الذي أجري هذا التلاعب فتقرر اختيار مائتي طفل ينتمون إلى أكبر الأوساط منزلة وتقديمهم كقرابين باسم الدولة. في نفس الوقت قرر بعض المتهمين أو المشكوك فيهم بمحض إرادتهم تقديم أنفسهم فارفع العدد الجملي ليبلغ ثلاث مائة.

يَقَمُّ ديودوروس بعد ذلك وصفا لتمثال الإله كرونوس المصنوع من البرنز والمنتصب في قرطاج ويشير إلى أن ذراعي التمثال كانتا ممدودتين في اتجاه مائل نحو الأرض فيما كانت راحته موجهتين إلى الأعلى بطريقة تجعل القربان (الطفل) الموضوع على ذراعي التمثال يتحرج ليسقط وسط هوة ممثلة نارا.

- بلوتارخوس (Sera num. Vendict 6 = Morelia 552 a. Apoph)

req Gélon 1 = Morelia 175 a) : يشير الكاتب إلى أن القرطاجيين كانوا يقدّمون أطفالهم كقرابين إلى الآلهة ويضيف أن من لا أبناء لهم كان بإمكانهم اشتراء أطفال الفقراء كما تُشترى الخرفان أو الطيور. ثم يتطرق بلوتارخوس بعد ذلك لوصف كيفية إجراء هذه النوعية من الطقوس مركزاً على وضعية الأم النسي يجب أن لا تنرف دعماً وأن لا تصدر أية آفة في الوقت الذي تملأ أصوات الناي وقرع الطبول الفضاء المحيط بتمثال الإله فلا تُسمَع بالتالي الصيحات.

أخضعت شهادتنا ديودوروس الصقلي وبلوتارخوس إلى نقد حاد من قبل س. موسكاتي وس. ريبيني (S. Ribichini) بالخصوص. وقد ركّز المؤرخان الإيطاليان على أن الأمر يتعلق بشهادتين غير مباشرتين تتميزان بعدائهما للقرطاجيين. وفي هذا الإطار اعتُبر نص بلوتارخوس أقرب منه إلى تمرين في البلاغة بسبب أسلوبه الخطابي المصطنع ويبدو أن كاتب السير الذاتية قد استقى المعلومات التي أوردها حول أمّهات الضحايا والآلات الموسيقية من مؤلف كليتركوس أو من مؤلف تيمايوس.

لم تسلم شهادة ديودروس من النقد المتشدد وقد أبرز الباحثان الإيطاليان بالخصوص أن الفقرة التي قمنا باختصارها في ما تقدم هي أقرب منها إلى مقطع محشور حشرا في غير موضعه المنطقي (حصار قرطاج من قبل اغاثوكلاس) ولم يستبعدا أن يكون هذا المصدر قد استلهم محتوى فقرته من مؤلف كليزركوس.

لكل هذه الاعتبارات لم يعد تعدد الشهادات مدعاة لإثبات وجود هذه الممارسة لدى القرطاجيين بحكم أن معظمها يرقى إلى نفس مصدر وهو مؤلف كليزركوس وهو ما قاد أنصار هذا التيار النقدي إلى مراجعة هذه القضية مشككين على ما تنثّره شهادات الكتاب القدامى من تحفظات وشكوك.

المصادر النقائشية

بالإعتماد على مصادرنا النقائشية يمكن الخروج بسلسلة ملاحظات رئيسية هي التالية:

- لم يشر أي نص نقائشي حتى اليوم إلى مفردة "توفات"
- عند الحديث عن النذور المقدمة استعمل القرطاجيون مفردات متنوعة لا تدلّ، للأسف، على طبيعة النذر المقّم ومن أكثرها ذيوعا نذر، نصب، منّت، ملك.
- تحوي النصوص النقائشية البونية عبارات لا تزال إلى الآن موضع جدل كبير بين المختصين من أشهرها:

* ملك أُم: تتضارب الآراء عند تفسير هذه العبارة وقد انحصر الجدل بين رأيين اثنين يرى الأول أنها تعني قربان رجل (أي أن الرجل قُتّم كقربان) بينما يرى الثاني أن العبارة تعني أن القربان قُتّم من قبل رجل وتمثل العبارة أحيانا جزءا من عبارة أطول تظل بدورها محل جدل بين الباحثين ملك أُم بشرم بتم ونجدها خاصة في سيرتا (قسنطينة).

* ملك بعل: تمّ فهم هذه العبارة أيضا في ثلاث اتجاهات اتجاه أول يرى أنها تعني قربان على شرف بعل فيما يرى الثاني أنها تعني قربان مواطن بما ان لفظة "بعل" تعني أحيانا المواطن أما أصحاب الفرضية الثالثة فيرون أن العبارة تعني قربان عوضا عن رضيع.

* ملك أمر: يكاد المختصون يجمعون على أنها تعني قربان خروف ويحيلنا ذلك بالضرورة على قرابين الفداء كما نلاحظ ذلك على نقائش نقاوس (Ngaous) المتأخرة. ولعل أشهرها في الضمير الإسلامي قصة إسماعيل الذي افترق بذبح عندما كان والده إبراهيم يستعدّ لذبحه امثالاً لأمر الله.

المصادر الأثرية

كنا أشرنا في ما سبق إلى "نصب الكاهن" ولن نعود إلى ذلك مجدداً وإنما سنركز الآن على نتائج التحاليل الطبية التي أجريت على عيّنات من محتويات المرمّات التي عثر عليها داخل معابد التوفات.

أنت الجهود المخبرية المبذولة إلى نتائج مقاربة أثبتت جميعها ان الجرار تحوي بقايا مواليد صغار إلى جانب بقايا حيوانات خاصة من الخرفان والماعز... لكن المؤسف هو ان التحاليل عاجزة عن تحديد أسباب الوفاة لذلك يبقى السؤال الهام المطروح هل ان هؤلاء الأطفال لقوا حتفهم بسبب الحرق أم انهم كانوا من الأموات قبل تعريضهم للنار؟

ما هو ملفت للانتباه هو أن التحاليل المخبرية أدت إلى تغيير التصور الذي ساد طويلاً أوساط المهتمين بتاريخ ديانة قرطاج. ذلك ان المؤرخين اعتقدوا حتى تاريخ إعلان نتائج التحاليل العلمية أن البونيين تخلّوا تدريجياً عن عادة تقديم القرابين البشرية وعوضوها شيئاً فشيئاً بقرابين حيوانية مبتعدين بذلك عن "ممارسة فينيقية بدائية متوحشة" غير أن أعمال الفريق الأمريكي الذي اهتم بتحليل 130 عيّنة اكتشفت في قرطاج أثبتت العكس وهي ملاحظات جاءت لتدعم ما توصل إليه بالاري (Pallary) منذ سنة 1922.

أخيراً لا يمكن لمتناول هذه المسألة ان لا يلاحظ التفاوت الكبير داخل هذه النوعية من الفضاءات المقدسة بين عدد المرمّات وعدد الأنصاب المكتشفة. وقد عمقت هذه الملاحظة على بساطتها دراسة إشكالية القرابين البشرية لاذ ترتب عن ذلك طرح سؤال هام جدّاً هو التالي: ما هو دور التوفات؟ ويمكن ان نميز في إطار محاولات المختصين الإجابة عن هذا السؤال وفي علاقة مع ما سبق تبليين اثنين:

* تيار أول ظل على ثقته بما تقدمه روايات الكتاب الكلاسيكيين ويعتبر التوفات فضاء خصّصه البونيون لتقديم قربانهم البشرية.

* تيار ثان يرفض هذه الفكرة ويعتمد حجة "صمت" أشهر المؤرخين عن هذه الظاهرة كهيرودوت (الذي زار صور مع أواسط القرن الخامس وتعرض لديانة الفينيقيين ولكنه لم يشر إلى هذه النوعية من الطقوس) وكذلك بولوبيوس وثيوس لويوس... وهي ظاهرة لم يكن ليعوئهم التشديد عليها بحكم عدائهم لقرطاج وإمكانية استثمار ذلك للتحامل عليها.

من هذا المنطلق وفي سياق دراسته لتوفات تاروس في سردينيا برى س. موسكاتي أن دفن الأطفال الصغار كان يتم في التوفات إلى جانب "ضحايا القرابين". ويذكر في هذا السياق بنسبة وفيات الأطفال المرتفعة في هذه الفترة ويعتبر أن إقامة الأنصاب كانت تتم فقط لتخليد ذكرى الأطفال المقدمين كقربان وهو ما يفسّر من منظوره دائماً سرّ الاختلال الملحوظ بين عدد الأنصاب وعدد المرمّات. وقد دافعت هـ. بينشو - صفر عن هذه النظرية مؤكدة على الضعف الواضح لعدد قبور الأطفال في مقابر قرطاج. ومن هذا المنطلق افترضت الباحثة الفرنسية أن المتوفين من المواليد الجدد كانوا مقصيين من "مجتمع الأموات" وبالتالي من المقابر بحكم أنهم لم يخضعوا للطقوس التي تتمجهم في مجتمع الكهول ولذلك يتم دفنهم داخل المعابد باعتبارهم ننورا أو هدايا مقمنة للآلهة على أمل ان يشهدوا حياة أخرى أو تتم إعادة بعثهم. لكن هذه الفرضية تصطدم بصعوبة كبيرة. فإن قبلنا بذلك بالنسبة لمن لم يتجاوزوا الحول متلافان الأمر

يعسر الاقتناع به بالنسبة للأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين "سنتين وأربع سنوات ويضاف إلى ذلك ان حجاج" الداعين إلى مراجعة هذه القضية تسعى إلى أن تدفعنا في نهاية التحليل إلى القبول بفكرة ان تكون هذه النوعية من الفضاءات المقدسة مجرد مقابر للأطفال تقريبا وهو ما يبدو مستبعدا. لذلك يستحسن من منظورنا حالًا الإحجام عن تقديم الفرضيات جزافا على أمل ان تمكننا التحاليل المخبرية يوما ما من تحديد سبب الوفاة بدقة عندها يمكن القول أننا توصلنا إلى إجابة قاطعة لهذه الإشكالية.

ملقرت

تجمع كل الدلائل على القول إنه كان ابرز آلهة مدينة صور ويعني اسمه لغة "ملك المدينة" أو "سيد المدينة" وبعتماد الإسامة نميل إلى الاعتقاد انه كان أحد أكثر آلهة قرطاج شعبية كما سنبين ذلك لاحقا.

كانت عبادة ملقرت داخل العاصمة البونية تتم داخل معبد مخصص للغرض اذ تذكر نقishtan معبد هذا الإله فيما قدم أحد النازرين نفسه على انه خادم الإلهين صيد - ملقرت. وكنا أشرنا إلى سعة اعتماد ملقرت في تركيبة الأسماء القرطاجية إذ أحصى الباحثون ما لا يقل عن 1500 اسما من هذا الصنف. وكما بيّنت ذلك ك.بونى (C.Bonnet) فإن الأغلبية الساحقة من هذه الأسماء (حوالي 900 اسما) تعكس ثقة البونيين في هذا الإله. ومن بين أوسع الأسماء انتشارا نجد "بد ملقرت" (بيد ملقرت) و"عبد ملقرت". ويمكن تفسير "شعبية" هذا الإله بالصورة التي كان القرطاجيون يحملونها عنه وهي صورة طبعتها بالأساس الجوانب الإيجابية لملقرت كالرعاية والحماية والسلام. وتتناقض هذه المعطيات مع فقر المادة للمصدرية وخاصة منها النصوص النظرية المهداة إلى ملقرت وهو ما يمكن تفسيره من منظور نفس الباحثة بوجود إمكانية للتمييز بين "الديانة الرسمية" لدولة قرطاج والقائمة على الثنائية بعل حمون - تانيت وديانة شعبية مسّت أعرض شرائح المجتمع وارتبطت أساسا بالهة خيرة توفّر الحماية والرعاية للمتعبّين من بينها ملقرت.

باعتقاد المصادر الأثرية نلاحظ أن الرسوم المجسدة لهذا الإله تتشابه غالباً مع الرسوم المجسدة للإله الإغريقي هيركلاس خاصة منها تلك التي تعود إلى فترات متأخرة من تاريخ قرطاج. وهي ملاحظة تدعمها إشارات الكتاب الكلاسيكيين الذين ماثلوا الإلهين. من ذلك إجماع المؤرخين على القول بذلك بالنسبة إلى المعاهدة المبرمة بين حنبعل وفيليبوس الخامس. وفي هذا الشأن يمكن أن نشير إلى الرسوم الموجودة على الشفرت التي كُشف عنها في مقابر قرطاج وكذلك التماثيل. ويبدو تأثير الفن الإغريقي واضحاً دون أن يعني ذلك تغير جوهر عبادة ملقرت في قرطاج (انظر اللوحة رقم 4). وباعتقاد مختلف مصادرنا يمكن القول إن عبادة هذا الإله رسخت في العاصمة البونية ترسخاً كبيراً وقد تميّزت على ما ترجح ك. بولي باختصاصيتين إثنين:

* الخاصية الأولى مثل الإله ملقرت الارتباط بجذور قرطاج الصوريانية ويمكن في هذا الإطار التذكير بالصلات التي حافظت عليها العاصمة البونية مع المدينة الأم وقد كانت مبنية في جزء كبير منها على وفاء قرطاج لملقرت الإله الأكبر في صور لملقرت.

* الخاصية الثانية: يبدو ملقرت بمظهر الإله المحسن والحامي وهو ما يفسّر تعلق عدد كبير من القرطاجيين به.

عشرت

شهد الشرق والغرب الفينيقيين على حدّ السواء عبادة هذه الإلهة. ومن بين أبرز الإشارات المتعلقة بها نشير إلى مجموعة النصوص النقائشية البونية التي تذكر معبد عشترت (CIS, I, 3779; 4482) وكاهن عشترت - أشمون وكنا أسرنا في ما نقدم إلى النص الذي يخلّد إهداء لعشترت ولتانييت بلبنان.

تتعدد الإشارات المتعلقة بالإلهة عشترت في باقي أرجاء الإمبراطورية القرطاجية وخاصة في مالطة وسردينيا وصقلية حيث يذكر نص نقائشي عشترت بيركس (CIS, I, 135). ولابد هنا من التذكير بأن ديودروس الصقلي يشير إلى

طقوس ممارسة البغاء المقدس في جبل ايركس وهو ما أدى إلى الربط بين الممارسة المذكورة والإلهة عشترت يضاف إلى ذلك ما ورد على لسان فاليريوس مكسيموس عند تعرضه لهذا النوع من الطقوس في سيكا (الكاف) فيما يذكر صولنوس أن الإلهة فينوس التي ماثلها الكتاب الكلاسيكون بعشترت كانت مرتبطة بعينوس جبل ايركس. ويبدو أن الهدف من وراء هذه الممارسة كان يتمثل في تعزيز قوة الإلهة بحكم أن المواقعات التي كانت تتم في معبدها إنما ترمز في دلالاتها العميقة إلى تجدد النسل وبالتالي تواصل الخلق.

نعوزنا المادة المصدرية حول طبيعة عشترت غير أن م.ح.فطر. استطاع أن يبرز في إحدى مقالاته بعض سمات هذه الإلهة مركزا بالأساس على طبيعتها العسكرية التي تستمد جذورها من الشرق بحكم أن نصوص أوجاريت الميثولوجية تظهرها للدارس بمظهر الإلهة المحبة للحرب والصيد.

تجدر الإشارة إلى أن عديد الباحثين ربطوا باعتماد الوثائق الأثرية بين المرأة الممثلة على عديد الأنصاب المكتشفة في قرطاج وخصوصا في مونيبي حيث تبدو ممسكة ثوبيها في حركة ضغط وهي حركة ترمز من منظور هؤلاء إلى الخصوبة وبين الإلهة عشترت وذلك بحكم قدم هذه الأنصاب التي ترقى إلى فترة لم تبرز خلالها تانيت بعد (انظر اللوحة رقم 4). غير أن هذا التفسير يظل مجرد فرضية ويمكن أن نسحب نفس الملاحظة على بعض الرسوم الموجودة على المسكوكات.



ملقوت - هرکلاس علی مجلم
(متحف قيرطاج)



نصب عشتروت

المصدر :

MOSCATI S.,
LIBERTI M.L., Scavi
a Mozia, Le stèle,
Rome 1981; stèle
n° 860.

اللوحة 4

أشمون

كبقية الآلهة المذكورة كان لهذا الإله معبد في قرطاج كما تدل على ذلك مجموعة من النصوص النقائشية (4837 - 4834; CIS, I, 23, 62) وكنا أشرنا فيما سبق إلى كاهن أشمون - عثرت بالإضافة إلى إشارة مصادرنا الأدبية إلى معبد أشمون في قرطاج باعتباره أكبر معابد المدينة.

ماثلت المصادر الكلاسيكية (سترايو وأبنيوس) (Appien, Lib 130; Strabon, XVII, 3, 14) بين الإله أشمون والإله اسكولابيوس وهو ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أنه اعتبر من قبل القرطاجيين بمثابة الإله الشافي. وبالعودة إلى الإسامة نلاحظ مرة أخرى سعة انتشار اسم هذا الإله باعتباره يدخل في تركيبة عدد كبير جدًا من الأسماء وهو ما يجعل منه أحد الآلهة المقربة إلى القرطاجيين شأنه في ذلك شأن ملقرت.

اقتصرنا في هذه الصفحات على استعراض الملامح العامة لأشهر آلهة قرطاج لكننا نلاحظ أن مصادرنا النقائشية تشير إلى عدد كبير منها يصعب تحديد سماتها ولو بصورة تقريبية ولدعم رأينا الاستشهاد بمجموعة الآلهة التالية كشدرف، حورون سكن وغيرها.

الآلهة الأجنبية

أ - الآلهة المصرية

تبقى الإسامة مصدر معلوماتنا الوحيد تقريبا إذ تدخل آلهة مصرية عديدة في تركيبة أسماء كثيرة في قرطاج وباعتماد الجرد الذي أعده أ. الفرجاوي يمكن أن نشير إلى الآلهة المصرية التالية والتي نرجح وجود اتباع لها في العاصمة البونية كباستت واس واصر وحورس وابتاح.

ب - الآلهة الإغريقية : ديمتار وكوري

يمثل إدماج الإلهتين الإغريقيتين ضمن مجمع الآلهة القرطاجية قضية ينبغي الوقوف عندها بحكم أن مصادرنا لا تتعرض في ما عدا هذه الحالة إلى تبني القرطاجيين رسميا لعبادة آلهة أجنبية. ولهذا الغرض يجدر التذكير ولو بإيجاز بظروف اتخاذ هذا القرار.

يمثل ديودوروس الصقلي مصدرنا الوحيد في معرض حديثه عن حصار جيش قرطاج لسرقوسة تحت قيادة خيمالك يشير المؤرخ إلى قيام الجنود بنهب معبد الإلهتين ديمتار وكوري (Démeter et Coré) وقد أغضب هذا التصرف الآلهة ففتك الوباء بالجيش البوني وتفاقم الخطب بحكم تظافر مجموعة عوامل أخرى أهمها تركّز أعداد هائلة من الجند في موضع غير صحي إضافة إلى ارتفاع الحرارة.

ويضيف نفس الكاتب أن القرطاجيين كانوا لا يعبدون هاتين الإلهتين. وكردّ فعل لما حصل لجؤوا إلى اختيار مجموعة من بين أفضل المواطنين منزلة وعيّنوهم كهنة وأقاموا للإلهتين تماثيل وقّموا لهما قرابين كما قاموا باختيار إغريق قاطنين بقرطاج وألحقوهم بعبادتهما. وقد أثارت المعلومات الواردة لدى ديودوروس اهتمام الدارسين فرأى فيها البعض انعكاسا لتأثر قرطاج الكبير بالحضارة الإغريقية وهو رأي لا يحظى بالإجماع.

نعتقد أن لا مجال لفهم الدلالات العميقة لشهادة ديودوروس دون العودة إلى النص نفسه وفيه ما يسمح بالنظن إلى أن مصدرنا بتقديمه لهذه الرواية على الصورة التي قمنا باختزالها لم يشذّ في حقيقة الأمر عن الطريقة التي اعتمدها على امتداد مؤلفه إذ أنه طوّع الأحداث بحسب ما كانت تملّيه عليه قناعاته الأخلاقية الشخصية وهو ما سنسعى لتوضيحه في ما يلي

بالتمعن في مصدرنا نلاحظ أن "تدخل الآلهة في شؤون البشر" يمثل محورا يكاد يكون ثابتا في مؤلف ديودوروس وإذا ما ركّزنا على أحداث سنة

396 ق.م التي تعيننا لا يمكن أن يفوتنا أن الكاتب وضع جنبا إلى جنب تفسيرين اثنين:

- تفسير "عقلاني" : ارتفاع عدد الجند، خاصيات الموضع، ارتفاع الحرارة.

- تفسير "ميتافيزيقي": غضب الإلهين بسبب الأرجاس التي قام بها القرطاحيون.

غير أن الكاتب سعى إلى الربط بين التفسيرين في نطاق ما أطلقنا عليه سابقا "قناعات ديودوروس الأخلاقية الشخصية" ومن أبرز هذه القناعات تلك التي ترتبط بـ:

* صورة قرطاج وقادتها: يبدو قادة قرطاج من خلال مؤلف "المكتبة التاريخية" بمظهر القادة المنتهكين لحرمان الآلهة مثال ذلك القائد حنبعل الذي كان على رأس جيش قرطاج في صقلية قبل تولى خيمك نفسه هذه الخطة وهي صورة ذائعة لدى معظم الكتاب الكلاسيكيين.

وتبدو قرطاج من خلال نفس المؤلف بصورة المدينة "المتعالية"، "الظالمة"، "العنيفة" لذلك تتراءى نكبتها بمثابة النتيجة الطبيعية للأخطاء التي ارتكبتها وطبيعي في نهاية التحليل أن تبرز قرطاج بصورة المدينة "الآثمة". ويمكن العودة إلى الفقرات التي يبنى فيها ديودوروس مقارنة مقصودة بين سرقوسة المدينة "الديّة" وقرطاج المدينة "المنتهكة للمقّسات" (الكتاب XIV).

* تدخل الآلهة: ترتبط هذه القناعة لديه غالبا بمفهومي "الغضب الإلهي" و"العدل الإلهي" لذلك يشدّ ديودوروس عادة على ضعف البشر "ويبقى مصير الأمور لديه مرتبطا بما يسمّى لدى الإغريق بالتيكى (الحظ) الذي يمكن أن يغير موقعه في كل لحظة.

تتفاعل مختلف هذه القناعات وغيرها لتعطى طريقة معينة في رواية الأحداث تبدو واضحة من خلال طريقة سرد ديودورس لأطوار الوقائع العسكرية. وهي طريقة ثابتة على امتداد مؤلفه إذ تمرّ المواجهات بالنسبة إليه دائما تقريبا بمرحلتين اثنتين.

- المرحلة الأولى: يظل مصير المواجهات خلالها غير واضح ونلاحظ أحيانا ان المعارك تتطور لصالح الصف الذي سينهزم في آخر المطاف.

- المرحلة الثانية: تنقلب الوضعية فجأة إما بسبب وفاة قائد الجيش المنهزم أو على إثر تدخل قائد الجيش المنتصر في آخر المواجهة.

يخضع سرد وقائع أحداث سنة 396 وهزيمة خيمليك لهذا التصور، فقرطاج تبدو منتصرة في البداية، وعلى نقيض ذلك كانت سرقوسة في وضع مأسوي. ثم تنقلب الأحداث فجأة فيصبح المنتصر منهزما والمنهزم منتصرا. غير ان وجه الاختلاف هذه المرة يكمن في ان انقلاب الأوضاع المفاجئ لم يكن وليد وفاة قائد جيش قرطاج خيمليك أو تدخل مظفر لحاكم سرقوسة ديونيزوس ولنا ان نتساءل عن السبب الذي حدا بديودورس إلى تغيير طريقته في السرد هذه المرة.

يرتبط ذلك في رأينا مجتدا بقناعات الكاتب الشخصية ويعني بذلك كرهه لأنظمة الطغاة عامة وليونيزوس خاصة لذلك عمل على ان لا يضيفي على طاغية سرقوسة مجدا هو غير جدير به. ولذلك اختار ديودورس ان يكون الانتصار وليد تدخل الآلهة الاغريقية التي تمكنت من الانتصار على آلهة قرطاج في علاقة ما أطلق عليه ل.موران (L.Maurin) تسمية "صراع الآلهة" ومن هذا المنطلق يصبح تبني قرطاج لعبادة الإلهتين اعترافا ضمليا بقوة آلهة الإغريق.

من جهة أخرى ينبغي الإشارة إلى وجوه الشبه التي نلاحظها بين إيماج قاربكا ساكرا سيراريس في روما خلال النصف الثاني من القرن الثالث وإيماج ديمتار وكوري في قرطاج في بداية القرن الرابع حسب رواية ديودورس. وتشترك الظاهرتان في قاسمين على الأقل: الأول هو مرور كل من قرطاج

وروما بفترة عصيبة وإن كان المؤرخون لا يتفقون بالنسبة إلى هذه الأخيرة على تحديدها بدقة (هل هي هزائم روما أمام قرطاج في إطار الحرب البونية - الرومانية الثانية وخاصة سنة 217 ق.م؟ أم أن الأمر يتعلق بخطر السلتيين (Les Celtes) حسب ما يرجح هـ.لوبونياك؟ (H Le Bonniec). أما القاسم الثاني فيتمثل في تكليف إغريق بالإشراف على إحياء طقوس الإلهتين المدمجتين حديثاً.

يحملنا هذا التشابه على التساؤل حول إمكانية أن يكون ديودوروس قد تأثر بالنموذج الروماني عند حديثه عن قرطاج فسعى إلى إسقاطه على واقع الحضارة البونية عند تعرضه لإمماج عبادة ديمتار وكوري داخل مجمع آلهة قرطاج بالرغم من أن هذا الإمماج يرقى إلى تاريخ أقدم.

عند الخوض في دلالات قرار الفرطاجيين تستوقفنا أحكام بعض المؤرخين المعاصرين المتعصبة وأشهرها موقف ج.ش.بيكار الذي كتب محالاً هذا الحدث

"هذا النقطة لا يمكن تفسيره إلا بمركب النص الذي كان يشعر به البونيون أمام ديانتهم التقليدية وبحاجتهم الماسة لتغييرها حتى يسمحوا لها بالاستجابة للتطلعات الفردية والهواجس الميتافيزيقية التي بلغت عدواها على إثر ابتلاع مدينتهم دينياً من قبل العالم الهيلينستي" (Le s religions de l'Afrique antique, p.98)

وللأمانة نذكر بأن نفس الباحث عتّل لاحقاً من رأيه إذا يشير إلى أن إمماج عبادة ديمتار وكوري لا يجب اعتباره بمثابة ضياع (a liénation) جوهري للديانة الفينيقية بإفريقيا ويضيف أن العكس هو الصحيح باعتبار أن الإلهتين هما اللتين تكيفتا وحاجيات المتعبدين الجدد

(La religion punique, in, dossiers de l'archéologie, déc. 1982, jan. (1983), p. 45-46)

وباعتماد ما نفتم نميل إلى الاعتقاد أن سنة 396 ق.م. إنما تمثل تاريخ التنبّي الرسمي لعبادة ديمتار وكوري وهي عبادة ترقى على الأرجح إلى تاريخ أقدم خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار وجود جالية إغريقية في قرطاج قبل هذا التاريخ بكثير. ويضاف إلى ذلك ما يمكن أن نستنتجه من مؤلف ديودوروس نفسه حيث يشير إلى وجود إغريق داخل المستوطنات القرطاجية بصقلية كانوا يتمتعون بحرية إقامة شعائرهم الدينية. وهذه إشارات تدفعنا للقبول بفكرة وجود تلاقح بين الحضارتين من ميادين كثيرة. ولم يكن الجانب الديني ليشذ عن هذا التلاقح.

كلّ الإشارات المصدّرة التي بحوزتنا، وبقطع النظر عن الصعوبات المنهجية التي يطرحها استعمالها، تنفع إلى الاعتقاد بأن ديانة قرطاج ظلت في جوهرها ديانة شرقية تعكس تمسك اليونانيين بطقوس ورثوها عن أجدادهم وتناقلوها عبر الزمن وقاموا بترسيخها في محيطهم الجديد. ويكفي التذكير في هذا الإطار بأن كلّ الآلهة القرطاجية تقريبا تجد امتدادا لها في الشرق عامة وفي الساحل الفينيقي خاصة (بعل حمون، ثانيت، عشترت، أشمون، ملقرت...).

من جهة أخرى تشدّد مصادرها على اختلاف أنواعها على تدين القرطاجيين وخشيتهم لألهتهم وسعيهم للتقرّب منها واسترضاءها من ذلك مثلا حرصهم على إقامة معابد لها وتعيينهم لمن يقوم على خدمتها وتقديمهم للقرابين إضافة إلى حضورها الرسمي في جلّ المعاهدات المبرمة بينهم وبين بقية أطراف الساحة المتوسطية باعتبارها قوى ضامنة لاحترام ما يتم الاتفاق عليه.

غير أن تمسك القرطاجيين بعباداتهم لم يمنعهم أحيانا من الانفتاح على ديانات أخرى مجاورة كما يوحي بذلك تبنّيهم لعبادة الإلهتين الإغريقيتين ديمتار وكوري وهو ما يعطي لقرطاج هذه الهوية المتفردة والتي وفقت في أن تجمع بين الموروث الشرقي من جهة والمكتسب نتيجة التلاقح مع حضارات المتوسط الغربي المجاورة من جهة أخرى.

مراجع الفصل الثامن

مراجع عامة اهتمت بديانة قرطاج

خصّصت كلّ الدراسات العامة فصولاً نتناول بالدرس ديانة قرطاج ويمكن للقارئ العودة إلى قوائم المراجع المثبتة في هذا الكتاب ليجد عناوين هذه الدراسات (س. لنسال، م. ح. فنطر س. موسكاتي...) لكن يبقى عمل س. قزال (HAAN.T.IV) مرجعاً أساسياً خاصة بالنسبة إلى تحليل ما ورد على لسان الكتاب الكلاسيكيين.

ننصح في هذا الإطار بالعودة إلى :

- FERJAOUI (A), *Recherches sur les relations entre l'Orient phénicien et Carthage* Tunis, 1992, Surtout le dernier chapitre p 335 et suiv.

(توجد ترجمة عربية لهذا المؤلف بنفس العنوان صدرت سنة 1993)

- LIPINSKI (E), « Les racines syro-phéniciennes de la religion carthaginoise », in, *CEDAC*, 8, (1987) pp. 28-45.
- *Dieux et déesses de l'univers phénicien et punique*, *Studia Phoenicia*, XIV, (1995).

مع ضرورة الحذر عند الاعتماد على هذين المرجعين الأخيرين

- PICARD (G.C), *Les religions de l'Afrique antique*, Paris, 1954.

مع ضرورة الحذر عند الاعتماد على هذا المرجع أيضاً.

- RIBICHINI (S), *Poenus advena. Gli dei Fenici e l'interpretazione classica*. Rome, 1985.
- SZNYCER (S), «Les religions des Sémites occidentaux», in, *Dictionnaire des mythologies (tiré a part)*, pp. 1-75.

حول بعل حمّون انظر :

- DUNAND (M), DURU (R), OUMM El 'Amed, *Une ville de l'époque hellénistique aux Echelles de Tyr* Paris, 1962 surtout p. 187 et suiv
- FANTAR (M.H), « Baal Hammon », in, *REPPAL*, V, (1990), pp. 67-105.
- FEVRIER (J), « A propos du serment d'Hannibal », in, *Cahiers de Byrsa*, 6, (1956), pp. 13-22.
- HALEVY (J), *Mélanges de critique et d'histoire relatifs aux peuples sémitiques*. Paris, 1883.
- LE GLAY (M), *Saturne africain, Momuments I – II*, Paris, 1961-1966.
- *Saturne africain, Histoire*, Paris, 1966.
- LENORMANT (F), « quelques observations sur les symboles religieux des steles puniques », in, *Gazette Archéologique*, 2, (1876) pp. 146-147.
- LIPINSKI (E), « Zeus, Ammon et Baal –Hammon », in, *Studia Phoenicia*, II, (1984), pp. 307.333.
- XELLA (P), *Baal Hammon, Recherches sur l'identité de l'histoire d'un dieux phénico-punique*, Rome, 1991 (مع ببيلوغرافيا مفصلة)

حول تانيت انظر مثلاً :

- BORDREUIL (P), « Tanit au Liban », in, *Studia Phoenicia*, V, (1987), pp. 79-86.
- HVIDBERG – HANSEN (F.O), *La déesse TNT, une étude sur la religion canaanéo - punique*, 2 vol, Copenhagen, 1978.

(ضرورة الحذر عند اعتماد هذا المرجع خاصة في شأن الفرضية المتعلقة بجذور تانيت وقد تمّ تجاوزها نهائياً).

- MOSCATI (S), « Tanit in Fenicia », in, *Rivista di Studi Fenici*, VII, (1979), pp. 143-144.
- PRITCHARD (J.B), *Recovering Sarepta, a Phoenician city*, Princeton, 1978, pp. 131-148

« The Tanit Inscription from Sarepta », in, *Phonizier im Westen*. Mainz (1982), pp. 83-92.

- RONZEVALLE (S), « Traces du culte de Tanit en Phénicie », in, *Mélanges de l'Université Saint Joseph*, 5, (1952), pp. 75-83.

حول الرمز المنسوب اصطلاحاً لتانيت تتميز البيبلوغرافينا بضخامتها ولنصح بالعودة مثلاً إلى العناوين التالية (مرتبة حسب تواريخ صدورها).

- HOURS-MIEDAN (M), « Les représentations figurées sur les stèles de Carthage », in, *Cahiers de Byrsa*, I, (1951), pp. 15-161.

- PICARD (C), *Catalogue du musée Alaoui, nouvelle serie, collections puniques, tome I*, Paris, 1955.

- FANTAR (M.H), « pavimenta punica et signe dit de Tanit dans les habitations de Kerkouane », in, *Studi Magrebini*, I, (1966), pp. 57-65.

- MOSCATI (S), « l'origine del segno di Tanit », in, *Rendiconti dell'Accademia Nazionale di Lincei, Ser VIII*, 27, (1972), pp. 371-374

- BENIGNI (G), « Il "segno di Tanit " in Oriente », in, *Rivista di Studi Fenici*, 3, (1975), pp. 17-18.

- MOSCATI (S), « Un "segno di Tanit" presso Olbia », in, *Rivista di Studi Fenici*, 7 (1979), pp. 41-43.

- GARBINI (G), « riflessioni sul "segno di Tanit" », in, *Miscelanea di Studi classici in onore di E. Mammì*, I, Roma, (1980), pp. 1033-1049.

- BISI (A.M), "Ancora sull'origine del segno di Tanit", in, *Miscelanea* ..(نكر سابقاً) pp. 211-220.

حول إشكالية القرابين البشرية انظر :

- BENICHOU - SAFAR (H), A propos des ossements humains du "tophet" de Carthage, in, *Rivista di Studi Fenici*, IX, (1981) pp. 5-9.

- Sur l'incinération des enfants aux "tophets" de Carthage et de Sousse, in, *Revue de l'Histoire des Religions, Janv- Mars* (1988) pp 57-67

- BONDÌ (S.F), "Per una riconsiderazione del tofet", in, *Egitto e Vicino Oriente*, 2, (1979) pp. 139-150.
- CHARLIER (R), "La nouvelle série de stèles puniques de Constantine et la question des sacrifices dit "molchomor" en relation avec l'expression "BSRM BTM"", in, *Karthago*, 4, (1953) pp. 1-48
- DE VAUX (R), *Les sacrifices de l'Ancient Testament*, Paris 1964.
- DUSSAUD (R), *Les origines cananéennes du sacrifice israélite* Paris 1941.
- "Précision épigraphiques touchant les sacrifices d'enfants", in, *CRAI*, (1946) pp. 371-387.
- FEVRIER (J.G), "Molchomor", in, *Revue de l'Histoire des Religions*, 143 (1953), pp. 8-18.
- "Le vocabulaire sacrificiel punique", in, *Journal Asiatique*, 243, (1955) pp. 49-63.
- " Essai de reconstitution du sacrifice molek", in, *Journal Asiatique*, (1960), pp. 167-187.
- " Les rites de sacrifices chez les Hebreux et à Carthage", in, *Revue des Etudes Juives*, IVème ser, 3, (1964) pp. 7-18
- MARTELLI (F), "Aspetti di cultura religiosa punica (il molk) negli autori cristiani", in, *Atti del I congresso di Studi Fenici e Punici*, Tome II, Roma (1983), 425-437.
- MOSCATI (S), "Il sacrificio dei fanciulli", in, *Rendiconti della Pontifica Accademia Romana di Archeologia*, 38; (1965-1966) pp 61-68.
- Il "tofet", in, *Studi sull'Oriente e la Bibbia* (1967) pp. 71-75.
- "Il sacrificio dei fanciulli. realtà o invenzione?", in, *Rendiconti all'Accademia Nazionale dei Lincei*, 261, (1987) pp. 1-15
- PALLARY (P), "Note sur les urnes funéraires trouvées a Salambô près de Carthage", in, *Revue Tunisienne* (1922) pp. 206-211.
- RICHARD (J), *Etude médico-légale des urnes sacrificielles puniques et de leur contenu* (Thèse) (1961).
- SIMONETTI (A), "Sacrifici umane e uccisioni rituali nel mondo fenicio-punico- Il contributo delle fonte letterarie classiche", in, *Rivista di Studi Fenici*, 11, (1983) pp. 91-111.

حول ملقرت انظر :

- BONNET (C), "Le dieu Melqart en Phénicie et dans le bassin méditerranéen: Culte national et officiel", *Studia Phoenicia*, I, II, Leuven (1983).
- "Le culte de Melqart à Carthage: un cas de conservatisme religieux", in, *Studia Phoenicia*, IV, (1986) pp. 209-223.
- "L'onomastique de Melqart. En appendice: L'inscription punique CIS, I, 4612", in, *Rivista di Studi Fenici*, XVII, 1, (1989) pp. 31-40.
- CULICAN (W), "Melqart. Representations of phoenician seals", in, *Abr - Nahrain*, 2, (1960- 1961) pp. 41-54.
- DUSSAUD (R), - "Melqart", in, *Syria*, XXV, (1948), pp. 205-230
- "Melqart d'après de récents travaux", in, *Revue de l'Histoire des Religions*, 151, (1957), pp. 1-21.
- LIPINSKI (E), "La fête de l'ensevelissement et la resurrection de Melqart", in, *Actes de la XVIIème rencontre assyriologique internationale*. Ham - Sur- Heure (1970), pp 30-58.
- PICARD (C) et G.Ch., "Hercule et Melquart". *Hommages à J. Bayet*, in, *Latomus*, 70, (1964) pp. 569-578.

حول عشترت انظر :

- BONNET (C), - *Astarté. Dossier documentaire et perspectives historiques*. Rome 1996.

بحوي هذا العمل إحالات ضافية إلى كل الأعمال التي تناولت بالدرس
الالهة عشترت.

- DELCOR (M), "Les trônes d'Astarté", in, *Atti del I Congresso di Studi Fenici e Punici*, III, Rome (1983) pp. 777-789
- FANTAR (M.H), "A propos d'Astarté en Méditerranée", in, *Rivista di Studi Fenici*, I, (1973), pp. 19-29.
- LECLANT (J), "Astarté à cheval d'après les représentations égyptiennes", in, *Syria*, XXVIII, (1960) pp. 1-67.
- MOSCATI (S), "Astarte in Italia", in, *Rivista di Cultura Classica e Medievale* (1965) pp 756-760.

- "Sulla diffusione del culto di Astarte Ericiana", in, *Oriens Antiquus*, 7, (1968) pp. 91-94.

حول إدخال عبادة ديمتار وكوري إلى قرطاج يمكن العودة إلى :

- LE BONNIEC (H), *Le culte de Cérès à Rome, des origines à la fin de la République*, Paris, 1958.
- MAURIN (L), "Himilcon le Magonide, crises et mutations à Carthage au début du IVème siècle au J.C", in, *Semitica*, XII, (1962) pp. 5-43.
- ÉICARD (G.Ch.), *Les religions de l'Afrique antique*, Paris , 1954.
- "La religion punique", in, *Dossiers de l'Archéologie*, Dec. (1982), Janv.(1983), pp. 45 et suiv.
- XELLA (P), "Sull' introduzione del culto di Demeter e Kore a Cartagine", in, *Studi e Materiali di Storia delle religioni*, XL, (1969), pp. 215-218.

خاتمة عامة

ارتأينا في هذا الجزء الأول من مقاربتنا لتاريخ قرطاج البونية الملاءمة بين مقتضيات التسلسل التاريخي من جهة والمحاور الرئيسية للحضارة البونية التي تمتد على أطوار تاريخ قرطاج من جهة ثانية وقد اقتضى منّا ذلك محاولة الإلمام بحديثات التوسّع الفينيقي في غرب المتوسط الذي يوفر عناصر الإطار العام لنشأة قرطاج. ومما أكدنا عليه توجه الفينيقيين نحو الارتباط الدائم بغرب المتوسط حيث تجذرت معالم حضارة ذات أصول شرقية أكسبها تفاعلها مع محيطها الجديد هوية متفردة عبرت عنها قرطاج التي اختزلت إلى حدّ كبير التاريخ البوني بحكم دورها الريادي. لذلك أفرنا لتأسيس قرطاج فصلا مطوّلا سعيّا من خلاله الخروج بهذا الموضوع من دائرة الأسطورة وإبراز أهم روايات التأسيس وحديثاتها ومحدثاتها الإغريقية واللاتينية. وقد حاولنا الاستفادة من خلاصة البحث الاثري سواء لمراجعة تاريخ التأسيس أو لاستجلاء معالم الاطار الحضري أي القطاعات البونية التي أمكن إنقاذها وسمحت بتبيين ملامح هيكلية حضرية كثيفة مميزة لحاضرة لعبت دورا استثنائيا في تاريخ المتوسط القديم. ولنا صدى لهذه المنزلة لا فقط في مستوى دور قرطاج السياسي والعسكري بل أيضا من خلال إقرار أرسطو بالطابع المحكم لدستورها ومؤسساتها السياسية وتصنيفها ضمن المدن - التّول التي يمكن المقارنة بينها وبين نظيراتها الإغريقية.

اتخذ تأثير قرطاج بعدا متوسطيا تزامن مع التطور التدريجي لحضورها الإفريقي الذي اختصرته المصادر الكلاسيكية في علاقات تنافس عسكري وسياسي عملنا على مراجعته برصد خصائص هذه العلاقة مبرزين مدى التفاعل بين القرطاجيين والأهالي الأفارقة ومشددين على دراسة طبيعة إدارة العاصمة البونية لمجال قاري مثل إلى حد ما قاعدة اقتصادية ثابتة من أبرز شواهدا إجماع مصادرها على نجاح القرطاجيين في إحراز تجربة تكثيف زراعي في ما عرف بالمجال الزراعي لقرطاج. غير أن هذا البعد الاقتصادي لا يقلّ في شيء

من أولوية النشاط التجاري الذي مثل دعامة قوة قرطاج وكيف بشكل لافت للنظر سياستها تجاه إمبراطوريتها من جهة وتجاه قوى المتوسط من جهة ثانية. وقد لعبت الارستقراطية المتنفذة سياسيا واجتماعيا دورا محوريا في توجيه تاريخ قرطاج وهو ما تدفع مختلف إشارات مصادرنا على الأخذ به إلا أننا حاولنا توظيف المادة المصدرة، على ندرتها، لتبين مكانة بقية الفئات الاجتماعية سواء من بين القرطاجيين أو الأهالي الأفارقة أو أيضا الأجانب المقيمين في العاصمة البونية.

خصصنا الفصل الأخير من هذا الجزء للجانب الديني وذلك سعيا لاستكمال دراسة مختلف أوجه الحضارة البونية فأبرزنا أهم مكونات مجمع الآلهة القرطاجي في أصوله الفينيقية ونطوره الذاتي وتأثره بديانات الحضارات المجاورة.

نأمل في خاتمة هذا الجزء الأول أن تكون مختلف فصوله كفيلا بإبراز الأصول التاريخية لقرطاج ورسم أهم ملامح حضارتها. ونود لفت نظر القارئ إلى أن الفصول المدروسة بقدر ما تبدو مستقلة بذاتها فهي تيسر الإمام بحوثات التاريخ السياسي والعسكري لقرطاج في محيطها المتوسطي الذي أفردنا له الجزء الثاني وأعلنا عناصره في المقدمة.

وإجمالا فإننا أكدنا على تطور البحث التاريخي في قراءة مختلف المصادر الأدبية والنقائشية والأثرية مقدرين خطورة ترجيح ما أو افتراض أي استنتاج فسعينا إلى أن تجمع النتائج التي توصلنا إليها بين الابتعاد عن المجازفة الوثوقية من جهة والإيمان بالتطور الدائم للمعرفة من جهة ثانية.

الفهرس

5	مقدمة عامة.....
15	الفصل الأول : مصادر تاريخ قرطاج.....
16	المصادر الأدبية.....الشاذلي بورونية...
37	المصادر الأثرية.....محمد طاهر
45	المصادر النقائشية.....محمد طاهر
53	مصادر الفصل الأول ومراجعته.....
61	الفصل الثاني: التوسع الفينيقي بغرب المتوسط.....محمد طاهر
63	التوسع الفينيقي بالمتوسط الغربي من خلال المصادر الأدبية.....
67	التوسع الفينيقي بالمتوسط الغربي من خلال المصادر الأثرية والنقائشية
67	المملكة الجنوبية من شبه الجزيرة الأيبيرية ..
70	الساحل الأطلسي الإفريقي ..
72	أوتيكا ..
72	سردينيا ..
73	صقلية ..
80	مصادر الفصل الثاني ومراجعته ..
87	الفصل الثالث: تأسيس قرطاج.....الشاذلي بورونية...
89	تأسيس قرطاج : الروايات التاريخية ..
97	روايات تأسيس قرطاج: خصائصها ونؤولاتها ..
114	الإطار التاريخي المبائر: فبنيقيا خلال القرن التاسع ق.م. ..
117	تأسس قرطاج في ضوء المعطيات الأثرية ..
123	مصادر الفصل الثالث ومراجعته ..

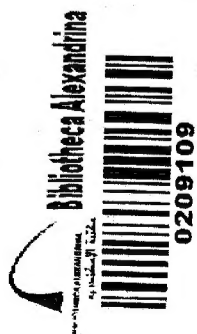
127.....	الفصل الرابع: مدينة قرطاج : الإطار الحضريمحمّد طاهر
130 .	المصادر الأدبية والنقائشة
131.....	وضعية اثرية تتميز بكثير من التعقيد
137..	النسيج العمراني القرطاجي
137.....	المدينة العتيقة
142.....	التمدين القرطاجي القرن الخامس - أواسط القرن الثالث ق.م.
148.....	الإطار الحضري القرطاجي من القرن الثالث إلى سنة 146 ق.م.
160.	مصادر الفصل الرابع ومراجعته
165...	الفصل الخامس: المؤسسات السياسية القرطاجية .. الشاذلي برونّيّة ..
169 .	إشكالية الملكية في قرطاج
174 ..	سلطة السبطين ومؤسسة الأسباط
177.....	مجلس الشيوخ
180.....	مجلس الشعب
185.....	محكمة المائة والأربعة
190.....	مصادر الفصل الخامس ومراجعته
	الفصل السادس : الحضور القرطاجي في المجال الإفريقي
193.....	الشاذلي برونّيّة. ..
	القرطاجيون والأهالي الأفارقة من تأسيس قرطاج إلى أواسط القرن
194.....	V ق.م.....
195.....	المجال الإفريقي لقرطاج
199.....	الإدارة القرطاجيّة للمجال الإفريقي
210 .	قرطاج والأهالي: الوجه الآخر للعلاقات والتفاعلات الحضاريّة
215..	مصادر الفصل السادس ومراجعته

217	الفصل السابع : الإقتصاد والمجتمع
217	التجارة القرطاجية
217	المبادلات التجارية القرطاجية مع صقلية وسردينيا
225	المبادلات القرطاجية مع بلاد الإغريق الشرقية
228	المبادلات القرطاجية مع مصر
229	المبادلات القرطاجية - الانرسكية
231	المبادلات التجارية بين قرطاج وروما
233	المبادلات مع إيبيزا وجنوب شبه الجزيرة الابيرية
238	المبادلات البرية
239	تنظيم التجارة القرطاجية
247	الفلاحة القرطاجية
247	علم الزراعة القرطاجي: كتاب الفلاحة لماجون
251	الفلاحة وخصائص المجال الزراعي القرطاجي
255	ملاحم المجتمع القرطاجي
266	مصادر الفصل السابع ومراجعته
273	الفصل الثامن : الديانة القرطاجية
273	* المصادر النقائشية
273	* المصادر الأثرية
273	* المصادر الأجنبية
275	بعل حمون
277	تانييت
280	مسألة تقديم القرابين البشرية
294	ملقرت
295	عسرت

298.....	أشمون.....
298.....	الآلهة الأجنبية.....
304.....	مراجع الفصل الثامن.....
311.....	خاتمة عامة.....
313	الفهرس.....

دفعنا لتأليف هذا الكتاب إيمان راسخ بأهمية تأثير حضارة قرطاج لا فقط في تاريخ البلاد التونسية بل وفي تاريخ البحر الأبيض المتوسط ولقد أنسنا عند المهتمين بهذه الفترة رغبة في أن يوضع على ذمتهم مؤلف يسد فراغا في المكتبة العربية بحكم افتقارها حتى اليوم إلى مرجع باللسان العربي إذا ما استثنينا بعض المحاولات القليلة الجادة.

ولما كان الاتجاه اليوم ينحو إلى تدريس تاريخ هذه الحضارة باللغة العربية فقد سعينا إلى أن تكون عبارة الكتاب على سهولتها تجريبية لتطويع لغتنا للتعبير التاريخي الدقيق... ولم يشكل ذلك في الحقيقة الواعز الوحيد الذي حثنا على صياغة هذا الكتاب بل أن يقينا عميقا بأهمية ما حققه البحث التاريخي على امتداد الفترة الأخيرة من تقدم قد رسخ في أذهاننا مشروعية العمل الذي نعرض ثماره على قرائنا فقد شملت جهود البحث كامل أرجاء الإمبراطورية القرطاجية تقريبا... وهو ما وفر للمختصين فرصة لتنزيل تاريخ هذه القوة في إطاره المتوسطي ولكن بكل أبعاده العسكرية والإقتصادية والثقافية وطبيعي أن تتراءى لنا اليوم صورة قرطاج بمظهر يختلف عما تعودت تقديمه الأبحاث الأولى وأمكن لنا استجلاء أوجه التأثير الذي مارسه على الحضارات المجاورة ومدى تأثير هذه الحضارات بدورها على الحضارة القرطاجية وهو ما أكسب قرطاج هوية متفردة ذلك أنها جمعت بين التأثيرات الموروثة عن البلاد الفينيقية بحكم شرقية المهد الذي انحدرت منه والتأثيرات التي اكتسبتها من الثقافات المجاورة لينصهر كل ذلك في ثقافة أثرت في تاريخ المتوسط وأثرته.



محمد طاهر

قسم التاريخ

كلية العلوم الإنسانية والإدارة

الشاذلي بورونية

قسم التاريخ

كلية الآداب بمتنوبة

مركز النشر الجامعي 1999.

ت د م ك : 9973.937.75.9

التمن : 10 دنانير